سيكولوجية الفكاهة والضحك

بقلم
الدكتور زكريا إبراهيم

سيكولوجية الفكاهة والضحك

في علم النفس

سيكولوجية الفكاهة والضحك

بقلم

الدكتور زكريا ابراهيم

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي ١

تصدير

ليأذن لى القارئ فى أن أسرد عليه قصة ميلاد هذا الـكتاب . . . ولنبدأ هذه القصة من أولها ، فإنها قد تـكشف لنا عن بعض الجوانب الغامضة من مشكلة « الضحك » . لقد كنتُ أدرّس لطلبة قسم الفلسفة بجامعة القاهرة « مشكلة الموت » ، وكان محور تأملاتى فى تلك الدراسة هو المضمون الوجودىّ لظاهرة « التناهى » باعتبارها نسيج الوجود الإنسانى . ولم أكفّ منذ تلك اللحظة عن التفـكير فى سرّ ذلك الموجود العجيب الذى هو بين الـكائنات جميعاً أشدها جزعاً من الموت ، ولـكنه فى الوقت نفسه أكثرها ولعاً بالتأمل فى واقعة الموت . . . وشغلتنى هموم الحياة عن التفـكير فى الموت — فإنّ من نعم الحياة على الإنسان أنها تشغله عن نفسه وعن وجوده وعدمه ، وعن موته وما بعد موته — إلى أن صحوتُ على الحقيقة الأليمة القاسية فى مستهل هذا العام حينما جاء الناعى يحمل إلىّ نبأ وفاة والدى ! وكنتُ من قبل أستطيع أن أفـكر فى « الموت » ، دون أن تزعجنى بحال « فـكرة الموت » ، فوجدتنى منذ ذلك الحين لا أقوى على مقاومة ذلك الدوار العنيف الذى يستبدُّ بى كلما حاولت التفـكير فى « الموت » . وهكذا أقلعتُ عن

الـكتابة فى « الموت » ، وبقيَتْ تأملاتى السابقة أفـكاراً مبعثرة تطويها وريقات صفراء هيهات أن ترى النور !

وفجأة وجدتنى أمسك بالقلم لـكى أعالج مشكلة « الضحك » ! وكان قد عُهِدَ إلىّ بتدريس مادة « علم النفس الاجتماعى » لطلبة قسم الدراسات الاجتماعية ، فاحتلّتْ « سيكولوجية الفكاهة والضحك » الجانب الأكبر من محاضراتى ، وكأنما كان « الضحك » هو الموئل الذى اهتدت إليه نفسى بعد أن عصفت بها رياح المقادير . ولم يخطر على بالى عندئذ أن أفـكر فى العلاقة بين « الضحك » و « الموت » ، ولـكن من المؤكد أن لاشعورى الدفين لا بد أن يكون قد وجد فى « الضحك » بلسما شافيا لنفس حزينة فجعها القدر فى أعز مخلوق لديها . واليوم إذ أفـكر فى الدافع الخفىّ الذى حدا بى إلى دراسة ظاهرة الفكاهة ، لا أجد أية غرابة فى أن تكون « فـكرة الموت » نفسها هى التى أنبتت فى ذهنى « فـكرة الضحك » . وهل كان الضحك إلا اختراعاً بشريا تفتّق عنه ذهن ذلك الموجود المتناهى الذى يعرف أنه لا محالة ذائق الموت ؟ لقد أرادت الطبيعة لهذا « المخلوق الناطق » أن ينوء بهمّ الموت ، وكأنما هى قد أرادت أن تكون « فـكرة الموت » هى الضريبة الفادحة التى يدفعها الإنسان ثمناً لنعمة العقل الذى اختصته به دون غيره من الموجودات ، فـكان لا بد لهذا الموجود الناطق الشقىّ أن يجد

علاجاً لفكرة الموت ، ومن ثَمّ فقد كان « الدين » ، وقد كان « الضحك » !

ولسنا نزعم أن فكرة الموت هى الكفيلة وحدها بتفسير ظاهرة الضحك ، وإنما نحن نعتقد أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكون الإنسان هو « الحيوان الناطق » ، وأن يكون فى الوقت نفسه هو « الحيوان المتدين » ، وهو « الحيوان الضاحك » . — يقول أحد الباحثين المعاصرين : « إنه لا وجود للضحك فى الطبيعة : فإن الأشجار لا تضحك ، والحيوان لا يعرف الضحك ، والجبال لم تضحك يوماً . . . وإنما يضحك البشر ، والبشر وحدهم ! ولا يقتصر الضحك على الكبار ، بل إن الأطفال ليضحكون ، حتى قبل أن يكونوا قد تعلموا الكلام . . . فالضحك ظاهرة إنسانية ، أو هو فضيلة قد اختص بها البشر ؛ وربما يكون الله قد جاد بها عليهم ، حتى يُعزّيهم عما لديهم من ذكاء وقدرة عقلية . »[1] — أما نحن فإننا نقول : إن « الضحك » هو العلاج الناجع الذى ابتكره عقل موجود مفكر يدرك اللانهائية ، ولكن تؤرقه فكرة « العدم » ، ويرين عليه حصار « الموت » ، وتقض مضجعه بين حين وآخر أشباح « الفناء » ! . . . والواقع أنه حينما تحوم حولنا أشباح الموت البغيضة المزعجة ، فإن « الضحك » سرعان ما يجىء بعصاه

---

(١) *Marcel Pagnol: «Notes sur le Rire» Editions Nagel, 1947, Paris, p. 66.*

السحرية لكى يبدد تلك الهواجس الكئيبة ، باعثاً فيما حولنا جواً انطلاقياً ملؤه اللهو والعبث واللاواقعية . وعندئذ لا يلبث العالم الذى نعيش فيه أن يصبح حلما لا حقيقة له ، وكأن مشاغلنا وآلامنا وهمومنا إن هى إلا أضغاث أحلام ! « فالكوميديا » — كما سنرى — دواء مطهر يزيل من النفس أدران الهم والقلق واليأس والحقد والتشاؤم ، حتى لقد يصح أن نتحدث عن ضرب من « التطهير الكوميدى »[١] .

وهذا نيتشه فيلسوف الحياة الخصبة العميقة ، والإرادة القوية المنتصرة ، يتحدث عن الضحك فيقول : « إننى لأعرف تماماً لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يضحك : فإنه لما كان الإنسان هو أعمق الموجودات ألماً ، فقد كان لابد له من أن يخترع الضحك ! . وإذن فإن أكثر الحيوانات تعساً وشقاء ، هو — بطبيعة الحال — أكثرها بشاشة وانشراحا »[٢] . — ويعود نيتشه فينادى على لسان نبيه زرادشت قائلا : « لقد أتيت لكم بشِرْعة الضحك ، فيا أيها « الإنسان الأعلى » تعلم كيف تضحك ! » أما لورد بيرون فإنه يقرن الضحك

---

(١) *«Catharsis Comique»* بالمعنى الأرسطاليسى لهذه الكلمة التى تعنى الاستبعاد والطرد والتطهير .

Cf. Charles Lalo: «Esthétique du Rire,» Flammarion, Paris, 1949, p. 163.

(٢) نيتشه « إرادة القوة » ، الفقرة ٩١

(*F. Nietzsche: "Will to Power", § 91.*)

بالبكاء حين يقول : « ما ضحكت لمشهد بشرى زائل ، إلا وكان ضحكى بديلا أستعين به على اجتناب البكاء » ! . والحق أن الابتسام والضحك والبشاشة والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا إن هى إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس ، فتلتمس فى اللهو ترويحاً عن نفسها ، وتبحث فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذى كثيراً ما يثقل كاهلها .

وقد استثارت ظاهرة الضحك من قديم الزمان اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس ، فعنى بدراستها كل من أفلاطون وأرسطو وشيشرون وديكارت واسبينوزا وهوبز ولوك وفولتير وكنت وهيجل وشوبنهور واسبنسر ورنوفييه وبرجسون وفرويد ومكدوجال وهوفدنج وغير هؤلاء . وليس فى وسعنا أن نأتى فى هذا الكتاب على تاريخ مفصل لتطور النظريات الفلسفية والسيكولوجية فى تعليل الضحك ، ولكننا سنعرض لدراسة هذه الظاهرة فى ذاتها مع الإشارة بين الحين والآخر إلى بعض النظريات التى قد تعيننا على فهم الدلالة الإنسانية للضحك بصفة عامة . وليس يكفى لمثل هذه الدراسة أن تقف عند حد تعليل الضحك ، أو تحديد العوامل الاجتماعية المؤثرة على نمو روح الفكاهة ، أو التعرض

للبحث فى صميم الوظيفة النفسية التى تقوم بها الفكاهة فى حياة الأفراد والجماعات ، وإنما لا بد لها أيضاً من أن تمتد إلى وصف وتصنيف شتى الاتجاهات الذهنية التى ترتبط فى العادة بهذه الظاهرة السيكوفسيولوجية المعقدة .

ولما كان المنهج التجريبى قد أصبح هو المنهج السائد فى شتى ميادين علم النفس الحديث ، فقد حاول بعض الباحثين الاستعانة بطرق التجريب المتنوعة فى دراسة مظاهر الفكاهة والضحك عند الأطفال والبالغين ، والعمل على تحديد شتى العوامل النفسية التى تدخل فى تركيب المواقف الهزلية لدى كل جماعة من الجماعات . — حقا إن المنهج التجريبى لم يسمح لنا حتى الآن بأن نقف على الطبيعة الدفينة لظاهرة «الضحك» فى جانبيها الفسيولوجى والسيكولوجى ، ولكن من المؤكد أن التجارب العديدة التى قام بإجرائها الكثير من رواد علم النفس الحديث قد أسهمت إلى حد كبير فى الكشف عن طبيعة العمليات السيكولوجية التى تستلزمها صياغة النكتة ، وتذوق الفكاهة ، والاستجابة للمنبهات المضحكة .. الخ. وقد اتخذ التجريب فى هذا المجال طابع الاستفتاء أو الاستخبار ، فأصبح الباحث يقدم إلى المختبرين طائفة من المنبهات الفكاهية (سمعية كانت أو بصرية) ، ويطلب إليهم أن يقوموا بترتيبها ترتيبا تنازليا على أساس حظّها من الفكاهة ، أو أن يعطوا كُلاًّ منها درجة تتناسب مع

مدى تقديرهم لها بالاستناد إلى معيار محدَّد سابقاً . وهكذا ظهرت مجموعات غير قليلة من « استخبارات الفكاهة » ، وحرص بعض الباحثين على صياغة نتائج استخباراتهم فى صور إحصائية ، بينما حاول آخرون أن يصوغوا ما تنطوى عليه تلك النتائج من مدلولات نفسية واجتماعية على شكل نظريات فلسفية فى شرح ماهية الضحك ، وتحديد مضمون الروح الفكاهية — . كذلك اتجه بعض المشتغلين بدراسة الفكاهة إلى الاستعانة بالرسم ، فكان يطلب إلى المختبرين (من بين الأطفال على وجه الخصوص) رسم بعض الأشكال المضحكه أو الصور الهزلية ، كما كان يعرض عليهم بعض الرسوم الكاريكاتورية بقصد معرفة مدى إدراكهم لما فيها من عنصر هزلىّ . ولما كان كثير من علماء النفس قد أجمعوا على اعتبار « الروح الفكاهية » سمة من السمات الشخصية الهامة ، فقد كان من الطبيعىّ أن تتجه الدراسات التجريبية نحو قياس هذه السمة الشخصية الهامة .

ولا شك أن هذه التجارب جميعاً — مهما اختلفت صورها وتعددت مراميها — إنما هى أدوات علمية يُقْصَد من ورائها الانتقال بالمشكلة من المجال النظرى الفلسفى المحض ، إلى المجال التجريبى التطبيقىّ البحت . وهكذا أصبح الباحثون فى علم النفس التجريبى يهتمون بدراسة الفروق الفردية القائمة بين الأفراد من حيث مدى إقبالهم على الفكاهة

أو عزوفهم عنها ، وصاروا يقدّمون على البحوث النظرية فى تعليل الضحك ، دراساتهم الجزئية فى تحديد العلاقة بين الفكاهة والذكاء ، أو بين الضحك والمزاج الشخصى ، أو بين النكتة والظروف الاجتماعية ، أو بين الروح الفكاهية وطبيعة كل شعب . . . الخ . وليس فى وسعنا — بطبيعة الحال — أن نلمّ فى هذه العجالة القصيرة بكل تلك البحوث العلمية الدقيقة التى تعرّض أصحابها لحصر هذه العوامل النفسية والاجتماعية العديدة ، أو بيان تلك الفروق الفردية والجماعية الكثيرة ، مما يعمل عمله فى إشاعة روح الفكاهة بين الناس ، أو فى تمايز الأفراد والجماعات من حيث مدى إقبالهم على الضحك ؛ وإنما حسبنا أن نشير هنا وهنالك إلى بعض التجارب الهامة التى قد تعيننا على فهم التفاعل الديناميكى الذى يتمّ بين الفرد والمجتمع فى دائرة الفكاهة والضحك (كما يتم فى غيرها من دوائر حياتنا العادية) . — وسنرى فى ختام هذا الكتيّب إلى أى حدّ يمكن القول بأن الضحك يؤدّى فى حياة الأفراد والجماعات وظيفة نفسية هامة من وظائف الاتزان العاطفى ، وكيف أنه السبيل إلى تحقيق ضرب من التكامل النفسىّ — الاجتماعىّ .

الفصل الأول

بين الابتسام والضحك

١ — إذا التقيتَ بشخص فى الطريق فإنك تحيّيه عادة بابتسامة مهذَّبة ، و إذا شممت زهرة نضرة عاطرة فإنك قد تعرب عن ارتياحك لعبيرها الحلو بابتسامة عذبة ، و إذا وجدت نفسك فى مأزق حرج فإنك قد تحاول تغطية الموقف بابتسامة متكلَّفة ، و إذا أدّى إليك شخص غريب خدمة لم تكن منتظرة فإنك قد تعرب له عن شكرك بابتسامة رقيقة تتضمن الاعتراف بالجميل ، وحينما تتعرّف إلى فتاة مليحة فى بلد أجنبى تجهل لغة أهله فإنك قد تفصح لها عن ودك بلغة الابتسام . . . الخ فما هى العلاقة إذن بين كل تلك الأنواع المختلفة من الابتسام ، وما هو المضمون السيكولوجى لتلك اللغة الإنسانية النوعية التى نسمّيها بلغة الابتسام ، ثم ما هى العلاقة بين الابتسام والضحك ؟

هنا نجد أن الرأى الذى قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن الابتسام وسيلة من وسائل « الاتصال الاجتماعى » ، بمعنى أنه ضرب من « التعبير » الذى يفصح به الموجود الفرد عن رغبته فى إقامة بعض الروابط بينه و بين غيره من الأفراد . وآية ذلك أنه حينما يشعر الفرد بضرب من الخجل أو الحياء ، لعجز ما فى قدرته اللغوية ، ممّا قد يحول

بينه وبين صياغة أفكاره صياغة لفظية واضحة ، فإنه قد يعمد إلى الابتسام فى وجه محدّثه بدلًا من مجاذبته أطراف الحديث ؛ وهو قد يبالغ أحيانا فى ابتساماته حتى لتبدو تلك الظاهرة لديه بمثابة حالة شاذة غريبة ! . ولكنْ ألا يحدث أحياناً أن يبتسم المرء بعد أكلة شهية ، أو عند قراءته لنادرة طريفة ، أو حينما يرى مشهداً جميلًا حتى ولو كان بمفرده ؟ إنّ بعضاً من الباحثين الذين عنوا بدراسة الأصل فى ظاهرة « الابتسام » ليأخذون بمبادئ التطوريِّين فى « الانتخاب الطبيعى » فيقولون إن عملية الرضاعة عند الطفل الصغير هى التى عملت على ظهور « الابتسامة » باعتبارها علامة على « الشهيّة المُشْبَعة » . ولكننا نلاحظ أن صغار الحيوانات ترضع كصغار البشر تماماً ، ومع ذلك فإنها لا « تبتسم » ... والظاهر أن الربط بين عملية « الابتسام » وعملية فتح الفم للرضاعة (أو امتصاص اللبن) قد لقى قبولًا حسنا من جانب بعض علماء التحليل النفسى ، لأنهم وجدوا فى هذا التأويل تأييداً لنظرية فرويد فى أهمية « المرحلة الفمية » *Oral Stage* لدى الطفل باعتبارها المرحلة الأولى من مراحل تطوّره النفسى بصفة عامة ، والجنسىّ بصفة خاصة .

أما التفسير الثانى لنشأة ظاهرة « الابتسام » فهو الذى يقول أصحابه إن الأصل فى الابتسام هو فتح الحيوان الصائد لفمه تأهّباً لابتلاع الفريسة التى وقعت بين براثنه ! وقد يكون من بعض مزايا هذا التفسير

أنه يربط بين وظائف الصراع من أجل البقاء وعمليات القنص ومطاردة الفريسة من جهة ، وبين ارتياح الحيوان لبلوغ مقصده ، وفتحه لفمه من أجل تذوّق الفريسة التى ظفر بها من جهة أخرى . ومن هنا فإن الباحثين الذين يأخذون بهذه النظرة إنما هم فى العادة أولئك الذين يربطون بين الضحك وظاهرة التفوّق أو الانتصار ، فيقولون بأن الابتسامة قد اقترنت فى البدء بتغلّب الإنسان الأول على غريمه ، أو تفوقه على الخصم بعد عملية مبارزة جسمية بدائية .(١)

ولكنْ ألا يُفْهَم من النظريتين السابقتين فى تفسير نشأة « الابتسام » أن الأصل فى هذه الظاهرة هو أنها تعبير عن الشعور بالرضا أو الارتياح ؟ إن هذا هو فيما يظهر رأى معظم الباحثين بدليل قول أحدهم إنه « كما أن الكلب المسرور يهزّ ذيله ، فإن الإنسان المنشرح يحرّك فكّه » ! ولكننا نخطئ إذ نظن أن الابتسام والضحك تعبيران تلقائيان عن الارتياح أو الرضا أو الانشراح ، فقد نبَّه بعض الباحثين إلى ضرورة دراسة أمثال هذه الانفعالات فى داخل الإطار الحضارىّ العام لكل مجتمع من المجتمعات على حدة ، مع مراعاة نوع الآداب العامة التى تتطوّر فى محيطها كل تلك الانفعالات . وآية ذلك

---

(١) *Rapp: «A phylogenetic theory of wit and humour»; in «Journal of Social Psychology», 1949, vol. XXX., pp. 81—96.*

أن الابتسامة فى اليابان — مثلاً — لا تخرج عن كونها مجرد تعبير وجهىّ قد اصطُلح عليه اصطلاحاً ، بحيث أن آداب الضيافة عند اليابانيّين لتقضى عليهم بألا يتجاوزوا بحال حدّ الابتسام فى حضرة شخص غريب . وعلى العكس من ذلك ، نرى أن الآداب العامة لتقضى على الواحد منهم ، حتى حينما تلمّ به محنة أو كارثة ، بأن يضع على وجهه ابتسامة مصطنعة تكون بمثابة « قناع السعادة » ، خشية أن يُتَّهم بأنه يريد أن يزيح الأحزان من فوق كتفيه لكى يلقى بها على أكتاف الآخرين !

٢ — فإذا ما تساءلنا الآن عن العلاقة بين « الابتسام » و « الضحك » ، وجدنا أن الغالبية العظمى من الباحثين تميل إلى القول بأن البسمة « مشروع ضحكة » ، وأن من شأن الابتسام بطبيعة الحال أن يستحيل إلى ضحك . ونظراً للأصل الاشتقاقى لكلمة « الابتسام » *Sourire* فى اللغة الفرنسية مثلاً ، فقد قال بعضهم إن الابتسام هو ما دون الضحك *un sous - rire*[١] . ومعنى هذا أن الابتسامة هى الظاهرة التى تسبق الضحكة ، أو هى ضحكة صامتة سرعان ما تتخذ صبغة سافرة بمجرد ما تزداد شدّة المنبّه الفكاهى . ولكنّ ثمة باحثين آخرين — ومنهم ديمون *Léon Dumont* فى فرنسا ، ووليم مكدوجال

(١) *Marcel Pagnol : «Notes sur le Rire», Paris, Nagel, 1947, p. 89.*

W. MacDougal فى انجلترا — يميلون إلى القول بأن الابتسامة تختلف عن الضحكة ، لا من حيث الدرجة فحسب ، وإنما من حيث الطبيعة أو الوظيفة أيضاً . وهنا يميّز مكدوجال بين الابتسامة والضحكة على أساس الجمال والقبح ، فيقول إن الأولى منهما جميلة ، بينما الثانية دميمة ! ويستطرد مكدوجال فيقول إن الشخص السعيد حقا لا يضحك ، إذ لا حاجة به إلى الضحك ، ولكنه قد يبتسم . وعلى الرغم من أن معظم الكتّاب الذين عرضوا لدراسة الضحك قد افترضوا — دون مناقشة — أن الابتسامة والضحكة شىء واحد ، أوهم على الأقل قد اعتبروا الابتسامة بمثابة «ضحكة جزئية ابتدائية» *Partial, Incipient* ، إلا أن مكدوجال يدعو إلى التفرقة بينهما ، على أساس أن الابتسامة (لا الضحكة) هى التعبير الطبيعى عن الرضا الذى يصاحب نجاح أى مسعى . فالظافر أو المنتصر يبتسم ابتسامة الظفر أو النصر أو الغلبة ، ولكنه لا يضحك . والأم حينما تتأمل طفلها السليم البنية المكتمل الصحة قد تبتسم ، ولكنها لا تضحك . ونحن نبتسم حينما نتوصل — بعد لأى — إلى الكشف عن سرّ طال بنا الأمد فى البحث عنه ، أو حينما نهتدى — بعد جهد — إلى حلّ مشكلة طالما سهرنا الليالى فى سبيل العمل على حلّها . ونحن نبتسم أيضاً حينما نتطلع إلى أى عمل متقن فرغنا من أدائه ، بعد أن كنا منهمكين أمداً طويلاً من الزمن

فى العمل على إنجازه ؛ بل اننا قد نبتسم لمجرّد توقعنا للنجاح أو انتظارنا له . — أما إذا تساءلنا عن السبب الذى من أجله كثيراً ما تنتهى ضحكاتنا بابتسامة ، كان ردّ مكدوجال على هذا التساؤل أن من شأن الضحك — مثله فى ذلك كمثل غيره من مظاهر النشاط الموفّق أو الناجح — أن يولّد الشعور بالرضا ، وهو الشعور الذى رأينا أنه لا يترجم عن نفسه إلاّ بلغة الابتسامة(١) .

بيد أن نظرية مكدوجال فى التفرقة بين الابتسامة والضحكة تتناسى أن الابتسامات على أنواع ، وأنه ليس فى وسعنا أن نقول إن كل ابتسامة لا بدّ من أن تحمل معنى الظفر أو الانتصار . وآية ذلك أن هناك ابتسامة الملاطفة ، وابتسامة التشجيع ، وابتسامة التحريض ، وابتسامة السخرية ، وابتسامة الإغراء ، كما أن هناك الابتسامة المتكلّفة ، والابتسامة المكتومة ، والابتسامة المهذّبة ، والابتسامة الصفراء . . . الخ . وقد أصبح فى وسع الإنسان الحديث أن يضع الابتسامة على وجهه كما يضع القبعة على رأسه ، وذلك لمواجهة المواقف الاجتماعية التى تستلزم الابتسام (كالمرءوس الذى لا بدّ من أن يحيّى رئيسه بابتسامةٍ مصطنعة) . وهذا ما عبّرنا عنه فى موضع آخر حينما كتبنا نقول : « وحتى ابتسامتنا نفسها قد تصبح مجرّد « استجابة آلية » تؤدّى وظيفة اجتماعية معينة ، وكأنما

(١) *W. Mc Dougal : «Outline of Psychology», Methuen, London ,1923, p. 166—7.*

هى مجرد ردّ فعل آلىّ على بعض المنبّهات الخارجية ، وبالتالى فإنها لا بدّ من أن تفقد فى هذه الحالة معناها الشخصى الوجدانى ، ما دام مَعينها الحقيقى قد نضُب[١] » . والواقع أن العلاقة وثيقة بين الابتسام والمواقف الاجتماعية ، خصوصاً وأن « الابتسامة » فى بعض المجتمعات المتحضّرة قد أصبحت بمثابة تعبير اصطلاحى عن الأدب والذوق وحسن المعاملة ، أو عن الودّ والصداقة وحسن النية ؛ حتى أن الشخص الذى لا يبتسم للآخرين ، حين ينبغى أن يلقاهم بابتسامة ، قد يتسبّب فى إحداث جفوة بينه و بين غيره من أفراد الجماعة . كذلك أصبح أصحاب المحلّات الكبرى فى كثير من البلدان ، يراعون عند اختيارهم للبائعين والبائعات ، أن يكونوا قديرين على الابتسام ، حتى يشجعوا العملاء على ارتياد محلّاتهم والإقبال على مشترياتهم ، فإن من شأن « الابتسامة » أن تخلق جوًّا اجتماعيًّا ماؤه التعاطف والمشاركة بين البائع والمشترى . وهكذا تكتسب « الابتسامة » صبغة اجتماعية باعتبارها أداة لتحقيق ضرب من « التعاطف » بين الأفراد .

وإن الأفراد ليختلفون من حيث مدى قدرتهم على الابتسام : فإن ثمة وجوهاً هى بطبيعتها باسمة ، بينما هناك وجوه أخرى هى بطبيعتها

---

(١) زكريا إبراهيم : « مشكلة الحرية » (ضمن مجموعة « مشكلات فلسفية ») ، مكتبة مصر ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٢٨ .

عابسة . والوجه الباسم كثيراً ما يكون بمثابة « خطاب توصية مفتوح » لصاحبه ، بينما الوجه العابس كثيراً ما يجلب لصاحبه المتاعب من حيث يدرى أو لا يدرى ! وقد كان ميلتون يقول : « إن مَعين البسمات هو العقل ، فما استطاع الرجل الفظّ الجاهل أن يبتسم يوماً » أما اللورد شسترفيلد *Chesterfield* فقد كان يَنْهَى أبناءه عن الضحك العامىّ المبتذل قائلًا لهم : « لست أحب أن يرا كم الناس إلاَّ مبتسمين ، ولكننى لا أحب أن يسمعكم الناس ضاحكين ! » والبَسْمة هنا علامة الأرستقراطية المترفّعة ، بينما الضحكة هى دليل على الضعة والعاميّة والابتذال ! ولعلّ من هذا القبيل أيضاً ما يروى عن الملك فيليب الثالث من أنه لم يضحك طوال حياته اللهمّ إلاَّ مرة واحدة (ولو أنها كانت ضحكة ملكية تليق بجلالته ، فقد ضحك عند قراءته لرواية دون كيشوت *Don Quichotte*)(١)

ولكن مهما كان من أمر هذه التفرقة « الطبقية » بين الابتسام والضحك ، فإن من المؤكّد أن الابتسامة قد تحمل المعنى الضمنى الذى تحمله الضحكة فى الأحوال العادية ، ولو أننا هنا قد نكون بإزاء رغبة إرادية فى كتمان الضحك أو الاستعاضة عنه ببديل أقل نفقة ، فتكون الابتسامة بمثابة « ضحكة اقتصادية » « *Rire Économique* » يوفّر فيها المرء على نفسه بعض الطاقات التى تُستنفَد عادة فى القهقهة العالية

---

(١) *Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire,» Flmmarion 1949, pp. 63—64.*

المرتفعة ! وهكذا تكون الابتسامة فى مثل هذه الأحوال بمثابة تعبير عن حرية الفرد وسيطرته على نفسه ، إذ يكون لسان حال الفرد هنا هو كتمان الضحكة حتى لا تذيع سرّه إلى الآخرين ! ولعل هذا هو ما عناه أحد الباحثين حينما وصف الابتسامة بقوله « إنها ضحكة يبيّن فيها المرء أنه ليس من الحماقة بحيث يضحك »[١] ! ومعنى هذا أن الشخص الذى يبتسم — حينما تعلو قهقهات الآخرين من حوله — إنما هو الشخص الذى لا يحبّ الظهور ، أو الشخص الذى لا يرى داعياً لأن يضحك حتى يثبت لنفسه أنه يضحك ! و بينما يطيب للكثيرين أن يروا أنفسهم ضاحكين ، أو أن يستمعوا إلى أنفسهم مقهقهين ، نجد أن الرجل الحكيم يتمتع بميزة « التوقف عن الضحك » فى مواقف كثيرة لا يملك غيره بإزائها سوى أن ينفجر ضاحكا ! ومن هنا فقد اعتاد الناس أن يضعوا فى مقابل الرجل العاميّ المبتذل الذى يضحك لأتفه الأسباب ، ذلك الحكيم العاقل الذى يملك القدرة على كتمان الضحك أو التحكّم فيه أو السيطرة عليه .

والواقع أن الجماعة تميل إلى الحدّ من روح الهزل والمزاح لدى الأفراد ، فنراها تعمل فى كثير من الأحيان على وقف الضحك عند حدّه ، أو الاستعاضة عنه ببديل أقل خطورة منه ألا وهو الابتسام .

---

(١) F. Jeanson : «*Signification humaine du rire*,» daris, Seuil, 1950, p. 178.

وقديماً قال أبو حسن البصرى : «وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر فى الأمور المهمّة ، مذهل عن الفكر فى النوائب الملمة ؛ وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ، ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار » ! [١] وآية ذلك أنه كلما تقدم المرء فى السنّ ، بل كلما زادت هيبته وعلا مقامه ، فإنه يلحّ فى طلب الجد والصرامة ، ويميل إلى قَمْع قهقهات الضاحكين فى حضرته ، وينزع نحو التحكّم فى صميم بسماته ! وكثيراً ما يأخذ الرؤساء بالقاعدة القديمة التى تقول : « من كثر ضحكه قلّت هيبته » فنراهم يأخذون مرءوسيهم بأساليب الجد والصرامة ، و ينكرون عليهم كل حق فى الإفصاح عن شعورهم بضحكة أو ابتسامة ! وهنا تتدخل العوامل الحضارية فى الموقف فتطالب المرء بأن يكون مالكا لزمام نفسه ، متحكما فى ضحكاته و بسماته ؛ وتفرض عليه أن يعمل على وضع انفعالاته جميعاً تحت سيطرة إرادته . وقد تشدّد حكماء العرب فى النهى عن الضحك الكثير المبتذل ، فقال قوم منهم : « ليكن بدل الضحك عند الإيناس تبسما و بشراً . . . فإن التبسّم دعابة وهذا أبلغ فى الإيناس من الضحك الذى قد يكون استهزاء وتعجبا ؛ وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه . هذا رسول الله صلّى الله عليه

(١) كتاب « أدب الدين والدنيا » لأبى حسن البصرى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ، (الطبعة السادسة عشرة) ، الفصل الخامس « فى المزاح والضحك » ، ص ٢٨٥ .

وسلّم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسّم حتى بدت نواجذه ، وإنما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلّم على الوجه الذى ذكرناه[1] » .

٣ — فإذا ما انتقلنا الآن إلى دراسة الابتسام عند الطفل ، وجدنا أن علماء النفس ليسوا متفقين فيما بينهم على تحديد تاريخ الابتسامة الأولى للطفل ، نظراً لاختلافهم فى تحديد السمات المميّزة للابتسامة الحقيقية ، وإنْ كانوا قد حصروا تاريخ تلك الابتسامة فى المدة ما بين الأسبوع الأول أو الثانى من حياة الطفل والشهر الثانى أو الثالث من عمره . وقد أجمع الباحثون على أن الابتسام يظهر لدى الطفل قبل الضحك ، بدليل أن تاريخ الضحكة الأولى للطفل يتراوح بين ثلاثة أسابيع وستة أشهر (أو أكثر) ، أى فى سنّ متأخرة نسبيًّا بالقياس إلى تاريخ أول ابتسامة له . ولكن الملاحظ بصفة عامة أن بعض الأطفال أسرع إلى الابتسام والضحك من غيرهم ، كما أن الطفل الذى يبتسم فى سن مبكرة غالباً مايضحك أيضاً فى سنّ مبكرة . ولما كان فم الطفل فى الأشهر الأولى من عمره كثيراً ما يظل فى شبه حركة مستمرة ، فإن الوالدَيْن كثيراً ما يتوهمان أن طفلهما « يبتسم » بسبب هذه الحركات التلقائية المرتسمة على شفتيه . ولكن بعض علماء نفس الطفل يقررون أن العلامة

---

(١) كتاب « أدب الدين والدنيا » لأبى حسن البصرى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ، (الطبعة السادسة عشرة) ، الفصل الخامس « فى المزاح والضحك » ، ص ٢٨٥ .

اليقينية المميّزة للابتسامة الحقيقية عند الطفل إنما هى بريق العينين الذى يصاحب انفراج الأسارير حينما يهش الوالدان فى وجـه طفلهما . — ومعنى هذا أن الابتسامة الأولى للطفل إنما هى تلك التى تكون بمثابة استجابة لوجه أمّه الضاحك أو المعبِّر . وهناك باحثون آخرون يميلون إلى القول بأن الابتسامة الأولى للطفل تقترن بعملية الرضاعة وما يعقبها من شبع وارتياح ؛ وذلك لأن أسارير الطفل كثيراً ما تنفرج بعد عملية الرضاعة ، كما أن عينيه قد تتوهجان ببريق غير عادىّ ؛ ولو أن هاتين الظاهرتين قد اقترنتا بظهور شخص الأمّ فى المجال البصرى للطفل فى كثير من الحالات التى شاهدها الباحثون(١) .

وعلى كل حال ، فإن من المؤكد — كما لاحظت شارلوت بوهلر — أن عملية الابتسام عند الطفل هى أولا وبالذات وظيفة اجتماعية ، تتولّد عن سماعه لصوت بشرى أو رؤيته لوجه بشرى ، وتبدأ بصفة عامة فى الشهر الثانى من عمره . ولـكن هذه الباحثة لا ترى ما يمنع من أن تقترن ابتسامة الطفل بشعور الرضا والارتياح الذى يتسبَّب عن الشبع والراحة ، وإن كانت الابتسامة فى هذه الحالة قد تتخذ طابعاً مختلفاً

---

(١) C. W. Valentine : «The Psychology of Early Childhood», Methuen, 1942, p. 99.

فتنفرج الشفتان إلى أعلى بشكل خاص (١) . — وسواء قلنا بأن الابتسامة الأولى للطفل هى ابتسامة تعبّر عن الشعور بالارتياح والراحة والأحاسيس السارة ، أم قلنا بأنها استجابة لابتسامة أمّه التى تهش فى وجهه ، فإن المهمّ هنا هو أن تعبيراً واحداً بعينه لابدّ من أن يظهر لدى الطفل فى هذه السنّ المبكرة استجابةً لموقفين مختلفين . هذا إلى أن الشعور بالارتياح الذى يظهر لدى الطفل نتيجة لحالة الشبع والراحة الجسمية ، كثيراً ما يتزايد حينما ينضاف إليه سرور الطفل لوجوده فى مجتمع بشرى . وسنرى فيما بعد كيف أن النموّ النفسى للطفل سرعان ما ينتقل به إلى الطور الذى يصبح فيه قادراً على الابتسام حتى حينما يكون بإزاء وجه غير مبتسم ، لكى لا يلبث الطفل أن يعتاد الابتسام حتى وهو بمفرده ، أو عند رؤيته لوجهه فى المرآة ، أو عند رؤيته لكثير من المشاهد البشرية أو غير البشرية التى لا أثر فيها للابتسام أو الضحك . ولم يحاول أحد من الباحثين حتى اليوم أن يقوم جدياً بدراسة حالات الابتسام (والضحك) لدى صغار الأطفال حينما يكونون بمفردهم تماماً .

ويأبى بعض الباحثين أن ينسب إلى ابتسامات الطفل فى هذه المرحلة صبغة اجتماعية ، فيقول إن ابتسام الطفل هنا هو ضرب من اللعب

---

(١) Charlotte Bühler : «The First Year of Life», New-York, 1930, pp. 62—63.

الذى يقوم به الطفل بمفرده . وحينما يتملّق الآباء أنفسهم بأن يتوهّموا أن طفلهم الصغير قد ابتسم لهم ، فإنهم ينسون أو يتناسون أن الطفل إنما يبتسم لنفسه وأن وجودهم إلى جواره إن هو إلاّ مناسبة عارضة استغلّها الطفل فى لعبه مع نفسه ![١] — ولكنْ أليس معنى هذا أن وجود الوالدين إلى جوار طفلهما هو بمثابة مُنبّه ملائم يستجيب له الطفل فى نشاطه التلقائى ولعبه الخاص ؟ فلماذا ننكر إذن على هذه الابتسامة صبغتها الاجتماعية باعتبارها وليدة اتصال بين الطفل ووالديه ؟

---

(١) F. Jeanson : «Signification humaine du Rire», Paris, Seuil, 1950, p. 109.

الفصل الثانى

فسيولوجيّة الضحك

٤ — إذا كان بعض الفلاسفة قد عرّف الإنسان بأنه « حيوان اجتماعى »، فإن بعضاً آخر منهم قد عرفه أيضاً بأنه « حيوان ضاحك » . وهو قد يكون « حيوانا ضاحكاً » ، لأنه « حيوان اجتماعى » ، وإن كان بعض الباحثين يميل إلى الربط بين القدرة على الضحك والقدرة على التعبير اللغوى ، فيقول إن الإنسان « حيوان ضاحك » لأنه « حيوان مفكّر » أو « حيوان متكلّم » . والواقع أن عملية الكلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنفس العضلات الوجهية والأجهزة النطقية التى تتركّز فيها عمليات الابتسام والضحك . ولسنا نعدم بين علماء الحياة من يقرر أن الضحك ظاهرة مألوفة لدى بعض أنواع الحيوان ، فقد ذهب دارون إلى أن هذه الظاهرة مُلاحَظة بوضوح لدى بعض القردة العليا الشبيهة بالإنسان ، حتى أن بعض أنواع الشمبانزى لتستطيع أن تقهقه بصوت مرتفع كالإنسان سواء بسواء . ولكن من المؤكد أنه لما كانت الأجهزة النطقية لدى الحيوان ليست من الترقّى بمثل ما هى لدى الإنسان ، فإن من الطبيعىّ أن تكون ضحكات الحيوان جزئية محدودة ، فضلاً عن أن معظم هذه الضحكات لا يكاد يعدو الأرجاع الفسيولوجية المترتبة على بعض

منبهات عضوية خاصة . ومع ذلك فإن دارون يؤكد أن ظاهرة الضحك عند القردة العليا تقترن بالكثير من الملابسات ، مثل تناول الطعام ، والدغدغة ، والمداعبة الجنسية ، ومصالحة الحارس بعد خصام . . . الخ[١] .

بيد أننا إذا سلّمنا مع دارون بأن الإنسان ليس هو الحيوان الوحيد الذى يعرف الضحك ، فإننا لا بدّ من أن نعترف بأنه الحيوان الوحيد الذى يعرف كيف يُضْحِك الآخرين . والحق أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف النكتة ، ويستخدم الفكاهة ، ويتفنّن فى خلق أسباب الضحك ، ويستعين بسلاح الدعابة والسخرية فى تعامله مع الآخرين ، ويستعمل ذكاءه فى ابتداع الروايات الهزلية . . . الخ . وقد برع بعض أفراد البشر فى ابتكار النكات وإطلاق الدعابات ، وتأليف المضحك من الروايات ، حتى أصبحت مهمّة إضحاك الناس حرفة لهم ، فصارت « الكوميديا » فنّاً حقيقياً له من القواعد الأدبية والحبكه الفنيّة مثل ما لغيره من الفنون اللغوية . وهكذا لمعت فى عالم الفكاهة أسماء بعض الممثّلين الهزليين المشهورين ، وأصبح للمجلاّت الهزلية قراؤها المواظبون ، وصار تأليف النكتة فنّاً دقيقا يرتكز على علم بأصول منطق الضحك .

(١) *Charles Darwin* : «*The Expression of the Emotions in Man and animals*», London, Watts & Co., 1943, Ch. VIII, pp. 98—105.

وحينما يقول بعض الباحثين — مثل برجسون — إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يُضْحِك (بكسر الحاء) ، فإنه يعنى بذلك أننا لا نضحَك لرؤية منظر أو جماد أو حيوان ، و إنما نحن نضحك فقط حينما نكون بصدد مشهد « بشرىّ » . و بعبارة أخرى فإن من الممكن أن يكون المشهد جميلاً أو قبيحًا ، رائعاً أو تافهاً ، مُسلّيا أو مُمِلًّا ، ولكنه لا يمكن أن يكون مُضْحكا . وأما حينما نضحك عند رؤية حيوان ، فإن كل ما هنالك أننا نلمح لديه بعض أوجه شبه مع الإنسان ، أو أننا نقرأ على قسمات وجهه ضرباً من التعبير البشرى ! و بالمثل حينما نضحك عند رؤيتنا لقبعة ، فإن ما يضحكنا فى هذه الحالة إنما هو ذلك القالب العجيب الذى استطاعت اليد البشرية أن تصوغ فيه مادة كالجوخ أو الخوص أو ما شابه ذلك . وهكذا يخلص برجسون إلى القول بأنه إذا كان فى وسع أى جماد أو حيوان أن ينافس الإنسان فى المقدرة على الإضحاك ، فما ذلك إلا لأن الإنسان نفسه هو الذى يطبع الجماد أو الحيوان بطابعه حينما يستخدمه لتحقيق أغراضه البشرية ؛ ومن ثم فإن الجماد أو الحيوان لا يصبح « مُضْحِكاً » إلا بقدر ما يشابه الإنسان أو يحاكيه . . . (١)

لهذه الأسباب جميعا يميل الباحثون إلى القول مع رابليه بأن

---

(١) *H. Bergson: «Le Rire», P. U. F., Paris, 67ᵉ éd, 1946, pp. 2—3.*

« الضحك هو من أخصّ خصائص الموجود البشرى »[١] . وقد فطن المفكّرون من قديم الزمن إلى العلاقة الوثيقة التى تربط الضحك بالمقدرة اللغوية والنشاط الذهنى والقدرات الحركية والميول الاجتماعية والنزعات العدوانية (مما هو أظهر لدى الإنسان منه لدى أى كائن آخر) فقالوا بأن الضحك ظاهرة بشرية محضة . وهذا ما أراد بودلير أن يعبّر عنه فى مقالته المشهورة حينما كتب يقول : « لو قُدّر للبشر أن يزولوا تماما من الخليقة ، لما بقى موضع للكوميديا فى هذا العالم ، لأن الحيوانات لا تعتقد فى نفسها أنها أسمى من النباتات ، كما أن النباتات لا تظنّ فى نفسها أنها أرقى من الجمادات » ![٢] ومعنى هذا أن الإنسان — فى نظر بودلير — هو الحيوان الوحيد الذى يضحك لأنه الحيوان الوحيد المغرور المتكبّر الذى يظن فى نفسه أنه سيّد الخليقة ! فهل يكون الطابع البشرى الذى تتميز به ظاهرة « الضحك » ، ذريعةً لإهمال الجانب الحيوانىّ الفسيولوجى الذى تنطوى عليه هذه الظاهرة السيكولوجية ؟ أو هل يكون من حقّنا أن نعدّ الضحك ظاهرة نفسية بحتة ، وكأنْ لا أهمية البتة لكل تلك الانقباضات العضلية التى تصاحب الأثر السارّ الذى تخلّفه فى نفوسنا

---

(١) *«Pour ce que rire est le propre de l'homme.»* *(Rabelais)*

(٢) *Cf. Ch. Baudelaire : «Curiosités esthétiques», De l'essence du rire, Calmann-Lévy, Paris, 1884, Tome II, pp. 367–370.*

النكتة أو الملحة أو الفكاهة ؟ — الظاهر أن هذا هو الاتجاه الذى سيطر على بحوث الكثير من الفلاسفة وعلماء النفس ، بدليل أننا لا نكاد نجد فيما كتبه برجسون أو فرويد عن الضحك أى اهتمام بإثارة المشكلة الفسيولوجية التى تنطوى عليها « سيكولوجية الضحك » ؛ وهكذا بقى الضحك فى نظر هؤلاء ظاهرة نفسية أو اجتماعية بحتة ، ولم يوضع الجانب الفسيولوجى فى هذه الظاهرة موضع البحث على الإطلاق .

٥ — ولكننا لو رجعنا إلى دراسات الفلاسفة الروحيّين أنفسهم لهذه المشكلة ، لوجدنا أن كُلاًّ من ديكارت وكَنْت قد فطن إلى أن الضحك ظاهرة سيكو — فسيولوجية ، وأنه لا بدّ من دراسة العلاقة بين النفس والجسم على نحو ما تتبدّى فى هذه الظاهرة . وحسبنا أن نرجع إلى كتاب ديكارت المسمّى باسم « رسالة فى الانفعالات » ، لكى نتحقق من أن أبا الفلسفة الحديثة كان يفسّر كل الحياة الوجدانية للإنسان (ومن بينها انفعالات السرور) بالرجوع إلى الآثار التى تتركها فى النفس تلك « الأرواح الحيوانية » المنتشرة فى الدم والأعصاب . وقد ذهب ديكارت إلى أن الضحك ظاهره طبيعية بحتة ، وأنه يحدث حينما لا تتدخل ملكة الحكم لكى تنظم العمليات الانفعالية (من تنفّس ودورة دموية) التى يُعدّ الضحك منها بمثابة التعبير الخارجى . وليس فى وسعنا هنا أن نعرض بالتفصيل لدراسة نظرية ديكارت فى الضحك ،

ولـكن حسبنا أن نقول إنه يرى أن الضحك لا يُحرّك إلاّ جانبا فقط من « النفس » ، وأما « البدن » فإنه مُستوعَب بأكمله فى عملية الضحك . وإذن فإن الضحك فى نظر ديكارت انفعال جسمىّ بحت ؛ وأن كان فى وسع العقل أن يتحكم فيه ، حينما يتحقق من أنه وليد خطأ فى الحكم ، مثله كمثَل كل ما يَرِدُ إلينا من قِبَل البدن . وهكذا نرى أن الضحك عند ديكارت لا يخرج عن كونه ضرباً من الاضطراب العضوىّ الذى يستولى علينا حينما يفاجئنا موضوع جديد لا عهد لنا به ، فنصاب بدهشة تضعف معها مقدرتنا العقلية على الحكم . ولئن كان ديكارت يعلى من شأن الفرح أو السرور باعتباره شيئا خيّرا فى ذاته ، إلاّ أنه ينتقص من قدر « الضحك » ، بدعوى أن المسرّات الدنيا وحدها هى التى تقترن فى العادة بالضحك ! وإن الضحك ليختلط فى نظر ديكارت بالقهقهة ، ومن ثمّ فإننا نراه يعدّه فعلاً يفلت من طائلة العقل ، ويقرر أنه ليس انفعالًا من انفعالات النفس ، وإنما هو انفعال من انفعالات البدن(١) . ولـكن إذا كان الضحك عند أبى الفلسفة الحديثة ظاهرة بدنية تدخل فى النطاق الفسيولوجى البحت ، فإن وسائل التحكّم فى الضحك هى مما يندرج تحت النطاق العقلىّ البحت . وتأبى ثنائية ديكارت إلاّ أن تؤكّد نفسها مرة أخرى فنرى فيلسوفنا يقرر أن

---

(١) *R. Descartes : « Les Passions de l'Ame, » Art. 124' 125.*

الإنسان أسير للضحك فى المجال الفسيولوجى ، بينما هو قد يستطيع أن يسيطر عليه و يتحكم فيه حينما ينتقل إلى المجال السيكولوجى[1] .

أما عند كَنْت فإن الضحك هو ضرب من الإعياء المفاجئ الذى يصاب به العقل ، فلا يلبث البدن أن يقوم هو بالاستجابة للمؤثرات الخارجية على طريقته الخاصة . و يستطرد كنت فيقول إن كل ما من شأنه أن يستثير لدينا القهقهات العالية الحادة ، لا بدّ من أن ينطوى على شىء من « الاستحالة » التى لا يجد فيها العقل أية لذة خاصة . وتبعاً لذلك فإنه ليس للضحك من فائدة سيكولوجية بالنسبة إلى الفكر ، و إنما تنحصر فائدته فى الآثار الفسيولوجية الطيِّبة التى يتركها فى الجسم . والواقع أن الضحك — فى نظر كَنْت — إنْ هو إلاّ انفعال يتولّد عن « التلاشى الفجائىّ لحالة انتظار أو توقّع كانت قد بلغت أعلى درجة من درجاتها »[2] ولا شك أن مثل هذا التحوّل الفجائى لا يحمل أى أثر سارّ أو أية نتيجة ملائمة بالنسبة إلى العقل ، ولكن من شأنه مع ذلك أن يحدث لدينا ضرباً من السرور البالغ بطريقة غير مباشرة : إذ أن الآثار الجسمية المحضة سرعان ما تُردّد أرجاعَها فى المجال العقلى

(١) Cf. F. Jeanson: «Signification humaine du rire», 1950 pp. 10, 22—23.

(٢) Kant: «Critique du Jugement», trad. franç., par Gibelin, Paris, 1951, Vrin, pp. 149—150.

فيحدث انفعال السرور ، دون أن يكون « التصوّر العقلى » مع ذلك هو العلة المباشرة للانفعال السارّ . وإذا كان كَنْت يؤكد أهمية الضحك بالنسبة إلى الصحة الجسمية ، فذلك لأنه يرى أن الضحك يُحْدِث ضرباً من « الاتزان » فيما بين القوى الحيوية الموجودة لدينا . ويعود كنت فيقرر أنه لما كان ثمة تقابل بين انسجام أفكارنا وانتظام سير وظائفنا العضوية ، فإن من شأن عملية الانقباض والبسط التى تصاحب انفعال الضحك أن تحدث لدينا حركة ملائمة للصحة الجسمية ؛ وهذه الحركة قد تنعكس آثارها على العقل فتتولّد عنها لذة عقلية (وإن كنا هنا بإزاء « فكرة » سارّة حقا ، ولكنها لا تعنى فى صميمها شيئا)[1] .

ولكننا إذا عاودنا النظر فى تفسير كل من ديكارت وكَنْت للضحك ، فإننا لا نجد عند أىٍّ منهما بياناً للسبب الذى من أجله يعبّر السرور عن نفسه بلغة الابتسام أو الضحك . ومن هنا فقد حاول هربرت اسبنسر (سنة ١٨٦٠) أن يقدم لنا تفسيراً معقولاً لهذه الظاهرة السيكو — فسيولوجية فى مقال كتبه بعنوان : « فسيولوجية الضحك » . وقد وضع اسبنسر فى هذا البحث نظرية فى « فائض الطاقة » ذهب فيها إلى أنّ للسرور طابعاً ديناميكياً يجعل منه طاقة زائدة لا بدّ من أن تلتمس لها

---

(١) Kant: «Critique du Jugement» trad. franç., par Gibelin, Paris, 1951, Vrin pp. 149—150.

بعض المنافذ . ويضيف اسبنسر أن من شأن هذه الحالة الوجدانية — فى كثير من الأحيان — أن تمرّ عبر أعضاء النطق ، فلا تلبث أن تستحيل إلى حركة . غير أن ثمة طائفة أخرى من العضلات تجيء فى ترتيبها بعد عضلات النطق مباشرة ، لأن من شأنها هى الأخرى أن تنشط أيضا بفعل الانفعالات والعواطف ، وتلك هى عضلات التنفُّس . ونظراً لما بين هاتين الطائفتين من العضلات ، من صلة عميقة ورابطة وثيقة ، فإن الطاقة الفائضة التى تتولد عن حالة السرور أو الانشراح لابدّ من أن تجد لها منفذاً خلال تلك الظاهرة الصوتية — التنفسية التى نسمّيها باسم « الضحك »[١] .

وقد اهتمّ دارون أيضاً بدراسة ذلك الميل العام الموجود لدى كل من الإنسان و بعض فصائل الحيوان ، نحو إصدار بعض الأصوات فى حالة الانفعال ، ولكنه اعترف بأننا نجهل حتى الآن لماذا تتخذ الأصوات التى يصدرها الإنسان فى لحظات سروره ذلك الطابع الترديدى الذى يتميز به الضحك . ويعود دارون فيقول إنه لما كانت حالة السرور هى على النقيض تماما من حالة الحزن ، فإن من الطبيعىّ أن تكون الأصوات التى يصدرها الإنسان فى لحظات سروره مختلفة

---

(١) *H. Spencer: «The Physiology of Laughter»; in «Essays, scientific, political and speculative.», Vol II., N-Y., D. Appleton, 1891, pp. 459—460.*

كل الاختلاف عن تلك التى يصدرها فى لحظات حزنه . ونحن نعرف كيف أن « الزفير » فى حالة البكاء يكون طويلًا ممتدًا ؛ بينما يكون « الشهيق » قصيراً متقطعا ، مما يجعلنا نتوقع أن يكون الزفير فى حالة الضحك، قصيراً متقطعاً ، والشهيق طويلا ممتدًا ؛ وهو ما نلاحظه بالفعل فى حالة الأصوات المنبعثة منّا فى لحظات السرور والغبطة — ولكن على الرغم من أن الملاحظة العادية تدلنا على أن أصوات الضحك « قصيرة ومتقطعة » ، فإن الدراسة العلمية الدقيقة قد أظهرتنا على أن الشهيق فى الضحك ليس طويلا ممتداً ، كما نتصور فى العادة ، بل إن عملية الشهيق والزفير هنا أقصر منها فى أية حالة صوتية أخرى ، اللهم إلا فى حالتى الغناء والكلام المتصل [1]. — أما أصوات « القهقهة » فإنها لاتنبعث إلا فى نهاية زفير حاد ، وفى هذه الحالة قد تزيد شدة هذا الزفير عن مثيلتها فى أى جهد إرادى مباشر ، كما لاحظ لويد فى دراسته لميكانزم التنفس فى الضحك[2] .

٦ — أما إذا نظرنا إلى البحوث الحديثة التى قام بها بعض علماء النفس المعاصرين لدراسة مشكلة الضحك ، فإننا نجد أن هذه البحوث

---

(١) *Ch. Darwin: «The Expression of the Emotions in Man & Animals», Watts, p. 102.*

(٢) *E. L. Llyod: «The respiratory mechanism in laughter»; «Jour. gen. Psych.», 1938, X, p. 179.*

لم تلق الـكثير من الأضواء على الجانب الفسيولوجي — البيولوجى من المشكلة . وقد حاول بعضهم أن يفسر الضحك على ضوء نظرية جيمز — لانج فى الانفعال ، فقال بأننا لا نضحك لأننا مسروررون ، بل نحن مسرورون لأننا نضحك ! ومعنى هذا أن المظاهر العضوية لانفعال السرور هى العلة الحقيقية للضحك . وفى هذا يقول لوسيان فابر : « إنه لمن الخطأ أن يقال إن الضحك انفعال من الانفعالات ، فإن الضحك فى الحقيقة هو عبارة عن ظاهرة عضوية تترجم عن نفسها سيكولوجيا بالانتقال المفاجىء من بعض الحالات الشعورية إلى حالات أخرى مغايرة[١] » . ولعل من هذا القبيل أيضاً ما ذهب إليه مكدوجال حينما قال : « إذا كنا نسر حينما نضحك ، فإننا نسر لأننا نضحك[٢] » ويستطرد مكدوجال فيؤكد أن للضحك من الآثار الفسيولوجية ما لا يقل أهمية عما له من آثار سيكولوجية ، وذلك لأن من شأنه أن يرفع من ضغط الدم فيرسل إلى الرأس والمخ سيالا دافقا من الدم ، كما يدلنا على ذلك احمرار وجه الشخص الطروب الذى يضحك من أعماق قلبه[٢] » . — ويذهب آخرون إلى أن الضحك قد يكون مجرد اختراع

---

(١) *Lucien Fabre: «Le Rire et les Rieurs.» Paris, 1926, pp.136—138.*

(٢) *W. Mc Dougal: « Outline of Psychology», London, Methuen, 1923, p. 166 - 170.*

ابتكرته الطبيعة لتعويض ما يسببه انتصاب قامة الإنسان من نقص فى درجة الاحتكاك والتدليك العضويين .

وقد يكون من الغرابة بمكان أن تظل « الدغدغة » — على الرغم من أهميتها الكبرى فى الموضوع الذى نحن بصدده — ظاهرة مهملة لم يوجه إليها من العناية حتى الآن ما هى أهل له . ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن للدغدغة طابعاً فسيولوجيا واضحا ، فإننا نعرف أن الحساسية الشديدة التى تتمتع بها بعض مناطق الجسم (لدى الإنسان و بعض أنواع الحيوان) هى التى تجعل فى استثارتها ما يولد الضحك . وقد ذكر دارون أن بعض أنواع القردة الشبيهة بالإنسان كثيراً ماتصدر أصواتاً ترددية شبيهة بأصوات الضحك حينما تُلمس بعض مواضع خاصة من جسمها . وربما كانت أيسر مناطق الجسم استثارة عند الدغدغة هى المنطقة الواقعة تحت الإبط ، و بطن القدم ، وما بين أصابع الرجلين الخ . ويذهب بعض الباحثين إلى أن الدغدغة تتوقف على « التغيرات غير المنتظرة » فى طبيعة عملية اللمس نفسها . ومعنى هذا أنه حينما تكون المنطقة التى نستثيرها عن طريق الدغدغة مجهولة أو غير منتظرة لدى الشخص (أو الطفل مثلا) ، فإن استجابته بالضحك لابد من أن تتضاعف ، مما يدل على أن عنصر « المفاجأة » أو « عدم التوقع » لا يكاد ينفصل عن عملية « الدغدغة » . هذا إلى أنه لابد من أن يقوم

بعملية الدغدغة شخص آخر ، فإن المرء لا يستطيع أن « يدغدغ » نفسه ، مما يدلنا على وجود عنصر سيكولوجى فى صميم هذا الرجع الفسيولوجى . والرأى السائد بين الباحثين أن الدغدغة تمثل ضرباً من العدوان فى صورة دعابة ، أعنى أنها صراع يتخذ شكل اللهو أو اللعب ، مما يدفع بالشخص الذى يقع تحت تأثيرها إلى أن يستجيب بالضحك ، على سبيل الدفاع عن نفسه ضد هذا الموقف العدوانى المزاحى . — وأما حينما يتخذ الهجوم صورة جدية ، فان الضحك سرعان ماينقطع ، لـكى يدع مكانه لتعبير انفعالى آخر يحل محله ألا وهو الخوف أو الغضب أو الحنق(١) .

ومهما يكن من شىء ، فإن الضحك المتولّد عن « الدغدغة » هو فى رأى عدد كبير من الباحثين ، الصورة الأولية من صور الضحك ، حتى أن الـكثيرين ليقولون إن شتى الصور الأخرى للضحك قد نشأت على سبيل التطور عن تلك الصورة الأولية التى نلمحها بسهولة لدى الأطفال و بعض فصائل الحيوان . ومن هنا فقد أطلق بعض علماء النفس على فن الـكوميديا نفسه اسم فن « الدغدغة العقلية »(٢) ، بدعوى أن الضحك الجمالى (أو الاستطيقى) إن هو إلاّ استجابة سيكولوجية

---

(١) *Ch. Darwin: «The Expression of the Emotions in Man & Animals.», p. 100.*

(٢) بالفرنسية *«Le Chatouillement psychique»*
وبالإنجليزية *« Tickling of the mind »*

لاستثارة مُوجَّهة إلى المخ والجهاز السمپاثاوى ، على غرار الاستثارة العضوية[١] . ولكن الذين يقولون بأن كل ضرب من ضروب الضحك هو فى صميمه نوع من « الدغدغة » إنما يعنون بذلك أنه كما أن الدغدغة تعتمد أول بالذات على عنصر « المفاجأة » أو « عدم التوقّع » (فى طبيعة المناطق الجسمية التى يقع عليها التهييج) ، فكذلك تعتمد الكوميديا والفكاهة بصفة عامة على عنصر « المفاجأة » فى مجرى الحوادث أو سياق الأفكار أو منطق الواقع . . . الخ . ويربط البعض بين « مواضع الدغدغة » فى الجسم ومناطق « التَّهْيِيجِ الجنسى » فيقول إن ثمة عنصراً جنسيًّا أكيداً فى ظاهرة الدغدغة ، كما يدلنا على ذلك انفجار الفتيات المراهقات بالضحك عند تعرضهن لخطر الوقوع تحت عجلات سيارة ، إذ تنفجر الواحدة منهن ضاحكة بمجرد نهوضها بعد هذا الحادث وكأنما هى قد استهدفت لضرب من العدوان الجنسى الرمزىّ (فى حين يستجيب الرجال والنساء الطاعنات فى السنّ لهذا الموقف بالخوف الشديد أو الغضب البالغ)[٢] . ولكن ربما كان فى استطاعتنا أن نقول إن العلاقة بين ظاهرة « الدغدغة » وظاهرة « التهييج الجنسى

(١) *Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Flammarion 1949, p. 53.*

(٢) *J. C. Flugel: «Humor and Laughter»; in « Handbook of Social Psychology», Vol. II. 1954, pp. 712 – 713. (edited by G. Lindzey).*

الموضعى » لم تلق بعد من الاهتمام العلمى ما تستحقه[1] .

٧ — فإذا ما ألقينا الآن نظرة عامة على فسيولوجية الضحك ، تبيّن لنا أن هذا الجانب من جوانب « مشكلة الضحك » لم يُبْحَثُ بحثا كافياً . فليس يكفى أن نقول مع اسبنسر — مثلاً — إن الضحك عبارة عن عملية تفريغ للطاقة العصبية الزائدة ، بدليل أننا لا نضحك حينما نكون متعبين أو منهوكى القوى ، وإنما يجب علينا أيضا أن نعرف السرّ فى كون هذا التفريغ لا يتمّ إلاّ عن طريق تلك الاختلاجات العضلية لعظام الوجه ، وما يقترن بها من تشنجات فى عضلات التنفُّس . . . الخ . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن الباحث الذى يريد أن يزيح النقاب عن سرّ الضحك ، لا بدّ من أن يبيّن لنا لماذا يعبر الفرح عن نفسه من خلال الابتسام والضحك ، بدلاً من أن يعبّر عن نفسه من خلال الإفراز الدمعى أو السعال أو الصياح أو الصفير أو التصفيق ؛ وكل هذه ظواهر

(١) يعترف هافلوك إليس *H. Ellis* بوجود علاقة وثيقة بين الدغدغة ومناطق التهييج الجنسى ، ولكنه يقرر أن القابلية للدغدغة لم تنشأ عن أصل جنسى ، بل هى قد ظهرت كنوع من الدفاع عن المناطق المعرضة للإيذاء من بين أجزاء الجسم . ثم يستطرد هافلوك إليس فيقول إن الدغدغة لا تولد الضحك إلا فى مناطق متطرفة من الجسم (كالأطراف وبطن القدم وراحة اليد وما تحت الإبط . . . الخ) ، وأما فى مناطق الحساسية الجنسية فإنها تولد استجابة شبقية جعلت بعض الباحثين يقولون إن الفعل الجنسى فى صميمه إن هو إلا فعل منعكس يتوقف على الحساسية الجلدية . *(Cf. Havelock Ellis: «Psychology of Sex.», London, 1944, Medical Books, Ch. II., pp. 37—38.)*

كان يمكن أن تقوم بهذا الدور التعبيريّ الصناعيّ الذي يقوم به الضحك . وقد وصف بعض علماء النفس ظاهرة الضحك من الناحية الفسيولوجية فكتب يقول : « إن الضحك عبارة عن اختلاجات عضلية متقطعة تستهلك الكمية الفائضة من التوتر الذي تجمع في العضلات . — وإذا استمر التنبيه وعجز الضحك عن استنفاد التوتر ، انتقلت آثار الدغدغة إلى العضلات الحشوية فتنبه بعض الغدد وخاصة الغدد الدمعية ، ويتحول الضحك إلى بكاء ، وحينئذ ترتخي العضلات ويسكن الجسم[١] . » والواقع أن الإنسان قد « يختنق من الضحك » (كما يقول التعبير الفرنسي) : *Étouffe de rire* ، مما يجعل الضاحك أعجز ما يكون عن القيام بأي جهد . ولكن العجيب في هذا الصدد أن التشنجات التي تحدث عند الضحك قد تولّد لدينا حالة من الارتياح أو التخفّف ، على الرغم من أن الضحك نفسه ليس بمثابة ارتخاء وإنما هو « مركّب من التّهْييج والتّسْكين[٢] » .

(Un complexe d'excitation et de sédation)

وهناك أنواع من الضحك لم تُبْحَثْ بعد بالقدر الكافي ، كالضحك المتولّد عن استنشاق أوكسيد النتريك أو غيره من المخدرات والعقاقير ؛

---

(١) « مبادئ علم النفس العام » للدكتور يوسف مراد ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٩ .

(٢) *cf. Raulin: «Le Rire et les Exhilarants» Paris, 1900, Ch. I & III.*

ولو أننا نعرف بصفة عامة أن من شأن هذه المخدرات — مثلها فى ذلك كمثل المشروبات الكحولية — أن تحدث لدى الشخص الذى يتعاطاها حالة انشراح عامة *Euphoria* ، نتيجة لما تؤدّى إليه من تعطيل لآليات الكفّ أو المنع *Inhibition* . — بيد أن بعضاً من الباحثين يؤكد أن « الفردوس المزعوم » الذى نتوهّم أن الخمور أو المخدّرات قد تحمل إليه المدمنين على تعاطيها ، ليس بالضرورة « فردوساً سعيداً » تسوده البهجةُ والمرح ؛ بل المشاهد أن بين المدمنين على المخدرات من يتمتع بمزاج تشاؤمىّ حزين ، ومن يتمتع بمزاج تفاؤلى ضاحك ، وفقاً لاستعدادات كل فرد وميوله ومواهبه وصفاته وظروفه . . . الخ[1] .

وأخيراً ينبغى أن نشير إلى ظاهرة « الإشعاع السيكو—فزيائى » التى تجعل من الضحك « ظاهرة مُعْدية » . ونحن نعرف كيف أن هذه « العدوى النفسية » تتمثل أيضاً فى التثاؤب والحماسة والفزع الشديد ، ولكنها تبدو بشكل أظهر وأقوى فى حالة الضحك . وآية ذلك أننا ما نكاد نندمج فى وسط جماعة ضاحكة ، حتى ننفجر ضاحكين ، حتى قبل أن نعرف السبب فى ضحك الضاحكين من حولنا ! ولعلّ هذا هو السرّ فى تلك الصبغة الاجتماعية التى نسبها كثير من الباحثين (وفى

---

(١) Ch. Lalo : « Esthétique du Rire », Paris, Flammarion, p. 62—3.

مقدمتهم برجسون) إلى الضحك باعتباره « ظاهرة جَمْعية » (كما سنرى فيما بعد) . ولم يستطع أحد من الباحثين حتى اليوم أن يفسّر لنا تلك القدرة الإشعاعية العظيمة التي يملكها الضحك ، ولكن من المؤكد أن ثمة فوارق فردية كثيرة في مدى تأثر الأفراد بهذه الظاهرة الجماعية المعدية .

الفصل الثالث

الضحك عند الطفل

٨ — إذا كان كثير من علماء النفس قد اهتموا بدراسة ظاهرة الضحك عند الأطفال ، فذلك لأن من شأن هذه الدراسة المقارنة أن تعيننا على فهم العلل المختلفة للضحك والمظاهر المتنوعة للفكاهة . وقد لاحظ بعض الباحثين أن الدراسة التكوينية للضحك هى التى توحى إلينا منذ البداية بأنه لا يمكن أن يكون ثمة تفسير واحد أو علة واحدة لهذه الظاهرة السيكو — فسيولوجية المعقدة . وإن وجهة النظر البيولوجية نفسها لتضطرنا إلى اطراح كل نظرية واحدية فى الضحك ، إذ مادامت الطبيعة قد نظمت حياتنا الجسمية بحيث يمكن أن يقوم العضو الواحد بأكثر من وظيفة ؛ فلماذا نصرّ على ألا يكون للضحك سوى تفسير واحد ؟ ألا يستعمل الإنسان يده لتناول الطعام ، وتسلّق الأشجار ، والدفاع عن نفسه ، ولأغراض أخرى عديدة ؟ بل اننا حتى حينما نقول إن للضحك وظيفة نافعة ، فإن من واجبنا أن نتذكر أنه لا ينطوى دائما أبدا على فائدة بيولوجية محققة . هذا إلى أن القدرة على الضحك تختلف من فرد إلى آخر ، فإن بعض الأفراد ليضحكون بكثرة ، بينما قلما يضحك غيرهم ، وهـذه الحقيقة تصدق أيضاً حتى بالنسبة إلى صغار

الأطفال من سن ٣ إلى ١٢ شهراً ، ممن يتمتعون بصحة جيدة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الضحك كثيراً ما يقترن بالبكاء ، كما أن دموع الفرح قد تختلط بدموع الحزن ؛ وقد يوجد الطفل بإزاء موقف لا يعرف فيه هل يضحك أم يبكى ! و إذن فإن الضحك قد يخرج عن معناه الأصلى ، كما أنه قد يبدو أحياناً عديم الدلالة ، إن لم نقل غير ذى موضوع (١) .

. . . ولكن بعض علماء النفس يأبون إلاّ أن يصنّفوا الضحك تصنيفاً شبه رياضى ، فنرى إحدى الباحثات تقرر أن ضحك الفرح يبدأ عند الطفل فى الشهر الثانى من عمره ، ثم يعقبه ضحك التعاطف أو المشاركة الوجدانية فى الشهر الثالث ، لكى لا يلبث ضحك اللعب والمفاجأة والانتصار أن يظهر عنده فى الشهر الخامس . وأما ضحك « الاستحالة الكوميدية » (٢) الذى يفترض قدراً أعظم من الكسب العقلى ، فإنه لا يظهر عند الطفل إلاّ حوالى الشهر التاسع من عمره . وأخيراً يصبح الطفل ابتداء من الشهر العاشر من عمره قادراً على أن يضحك لنفس المواقف التى يضحك لها البالغون . — و يضيف إلى ذلك فابر أن فى استطاعة أى والد يلاحظ نموّ طفله النفسى ، أن يلمح لديه

---

(١) C. W. Valentine : «The Psychology of Early Childhood», Methuen, London, 1942, Ch. XII (Genetic Psychology of Laughter), p. 247.

(٢) «le rire d'absurdité comique» (فى دراسة الآنسة شن Shinn للضحك عند الطفل) .

ظهور نوع جديد من الضحك كلما نضجت لديه إحدى الوظائف النفسية ، وهنا يكون أول ما يثير الضحك لدى الطفل هو الشيء الغريب أو غير المألوف ، كأن يضحك الطفل عند رؤيته لصقر ذى رأسين ؛ ثم يأتى بعد ذلك الضحك الناشئ عن الموضوعات المفاجئة أو الظواهر غير المتوقعة ، وهذا النوع من الضحك لا يظهر لدى الطفل إلاّ بعد أن يكون قد اكتسب شيئا من الطمأنينة النفسية التى تسمح له بأن يتمالك روعه فى الحال . أما الضحك الناشئ عن التقليد أو الخداع أو الإيهام فإنه يقترن فى العادة بمرحلة الخبرات العقلية الأولى للطفل . فإذا ما بدأ الطفل يشعر بشخصيّته ، ظهرت لديه فى الحال ضحكات الانتصار والسخرية والتحدّى ، وجميعها مظاهر لذلك « الضحك القاسى » الذى تستثيره لدينا رؤيتنا لمظاهر ضعف الآخرين ؛ وهلمّ جرّا[١] . . .

هذا وقد حاول بعض الباحثين — مثل دارون — أن يربط بين الضحك عند الطفل وعند الحيوان ، فذهب إلى أن الملابسات التى يقترن بها الضحك عند صغار الأطفال تشبه إلى حدّ كبير نظائرها عند القردة العليا . وربما كانت أولى المؤثرات أو المناسبات التى يظهر بسببها الضحك لدى الطفل (كما هو الحال أيضاً لدى بعض الحيوان) هى « الدغدغة » .

---

(١) *Cf. L. Fabre: «Le Rire et les Rieurs,» Paris, 1929 (cité par Lalo, Ibid., p. 52.)*

ويروى دارون فى هذا الصدد أنه لمس بقطعة صغيرة من الورق بطن القدم لدى أحد أطفاله الصغار ، وكان عمره عندئذ سبعة أيام فقط ، فاستجاب الطفل الصغير استجابة منعكسة لهذه الدغدغة بأن سحب قدمه بسرعة ولوى أصابع رجليه على نحو ما يفعل كبار الأطفال تماماً . ويضيف دارون إلى ذلك أن الضحكات الأولى للطفل تتولد عند الرضاعة ورؤية شخص محبوب أو بعض الألوان الناصعة ... الخ . ولكنّ باحثين آخرين يقررون أن الشيء الغريب هو أول موضوع يستجيب له الطفل بالضحك ، فى حين أن دعابات الآخرين هى بمثابة موضوع متأخر لا يستثير لدى الطفل استجابة الضحك إلاّ فى سنّ متأخرة نسبيا . وقد سبق لنا أن لاحظنا عند الحديث عن ابتسام الطفل أن هذه الظاهرة مرتبطة منذ البداية بالمواقف الاجتماعية ، فإن ابتسام المحيطين بالطفل يولد لديه الابتسام ، كما أن ضحكهم يبعثه على الضحك . ولا نرانا فى حاجة إلى أن نعيد ما سبق لنا ذكره من أن الابتسام والضحك ظاهرتان « معديتان » لدى صغار الأطفال (كما هو الحال أيضاً لدى الكبار) ، فإننا نعرف كيف أن الطفل يستجيب لانفعالات الآخرين بأن يولّد فى نفسه أمثال هذه الانفعالات وفقا لما أطلق عليه مكدوجال اسم « التعاطف السلبى البدائى » . — ومع ذلك فقد لاحظ بعض الباحثين أن صغار الأطفال قد يبتسمون أو يضحكون أحياناً لرؤيتهم بعض المناظر البشرية أو غير

البشرية التى لا أثر فيها للابتسام أو الضحك ، كأن يضحك الطفل عند رؤيته لوجهه فى المرآة ، أو حينما يحدّق فى وجه شخص غير مبتسم أو غير ضاحك . . . الخ . ولكن المشاهد بصفة عامة أن ابتسام الطفل وضحكه يرتبطان منذ البداية بالصور البصرية والمشاهد المرئية أكثر مما يرتبطان بالنشاط اللغوى والألفاظ المنطوقة(١) .

٩ — أما إذا أردنا أن نقوم بدراسة الضحك عند الطفل دراسة علمية تتبُّعية ، فسيكون علينا أن نساير فالنتين فى بحثه المفصّل الذى قدّم لنا فيه دراسة تكوينية *Genetic* ممتازة لظاهرة الضحك عند الأطفال . وهنا نجد هذا الباحث يحصر الملابسات المتعددة التى تحيط بظاهرة الضحك لدى الطفل ، فيجمع حوالى خمس عشرة حالة صنّفها بحسب تاريخ ظهورها ، ونصّ على أن لها نظائرها أيضاً عند البالغين . والحالة الأولى من هذه الحالات هى التى يكون فيها الضحك بمثابة تعبير عن اللذة أو المتعة أو البهجة أو السرور . فالطفل يضحك بادىء ذى بدء حينما يشعر بالراحة والدفء والشبع ، وإن كانت الضحكة عنده ذات دلالة اجتماعية باعتبارها أمارة يعبر بها عن رضاه حينما يكون بالقرب من والدته أو مربّيته . وقد رأينا من قبل كيف أن الابتسامة الأولى للطفل تتولّد عن منبهات سارّة مماثلة ، ونضيف هنا أن الضحكة الأولى للطفل كثيراً

(١) *cf. Flugel: «Humor & Laughter», in «Handbook of Social Psychology», Vol. II., p. 711—712.*

ما تكون بمثابة امتداد لابتسامته ، مما يدلنا على الصلة الوثيقة بين الابتسام والضحك . وإذن فليس ثمة موضع للفصل بين الابتسام والضحك — على نحو ما فعل مكدوجال — خصوصاً وأن الملاحظة قد دلتنا على أن النكتة الواحدة التي تولّد لدى البعض ضرباً من القهقهة ، لا تولّد لدى البعض الآخر سوى ابتسامة ضعيفة باهتة . وعلى كل حال فإن فالنتين يقرر أن الملابسات التي تقترن بها الابتسامة لدى الطفل هي بعينها التي يقترن بها الضحك لأن الطفل يضحك لكل ما يبعث في نفسه اللذة أو المتعة أو البهجة (كأن يُقدَّم إليه طعام محبوب ، أو كأن يلاطف ويُدلَّل ، أو كأن يكون موضع عناية واهتمام . . .)[١] . . .

وأما النوع الثاني من الضحك فهو الضحك استجابةً لضحك شخص آخر أو ابتسامه . وهنا يقول فالنتين إنه لاحظ لدى طفله البالغ من العمر عشرة أسابيع أنه كان يضحك لمجرد ضحك أمّه ، بينما يذكر باحثون آخرون أنهم شاهدوا أطفالاً يضحكون لضحك أمهاتهم في سن شهرين تقريباً . وهذه الظاهرة تدلّنا بوضوح على أن للضحك منذ البداية قوة إيحائية ، فضلاً عن ارتباطه الوثيق بشتى العلاقات الاجتماعية . ولكن ثمة فوارق فردية كثيرة بين الأطفال في مدى استجابة كل منهم لضحك الآخرين ، وإن كان لابد من التفرقة هنا بين الأمّ

---

(١) C. W. Valentine; «The Psychology of Early Childhood.», 1942, p. 250.

وغيرها من الأشخاص الذين يحيطون بالطفل ، لأن للأم قدرة عجيبة على انتزاع استجابة الضحك من وليدها بابتسامتها الخاصة ، فى حين أن الغرباء قد لاينجحون فى الوصول إلى مثل هذه النتيجة . وإذا كان ثمة أطفال يميلون إلى الضحك بسرعة استجابة لابتسامات أو ضحكات الغير ، حتى حينما يكونون فى حالة بكاء ، فإن ثمة أطفالا آخرين لايستجيبون لضحك الآخرين (حتى فى سن ١٨ شهرًا) بأكثر من ابتسامة بسيطة . وكثيرًا ما يكون فى وسع الآباء أن يحملوا الطفل على الكف عن البكاء حينما يوحون إليه بالضحك عن طريق الابتسام أو الضحك بصوت مرتفع على مرأى منه . ويذهب البعض إلى أن ضحك المرء استجابة لضحك الآخرين هو الذى يشجعه فيما بعد على أن يضحك بمفرده (حينما يسخر من نفسه) . ولكن الظاهر أن هذا العامل ليس من الضرورة بما يتوهم البعض ، بدليل أننا قد نرتكب خطأ فنضحك من أنفسنا بمفردنا . وأما حينما يضحك الطفل عند رؤية وجهه العبوس فى المرآة ، فربما يكون عنصر المفاجأة هو السبب فى هذا الضحك ، أو قد يكون السر فى ذلك هو هذا الميل الفطرى الموجود لدينا إلى أن نبتسم عندما نلتقى بوجه بشرى ، حتى حينما لايكون هذا الوجه نفسه مبتسما . وقد يهش الطفل فى وجه أمه العابسة أو وجه أبيه غير الضاحك نتيجة لوجود ضرب من « التداعى »

أو « الارتباط » *Association* بين هذا الوجه و بين حالات سارة أو ملائمة مثل اللعب أو التغذية أو ما إلى ذلك . وعلى كل حال ، فقد يكون السرّ فى هذا النوع من الضحك هو ما للوجه البشرى من سحر أو جاذبية بالنسبة إلى الطفل ، حتى فى الأسابيع الأولى من عمره . وآية ذلك أنه ما يكاد الطفل يقوى على التحديق ببصره ، حتى نراه يوجّه إلى الأشخاص من الاهتمام أكثر مما يوجّه إلى الأشياء ، فيصوّب بصره نحو الوجوه الجديدة والحركات البشرية التى تتوالى فى مجاله البصرى .. الخ .

وهناك منبّه آخر من شأنه أيضاً أن يستثير الضحك لدى الطفل ، ألا وهو رؤية موضوع ناصع أو سارّ أو مُبْهِج . فالطفل البالغ من العمر ثلاثة أشهر قد يضحك عند رؤيته للعبة فضية اللون ، خصوصاً إذا كان لها رنين مسموع ؛ وكثير من الأطفال المتقدمين فى السنّ قد يعربون عن ارتياحهم لمرأى بعض الأشياء السارة أو الموضوعات المبهجة بأن ينفجروا ضاحكين فى غبطة وانشراح .

أما السبب الرابع الذى يولّد الضحك لدى الطفل فهو الدغدغة أو اللمس الموضعى لبعض مناطق خاصة من الجسم (كجانبى الجذع أو بطن القدم) . وقد قام بعض الباحثين عدة اختبارات على مجموعة من الأطفال لمعرفة مدى صحة الرأى القائل بأن الدغدغة استجابة

فسيولوجية بحتة ، فوجدوا أن الطفل يظل يستجيب بالضحك لعملية الدغدغة طالما كان الشخص الذى يحدث هذه الدغدغة يبتسم أو يضحك هو نفسه . ولكنه لا يلبث أن يكف عن الضحك بمجرد ما يتخذ المجرِّب وضعاً جدياً لا أثر فيه للضحك أو الابتسام . ومعنى هذا أن ابتسامة الشخص الذى يقوم بعملية الدغدغة هى عامل مهمّ فى تلك الاختلاجات العضلية التى يقع تحت تأثيرها الطفل عندما نعمد إلى تنبيه بعض مناطق معينة من جسمه . ولكن الدغدغة عامل قوىّ من شأنه أن يستثير لدى الطفل أرجاعاً أعنف وأقوى مما يستثيره فى العادة الوجهُ الباسم أو الضاحك .

١٠ — ويمضى فالنتين فى تعداد أسباب الضحك لدى الطفل ، فيورد سبباً خامساً هو الصدمة الخفيفة أو المفاجأة . وهنا لا بدّ من أن تكون الصدمة هيّنة بحيث لا تستثير الخوف أو الرعب : فهذا طفل يضحك — مثلاً — حينما يمزق والده بين أصابعه أوراق صحيفة من الصحف ، فى حين أن هذا الصوت نفسه كان قد ولّد لديه منذ عدة أيام استعداداً للخوف أو إنذاراً بالخطر . ولا شك أن الطفل حين يضحك اليوم لهذا الصوت نفسه ، فإنه لا زال يجد فى الموقف شيئاً من المفاجأة ، ولكن عنصر الخوف قد تلاشى تماماً . — وهناك علّة سادسة للضحك تتصل بهذه العلة ، ألا وهى التكرار . وهنا نجد أن المؤثر الواحد الذى

يولّد لدى الطفل فى المرة الأولى الشعور بالدهشة ، سرعان ما يستثير لديه الابتسام ، لـكى لا يلبث بالتـكرار أن ينتزع منه استجابة الضحك . ولنضرب لذلك مثلا فنقول إن الشخص الذى يفاجئ طفلا بحركة معينة من الشفتين قد لا يستثير لديه سوى الشعور بالدهشة أو حب الاستطلاع ؛ ولـكنْ إذا تـكررت هذه الحركة من الشخص الذى يداعب الطفل على فترات متقطعة (مع العلم بأن الابتسامة قد تجىء فتـكسبها طابع الملاطفة أو اللهو المشترك) فإن الطفل سرعان ما يستجيب لهذه الحركة بالضحك . وليس من السهل أن نعلّل الضحك الناشئ عن التـكرار ، فإن العجيب هنا أن نفس المؤثر الذى يولّد بادئ ذى بدء الشعور بالخوف أو الدهشة أو الصدمة سرعان ما يكتسب طابعاً ساراً بالتـكرار . ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن الضحك هنا ناشئ عن الشعور بالتحرّر من آثار الصدمة الأولى (التى كانت غير ملائمة) ، نتيجة لأن تـكرار التنبيه قد أفقده صبغته الألمية أو طابعه المـكدّر . ولـكن برجسون يفسر الضحك الناشئ عن التـكرار بقوله إن كل ما ينطوى على عنصر آلىّ رتيب من شأنه بالضرورة أن يولّد لدينا انفعال الضحك ؛ والتـكرار فى صميمه عملية آلية تجعل من الشخص جهازاً ميكانيكيًا تنبعث منه باستمرار نفس الحركات ونفس الأصوات ، فليس بدْعا أنْ نراه يستثير لدينا الضحك . — ولـكننا نجد من الصعوبة بمكان أن ننسب إلى الطفل مثل هذه القدرة على تمييز « الآلية »

Mécanisme ، على الرغم من اعترافنا بأن نظرية برجسون فى تفسير الضحك الناشئ عن التكرار قد تصدق على كثير من ضروب الكوميديا التى نشاهدها فى المسرح والسينما[١] .

أما السبب السابع من أسباب الضحك فهو المفارقة أو التنافر ، كأن يحدث شيء جديد كل الجدة فى إطار عادىّ مألوف . ولعلّ من هذا القبيل مثلا ما يحدث حينما يرى الطفل والده مرتديا قبعة ملوّنة من الورق ، أو حينما تتلفظ أمّه على مسامعه بأصوات غريبة مضحكة ... الخ . وكثيرا ما يكون تقليد الأبوين لحركات طفلهما باعثاً له على الضحك ، خصوصاً إذا اقترن هذا التقليد بعنصر التكرار . والواقع أن « التقليد » أو المحاكاة هنا لا تخرج عن كونها نوعاً من « اللعب » الذى هو فى حدّ ذاته جو ملائم للضحك عند الأطفال . وقد لوحظ بالفعل أن الطفل يبدأ منذ سن مبكرة (من ٤ إلى ٦ أشهر) فى الاستجابة بالضحك لمواقف اللعب ، خصوصاً إذا اقترنت تلك المواقف بضحك الأم نفسها . فإذا ما تجاوز الطفل الشهر السادس من عمره بدأت بعض التصرفات التى يقوم بها البالغون تبدو له فى حد ذاتها مضحكة . وأما حينما يتقدم الطفل فى نموّه النفسى ، فإن أنواع اللعب المختلفة سرعان ما تولّد لديه الضحكات العالية ، ولو أن الضحك هنا قلما يتولد عن اللعب نفسه ، بل هو كثيراً

---

(١) *cf H. Bergson: «Le Rire», Paris, P. U. F., 1946, 67e éd., p. 55.*

ما يقترن بعناصر الدهشة والخوف البسيط والفرح بالانتصار عند تحقيق أى كسب جديد . . . الخ[1] .

وثمة نوع آخر من الضحك يشير إليه بعض الباحثين — و إن كان البعض الآخر منهم يشك فى إمكان قيامه بذاته واستقلاله عن غيره — ألا وهو الضحك الناشئ عن مجرد التعرّف على شيء ، كأن يتعرّف الطفل على اسمه ، أو كأن يتعرّف على صورته فى المرآة . و يميل بعض المفسّرين إلى القول بأن اللفظ المكرّر الذى يردّده على مسامع الطفل صوت محبّب إلى نفسه من شأنه بالضرورة أن يصبح صوتاً سارًّا يرتاح إليه ، كما أن الوجه الباسم الذى يهش فى وجهه من شأنه أن يعنى بالنسبة إليه الراحة والهناءة . ويقول فرويد إن عملية التعرّف فى حدّ ذاتها هى بصفة عامة عملية سارّة ، لأن الإنسان يرتاح دائماً إلى أن يلتقى مرة أخرى بنفس الشيء الذى سبقت له معرفته . ولكن لا بدّ من أن يسبق عملية التعرّف شيء من البحث الذى يقترن بشعور الحيرة ، أعنى أنه لا بدّ من أن يشعر الفرد بوجود مشكلة يسعى إلى حلّها .

١١ — وهناك مواقف أخرى من شأنها أيضاً أن تولّد لدى الطفل انفعال الضحك ، مثل المواقف العديدة التى يقوم فيها بأداء نوع جديد من النشاط . فالطفل الذى يقف لأول مرة منتصباً على قدميه ، رافعاً

---

(١) C. W. Valentine: «The Psychology of Early Childhood», 1942. p. 256.

يديه إلى فوق ، قد ينفجر ضاحكاً بمجرد ما يفقد توازنه بعد هذه المحاولة الأولى ! وقد يحاول الطفل أن يدور على عقبيه ، فى حركة شبه دائرية ، فما يكاد يشعر بالدوار ويسقط على الأرض حتى ينفجر ضاحكا ! ولا يعدّ هذا النوع من الضحك مجرّد تعبير عن انشراح الطفل ومرحه ، وإنما هو يرجع فى جانب منه إلى إشباع الطفل لرغبته فى تأكيد ذاته وتأييد نوازع القوة فى نفسه . وربما كان هذا النوع من الضحك شبيها بما أطلق عليه هُوبز اسم « العزّة الفجائية » التى تستولى علينا حينما نشعر بتفوقنا على الآخرين أو قدرتنا على تحقيق ما لم يكن لنا عليه يدان . فالطفل هنا إنما يضحك لأنه يؤدّى لأول مرة من الأفعال ما لم يكن له به عهد ، وكأنما هو يؤكّد بذلك تفوقه على نفسه .

وثمة نوع آخر من الضحك نلمحه لدى الطفل فى العام الأول أو الثانى من عمره ، ألا وهو الضحك المقترن بعملية المعاكسة أو الإغاظة *Teasing* — . وربما يكون الأصل فى هذا النوع من الضحك هو ميل الطفل إلى اللعب ، مع ولعه فى الوقت نفسه بإيقاع الآخرين فى مواقف غير سارّة . فالطفل الذى ينجح فى إغاظة والديه قد ينفجر ضاحكاً ، لأنه يدرك المفارقة التى ينطوى عليها موقف وَالدَيْن بالغَيْن قد غُلبا على أمرهما ، ثم لأنه فى الوقت نفسه يجد لذة كبرى فى أن يؤكد قوته بإزاء الآخرين ! وهذه النزعة سوف تتأكد من بعد حينما يبلغ الطفل الرابعة أو الخامسة من عمره ، إذ أنه سوف يجد لذة مضاعفة فى أن يشترك مع

أبويه فى أية لعبة قد تحقق له ضرباً من الانتصار على والديه أو على أحدهما . وقد يتضاعف الضحك الناشئ عن مثل هذه المواقف فى سن متأخرة حينما يقترن بعملية تحرير لبعض الميول المكبوتة فى علاقة الطفل بأبويه .

وبعد ظهور كل تلك الضروب المختلفة من الضحك ، يكون فى وسع الطفل أن يضحك لمرأى الهزيمة البسيطة أو الفشل الهيّن الذى يُمْنَى به الآخرون . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يحدث حينما تزل قدم الأم فتسقط على الأرض ، أو حينما يتظاهر أحد الوالدين بالبكاء ، أو حينما يعاقب طفل بالضرب على مرأى من طفل آخر . . . الخ . ولكن يجب أن نلاحظ أن هذا النوع من الضحك يفترض قسطا غير قليل من النضج ، فضلاً عن أنه يتوقف على نوع الضائقة التى تحلّ بالآخرين . وقد ذكر أحد الباحثين فى هذا الصدد أن مرأى أطفال يُعاقَبون بالضرب قد أثار ضحكا عاما بين أطفال فى سن السادسة من عمرهم ، بينما هو لم يثر مثل هذا الشعور لدى أطفال آخرين أصغر منهم سنا .

وثمة نوع آخر من الضحك نراه يتردّد بكثرة لدى الأطفال فى سن الثانية من عمرهم ، ألا وهو الضحك أثناء الاشتراك فى لعبة جماعيّة . وهنا تظهر الصبغة الاجتماعية لظاهرة الضحك ، فإن الطفل ليجد الكثير من الاستثارة فى القيام بألعاب مشتركة تنطوى على ضرب من المخاطرة

والمفاجأة . . . الخ . وأبسط نوع من أنواع هذا اللعب المشترك تلك اللعبة التي يقوم فيها الأب بدور « الأسد » فيختبىء وراء حائط أو قطعة أثاث بالحجرة ، لكي لا يلبث أن يفاجىء طفله في حركة سريعة خاطفة ، فينفجر الطفل ضاحكاً لشعوره بالمفاجأة والخوف البسيط والعجز عن الهرب ! وقد يصدر الطفل بادىء ذي بدء مجموعة من الأصوات الحادة التي تدلّ على الخوف أو الجزع ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن ينفجر ضاحكاً ، طالباً إلى والده معاودة القيام بدور الأسد . وربما كان في وسعنا أن نقول إن هذا النوع من الضحك ينطوي على عناصر سبق لنا الوقوف عليها في بعض الأنواع السابقة ، مما يجعل بعض الباحثين يأبى أن يُفرده على حدة في تصنيفه لأنواع الضحك عند الطفل ، خصوصا وأن الضحك المشاهد أثناء ألعاب الطفل الجماعية كثيراً ما يقترن بابتهاج الطفل لتغلُّبه على غريمه أو انتصاره على أحد الأشخاص البالغين (وهو ما سبق لنا التحدث عنه) .

وهناك نوع آخر من الضحك نلمحه لدى الأطفال في سنّ متأخرة نسبيًّا ، ألا وهو الضحك المُغرِض الذي يُقصَد به إضحاك شخص آخر ، خصوصاً بعد ارتكاب الطفل لأمر منكر قد يعاقب عليه ! فالطفل الذي يضحك بعد ارتكابه لعمل محظور إنما يريد بضحكه أن يبعث والديه على الضحك ، حتى يضعهما في موقف وديّ ، فيضمن بذلك

التخلّص من العقاب ! وإذن فنحن هنا — لأول مرة — بإزاء ضرب من الضحك الصناعيّ الذى يُتّخذ واسطة اجتماعية للتقرب إلى شخص أو التودّد إليه . ولعلّنا نلمح هنا بذور تلك الضحكات الاجتماعية التى اعتدنا بها أن نواجه الأشخاص الذين لا نرتاح إليهم ، وكأنما نحن نريد من وراء ضحكنا أن نخلق فى أنفسنا (وفى أنفسهم) حالة ارتياح مصطنعة لا وجود لها فى الأصل !

وأخيراً يمكننا أن نشير إلى نوعين آخرين من الضحك يفترضان أيضاً قدراً غير قليل من النضج النفسى ، ألا وهما الضحك الناشئ عن التنافر فى الألفاظ أو المفارقة فى الأفكار ، كما يظهر على الخصوص فى نكات « التورية » *(Puns)* ، ثم الضحك لمجرد حدوث بعض المصادفات العارضة . والنوع الأول من هذين النوعين يتوقف على نموّ الوظائف الفكرية واللغوية لدى الطفل ، خصوصاً بعد انتقاله إلى المدرسة واختلاطه بغيره من الأطفال . ولعلّ من هذا القبيل ما يروى عن تلميذ فى السابعة من عمره ، من أنه كان يقول لإخوانه فى المدرسة : « كل من ينظر إلىّ ألعنه ، ألا لعنة الله على الناظر » ! وأما النوع الثانى من الضحك ، فهو يظهر على الخصوص حينما يلتقى الطفل بمصادفات غير منتظرة ، كأن يرى شخصين ينطقان بنفس الكلمات أو يقومان بنفس التصرفات ، أو كأن يلتقى بتلميذين يشبه كل

منهما الآخر تماماً ، أو كأن يرى صورتين متشابهتين تماماً لوجه حيوانى ووجه آخر بشرى . . . الخ[1] .

* * *

تلك هى الأنواع المختلفة للضحك — على نحو ما استطاع أن يحصرها فالنتين فى دراسته التكوينية للضحك عند الأطفال — . وهى شاهدة باستحالة تفسير الضحك فى شتى مظاهره بنظرية واحدة ، كائنة ما كانت . ولسنا هنا بمعرض تعليل الضحك ، وإنما حسبنا أن نقرر أن لكل هذه الأنواع المختلفة من الضحك نظائرها عند البالغين ، فضلا عن أنها تفترض ضرباً من الحياة الجمعية التى تنمو وتترقى فى كنفها . وسنحاول فيما يلى أن ندرس الصبغة الاجتماعية لظاهرة الضحك حتى نتحقق من مدى صحة الرأى القائل « بأننا ما كنا لنضحك ، لو أننا كنا نعيش فُرادىٰ » .

---

(١) C. W. Valentine: «The Psychology of Early Childhood.», 1942, p. 260.

الفصل الرابع

الدلالة الاجتماعية للضحك

١٢ — هل يضحك الإنسان بمفرده ؟ أو هل يمكن اعتبار الضحك ظاهرة فردية بحتة ؟ — إن الذين يرون فى الضحك عملية فسيولوجية أرادت من ورائها الطبيعة أن تجد للجسم منصرفا للطاقة الزائدة ، وأن تقدم للرئتين وسيلة نافعة تنشّط بها عضلات التنفُّس ، يقولون لنا إن الضحك ظاهرة جسمية فردية مثلها كمثل أية عملية فسيولوجية أخرى . ولكنَّ هؤلاء ينسون أن عمليـة الدغدغة نفسها — وهى أظهر صورة جسمية للضحك — تفترض مجتمعاً صغيراً يتكوّن من شخصين ، وأن الشخص الفاعل فى هـذه العملية — وهو الذى يُحْدِث الدغدغة — يَضْحَك هو نفسه لأنه يُضْحِك الشخص الآخر ! حقّاً إن بعض الأشخاص قد يضحكون بمفردهم ، ولكن مثل هؤلاء الأشخاص لا بد من أن يبدوا لنا بمظهر الشواذّ ، مَثَلهم كمثل الأشخاص الذين يكلّمون أنفسهم ! وحتى حينما يضحك الشخص بمفرده ، فإنه ليس معنى هذا أنه بمنأى تماما عن شتى العوامل الاجتماعية التى يمكن أن تولّد لديه الضحك ، بل إن الإنسان ليحمل آثار الآخرين حتى فى عزلته . وإذن فإن من العبث أن نتساءل عمّا إذا كان الضحك ظاهرة فردية أم جماعية ،

لأن « وجود الإنسان لذاته » *L'être pour soi* لا ينفصل منذ البداية عن « وجوده للآخرين » *L'être pour autrui* [١]، وبالتالى فإن الضحك يفترض دائماً وجود « الآخر » الذى أسخر منه ، أو أهزأ به ، أو أتعاطف معه ، أو أشترك معه فى السخرية من شخص ثالث ، أو أتبادل معه النكتة ، أو أقلده فى ضحكه دون أن أعرف السبب الذى من أجله يضحك . . . الخ .

ويذهب برجسون فى هذا الصدد إلى أن الإنسان ما كان يمكن أن يقدّر الكوميديا أو يتذوّق النكتة لو أنه كان يشعر بأنه وحيد يحيا فى عزلة عن الناس : وذلك لأن الضحك بطبيعته فى حاجة إلى أن يُردّد أصداءه وينشر إشعاعاته ، فهو فى صميمه ظاهرة اجتماعية . ولكنه ظاهرة اجتماعية لا تحيا إلا فى دائرة مغلقة ، لأن ضحكنا هو باستمرار ضحك جماعة معينة من الناس ، أو ضحك طائفة محدودة من الأفراد . وقد يجلس المرء إلى جوار جماعة من المسافرين فى قطار ، فيستمع إلى ضحكاتهم العالية وقهقهاتهم الرنانة ، ولكنه مع ذلك لا يشاطرهم ضحكهم ، حتى ولو كانت النكات التى يتبادلونها طريفة تنتزع الإعجاب وتستدرّ الضحك . ولو كان المرء واحداً من جماعتهم ، لانفجر ضاحكا ، ولما تردّد فى أن

---

(١) *Francis Jeanson: «Signification humaine du Rire», P. U. F., 1950, pp. 90, 145.*

يشاطرهم قهقهاتهم المتواصلة . . . ولـكن المرء ينظر فيجد نفسه وحيداً ليس من جماعتهم ، ومن ثَمّ فإنه لا يسمح لنفسه بأن يضحك معهم ، أو هو قد لا يجد فى نفسه أية رغبة فى أن يشاطرهم ضحكهم . وقد سئل رجل كان يستمع إلى عظة مؤثرة فى إحدى الـكنائس — ولم يكن من أهل الحىّ — : « لماذا لا تبكى وكلٌّ من حولك يَسْكب الدمع من فرط التأثر ؟ » فأجاب « لست من أتباع هذه الـكنيسة ، فإنى غريب » ! وهذه المقالة قد تصدق على الضحك أكثر مما تصدق على البـكاء ، فإن الضحك يستلزم ضربا من المشاركة بين الضاحك وغيره من الضاحكين ، واقعيّين كانوا أم خياليّين . — وربما كان أكبر دليل على أن الضحك ظاهرة اجتماعية ، أنه كلما زاد عدد النظارة فى المسرح ، زادت بالتالى ضحكاتهم واشتد هتافهم وتصفيقهم . هذا إلى أن كثيراً من النـكات والدعابات الهزلية لا تقبل الترجمة من لغة إلى أخرى ، نظراً لارتباطها بعادات مجتمع معيّن وأفـكار قوم معيَّنين . . . ويَخْلُص برجسون من هـذا كله إلى أنه إذا أردنا أن نفهم الضحك على حقيقته فلا بد لنا من أن نتصوّره فى محيطه الطبيعى ، ألا وهو المجتمع ، كما لا بد لنا أيضا من أن نحدّد الوظيفة النافعة التى يقوم بها ، وهى فى صميمها — كما سنرى — وظيفة اجتماعية . فالفـكرة المُوَجِّهة فى دراسة برجسون للضحك هى أن الظاهرة التى نحن بصددها لا تخرج عن كونها استجابة

لبعض مطالب الحياة الجمعية ، بمعنى أنه لا بد من أن تكون للضحك دلالته الاجتماعية[1] .

والواقع أنه إذا كان بعض الباحثين قد ذهب إلى أن ظاهرتىْ الابتسام والضحك محدَّدتان تحديداً بيولوجيًّا — لا اجتماعيًّا — باعتبارهما مظهرين من مظاهر الغريزة الانسانية ، فإن معظم الباحثين مجمعون على القول بأن للضحك دلالته الاجتماعية باعتباره ظاهرة سيكو — سوسيولوجية تتحكَّم فيها « عقليّة الجماعة » وطبيعة تراثها الحضارى ونوع آدابها العامة وحظها من الترقى الاجتماعى . . . الخ . ولنضرب لذلك مثلا فنقول : إن الإنسان البدائى يضحك فى العادة من عيوب الآخرين الجسمية ونقائصهم الخِلْقية وعاهاتهم الموروثة ، بينما نجد فى المجتمعات الراقية أن من شأن التربية الأخلاقية والتنشئة الاجتماعية أن تعملا على نهى الفرد عن الضحك لمثل هذه العيوب الجسمية أو العاهات الموروثة . — ويفرّق بعض الباحثين بين الضحك عند البدائيين وعند غيرهم من المتحضّرين ، فيقرر أن ضحك البدائيين هو فى صميمه أشبه ما يكون بضحك الأطفال ، أعنى أنه ضحك ساذج تغلب عليه نزعة السخرية وروح المعاكسة ، فضلا عن أنه يتسم بروح عدائية نحو الأجانب ممن يعتقد أهل القبيلة الواحدة

(١) Bergson: « *Le Rire; Essai sur la signification du comique*», pp. 4—6.

أنهم أسمى منهم . ولكن ربما كانت الصفة الأساسية المميِّزة للضحك البدائى هى غلبة الصبغة الجماعية عليه : فإن ضحك البدائيين فى معظمه ضحك « إجماعىّ » *Unanimiste* تقوم به الجماعة كجوقة واحدة ، وتظهر فيه آثار العدوى الاجتماعية التى تسرى بين كل أفراد الجماعة بسرعة البرق . وأما فى الجماعات المتحضرة ، فإن الضحك — كما سيقول سلى *Sully* — يميل إلى اكتساب الطابع الفردى ، بمعنى أن الفرد يصبح أقدر على الضحك بمفرده والاستجابة للمؤثرات الفكاهية حتى وهو فى عزلة عن الجماعة .

بيد أنه لن يكون فى وسعنا أن نسلم بانتقال الضحك فى ترقّيه من الصبغة الجماعية إلى الصبغة الفردية ، لأن البدائيين أيضاً يمارسون الضحك الفردى فى كثير من المناسبات ، كما أنه يكفى أن يشاهد المرء روّاد المسارح الهزلية أو دور اللهو أو الكباريهات وما شاكل ذلك حتى يتحقق من أن الضحك عندنا نحن المتحضرين ينتقل أيضاً بالعدوى ، وأنه لا يقل فى صبغته الجماعية عن ضحك البدائيين أنفسهم . وإذن فإنه ليس من الصحيح أن تاريخ الضحك هو عبارة عن تقدم متصل (أو حتى غير متصل) نحو الفردية ، كما زعم بعض الباحثين . حقا إن روح الفكاهة — وهى أثر من آثار الترقى الاجتماعى — مصطبغة بالصبغة الفردية فى جانب منها ، ولكننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن

موليير فرنسى قبل أن يكون موليريًا ، وشكسبير إنجليزى قبل أن يكون شكسبيريًا ، و برناردشو ايرلندى قبل أن يكون شويًا ! فكل واحد من هؤلاء يعبّر عن بلده وعصره ، بقد ما يعبر أيضاً عن مزاجه الفردى ؛ وهو على الرغم من أصالته الفنية لابد من أن يكون صدى لتراث بيئته الفنى ، ولسان حال لما فيها من تيارات جمالية يتأثر بها و يؤثر فيها (١) .

١٣ — ولو أننا أنعمنا النظر فى الدلالة الاجتماعية للضحك ، لوجدنا أن من شأن الضحك — باعتباره تعبيراً عن الانفعال — أن يجتذب إلينا انتباه أشباهنا من الناس ، وأن ينتزع لنا منهم الاستجابة الصحيحة الملائمة . أما فيما يتعلق بسلوكنا نحن ، أعنى هل نضحك أم لا ، ومتى ينبغى أن نضحك ، فهذا بدوره متوقف إلى حدّ كبير على موقف الآخرين منا . ومعنى هذا أن ثمة مناسبات مقبولة للضحك ، وأخرى لا يصح فيها أن نسمح لأنفسنا بالضحك . والآداب العامة لكل مجتمع هى التى تحدد لأفراده الأساليب العامة التى ينبغى أن يحتذوها فى استجاباتهم حتى يكيفوا سلوكهم مع مقتضيات كل موقف (٢) . وآية ذلك أنه قد يروق لنا أن نضحك فى بعض الظروف ، ولكن الآداب كثيراً

---

(١) *Cf. Lalo: «La Sociologie du Rire»; in «Esthétique du Rire», Flammarion, 1949, p. 188.*

(٢) يقول المثل عندنا فى العامية « الضحك من غير سبب قلة أدب » ، و «السبب» هنا هو ما اصطلح عليه المجتمع .

ما تمنعنا من الاستجابة لتلك المواقف بما يحلو لنا : فهذا — مثلا — واحد من أهل « الفَشْر » (كما نسميهم بلغتنا العامية) يسرد على مسامعك فى سذاجة وبساطة سلسلة أعمال البطولة والشهامة التى استطاع أن يقوم بها ، وأنت تستمع إليه محاولا بكل قوتك أن تأخذ نفسك بشىء من الصرامة والجدّ حتى لا تنفجر ضاحكاً فى وجهه ! ولكن صاحبنا يأبى إلاّ أن يقص عليك تاريخ أمجاده وآيات بطولته حتى النهاية ، فتدعه يمضى فى أحاديثه الجميلة المنمّقة ، بينما تسعى جاهداً فى سبيل كتم ضحكاتك ، وأنت تسخر منه فى قرارة نفسك ! فإذا كان إلى جواركما شخص ثالث يشاركك الحكم على ذلك الكَذُوب الدعىّ ، اختلَسْتَ النظرات إلى عينَىْ صديقك ، ولسان حالك يقول : «ألا ترى معى أن الموقف هزلى حقاً ؟..» ولكنكما لن تضحكا ، أو ستحاولان ألاّ تضحكا ، فإن الآداب العامة لتمنعكما من السخرية بالغير على هذا النحو السافر ؛ ومع ذلك فإنكما ستكونان بمثابة « المجتمع » الصغير الذى يدين ذلك الدعىّ الكذوب[1] .

والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذى تسلّطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية وآدابها العامة . وكلٌّ من تحدثه نفسه بالخروج على قوانين الجماعة وأساليب سلوكها ، فإنه لابد من أن

(1) cf. F. Jeanson : «La Signification humaine du Rire», Seuil, 1950, p. 91—2.

يستهدف لسخريتها اللاذعة وضحكها الموجع . وليس أدل على كون الضحك أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده ، من أن الجماعة واقفة بالمرصاد لكل من يستهين بتقاليدها أو يستخف بمعاييرها ، فهي ما تكاد تلمح سلوكه الغريب حتى تصب على رأسه النكات صباً ، فلا يلبث أن يجد نفسه مضطرا إلى أن يرتد من جديد إلى حظيرتها . ولعل هذا هو ما عناه الفيلسوف الإنجليزي سلى *Sully* حينما قال إن الضحك عامل صراع يساعدنا على أن نجاهد في سبيل استبقاء الحياة الجمعية على ما هي عليه ، لأنه يسمح لكل جماعة بأن تحافظ على كيانها في حدود تقاليدها وعرفها . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إنه حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات (باعتبارها جماعات مغايرة لها) فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعي . ولكن إذا كان للضحك صبغة محافظة من حيث هو أداة نواجه بها الأجنبي ، فإنه على العكس من ذلك قد يقوم بوظيفة النقد والإصلاح بالنسبة إلى الجماعة ذاتها ، لأنه بسخريته من العادات البالية والتقاليد العتيقة إنما يعمل على خلق جو جديد في صميم الجماعة . ومن هنا فإن للضحك وظيفة اجتماعية نافعة ، لا باعتباره أداة محافظة تضمن بقاء التقاليد واستمرار الآداب العامة المرعية فحسب ، وإنما باعتباره أيضاً وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من « التغير الاجتماعي » *Social Change* . ويضيف سلى أن الضحك يساند الطبقات العليا في نزوعها نحو استبقاء مالها من امتيازات ، ولكنه في الوقت نفسه يحد من

غرورها و يطامن من صلفها . ثم يستطرد هذا الباحث الإنجليزى فيقول : « ولـكن الضحك أيضاً هو الثأر السلمى العادل لجماعة الضعفاء من أطفال ونساء وعمال ، لأنه فى أيديهم كأمضى سلاح » (١) .

بيد أن الملاحظ بصفة عامة أن نظرية كل باحث فى تحديد الوظيفة الاجتماعية للفـكاهة والضحك ، لا تـكاد تنفصل عن مذهبه فى بيان أسباب الضحك وتعليل الفـكاهة ؛ ومن هنا فقد نشأت نظريات عديدة فى تحديد طبيعة الوظيفة التى تقوم بها الفـكاهة فى حياتنا الاجتماعية . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما ذهب إليه برجسون من أن الضحك وسيلة فعالة لتصحيح — أو تعديل — تلك الآليات الضارة التى تنطوى عليها حياتنا الاجتماعية العادية بإظهارنا على ما فيها من سخف وعبث وتفاهة . ولسنا بمعرض الحديث عن تعليل برجسون للضحك ، ولـكن حسبنا أن نقول إنه لما كان سبب الضحك فى نظره هو تصرف الإنسان كما تتصرف الآلة بغير تمييز أو تـكيف أو مرونة ، فإن من الطبيعى أن تـكون وظيفة الضحك عنده هى القيام بدور المقوم الاجتماعى الذى يتطلب من كل فرد منا حظاً غير قليل من المرونة ، والتكيف مع الحياة ، والانصراف عن الآليات الضارة على نحو ما تتمثل فى العادات الرتيبة

---

(١) *cf. James Sully: «An Essay on Laughter», London 1902 (trad. franc., 1904).*

والانفعالات المتأصّلة . والواقع أن الجماعة حينما تسخر من الشخص الذى يبدو لها بمظهر الآلة الميكانيكية أو الجهاز الصناعى أو الشىء الجامد ، فإنها إنما تتخذ من الضحك سلاحاً تسعى به إلى المحافظة على المرتبة التى وصلت إليها الإنسانية فوق الجماد والحيوان . وما تريد الجماعة أن تقضى عليه لدى أفرادها ، إنما هو جمود البدن، وتصلّب العقل، وتحجّر الخلق، لأنها تريد لهم أعظم قسط ممكن من المرونة ، وأعلى درجة ممكنة من الروح الاجتماعية . وهذا الجمود هو فى حدّ ذاته مدعاة للسخرية ، ومن هنا فإن الضحك يجىء لكى يكون بمثابة « العقوبة الاجتماعية » التى يفرضها المجتمع على ضحايا الجمود والآلية والرتابة . وبعبارة أخرى فإنه لما كانت الكوميديا البشرية إنما تعبّر عن انعدام تكيّف الفرد مع الجماعة ، فإن السخرية التى نلقى بها ضحايا انعدام التكيّف أو سوء التوافق إنما هى فى صميمها ذات دلالة اجتماعية (دون أن تكون لها أدنى قيمة أخلاقية) . وإذن فإن ما يضحكنا لدى الفرد إنما هو سوء توافقه مع الظروف الاجتماعية ؛ وليس الضحك سوى المظهر الذى نعبّر به عن حكمنا على ذلك الفرد بالجمود والآلية وفقدان الروح الجماعية[1] .

---

(١) H. Bergson: «Le Rire; Essai sur la signification du comique», 67 éd., p. 150.
cf. également: Charles Lalo: «Esthétique du Rire», 1949, Ch. I., 5ᵉ partie, p. 191

ولكن إذا كان برجسون قد اعتبر الضحك عاملاً مهمًّا من العوامل المؤدية إلى تحقيق ضرب من التقدم الاجتماعىّ ، فإن باحثين آخرين قد ذهبوا إلى أن الضحك يقوم بوظيفة « المصحّح الاجتماعى » *social corrective* لأنه يعمل على صيانة الاستقرار الفكرى والاتحاد العاطفى — فى المجتمع الواحد — ضدّ شتى عوامل التنافر أو المفارقة أو الابتداع أو الإغراب . فالضحك فى نظر هؤلاء لا يؤدّى وظيفة « الجزاء الاجتماعى » فحسب ، وإنما هو يعمل أيضا على تقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعى بين أفراد الجماعة الواحدة . وقد اهتم أحد علماء الاجتماع المعاصرين — ألا وهو دوپرل *Dupréel* — بدراسة الضحك من الزاوية الاجتماعية ، فقال إن الظاهرة الأولى فى « الضحك الاجتماعى » هى شىء أكثر من مجرد سريان عاطفة فردية أو انفعال فردى عن طريق العدوى ، أو على سبيل المحاكاة (كما زعم تارد *Tarde*) ، لأن الشىء المهم فى الضحك هو تلك الروح الجماعية الماثلة فى كل فرد منا (وإن كانت تعلو علينا جميعاً) والتى تعمل عملها فى استجابتنا لبعض المواقف بالضحك . فليس للضحك وظيفة اجتماعية واحدة بعينها ، يؤديها فى كل الظروف وشتى الملابسات ، وإنما هناك استجابات جماعية متعددة تتمثل فى ضروب متعددة من الضحك . ولهذا يفرق دوپرل بين نوعين أساسيين من الضحك : « ضحك الترحيب أو الاستقبال » *Rire d'accueil* وضحك « الطرد أو الاستبعاد » *Rire d'exclusion* ، على

أساس أن الفرد أو المجتمع الذى يضحك قد يتقبل أو يطرح الفرد أو المجتمع الذى يضحك منه . ومعنى هذا أن فى استطاعتنا أن نضحك من أى شىء ، ولـكن ضحكنا لا يمكن أن يخرج عن أحد هذين السببين . و إذن فنحن هنا بإزاء قوانين الجاذبية السارية فى عالم الضحك ، لأنه إما ميل وانجذاب ، و إما طرد واستبعاد ! . وربما كان خير مثال لضحك الترحيب أو الاستقبال ذلك الانفعال السار أو تلك الغبطة الجمعية التى تتلقى بها الجماعة أحد أفرادها العائدين بعد غياب . وأما ضحك الطرد أو الاستبعاد ، فإنه يعبر بطريقة حادة عن حيوية الجماعة فى وقوفها صفا واحداً ضد الأجنبى : تلمزه وتغمزه وتسخر منه . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يحدث فى بعض المجتمعات الرسمية حينما يدخل أحد المدعوين وقد نسى ارتداء رَبْطة الرقبة فيلقاه باقى المدعويين بضحكة ملؤها العداء والازدراء ، أو ما يحدث فى مجتمعات القرويين حينما يصل إلى بلدتهم الصغيرة النائية سائح غريب فلا يلبث الفلاحون أن يتكتلوا جميعا ضده و يسخروا منه ، أو ما يحدث أيضاً فى مجتمعات الأقوام المتوحشين حينما يرون لأول مرة مكتشفا أجنبياً فيلقونه بروح التعجب والسخرية والعداء . ولا شك أن كل هؤلاء الأفراد ليسوا « مضحكين » أو « مدعاة للسخرية » فى ذاتهم ، و إنما باعتبارهم ممثلين لجماعة خارجة *out-group* نعدّها نحن جديرة بالسخرية لمجرد أنها أجنبية . — وكثيراً ما يعبّر الضحك عن موقف الاستهجان الجماعى ، كما فى حالة الشخص الذى يتعرض لسخرياتنا

اللاذعة بسبب إصراره على اتباع « موضات » قدم العهد بها ؛ ولو أنه يجب فى هذه الحالة ألا تكون تلك « الموضات » قد نسيت تماماً ، و إلا فإنها لن تستثير لدينا الضحك . كذلك يدخل فى هذا الباب أيضا ضحكنا من لهجات أهل الأقاليم المجاورة لنا ، أو سخريتنا من بعض العادات المحلية السائدة لدى جماعات غير نائية عنا . — ويستطرد دوپرل فيقول إن ضحكات الطرد والاستبعاد قد لا تلبث أن تتحول إلى ضحكات استقبال وترحيب ، كما فى حالة المسافر الذى نراه يَقْدُم إلينا فى القطار فنلقاه بالسخرية والاستهزاء ، لكى لا نلبث أن ننسجم معه بعد أن تتوطد بيننا المعرفة ، ونتجاذب فيما بيننا أطراف الحديث ، فيشترك هو بدوره معنا فى السخرية والضحك من القادمين الجدد الذين يفدون إلينا فى المحطات التالية !

ويرى دوپرل أن الفكاهة *l'humour* هى مركب من القبول والرفض ، أعنى أنها مزيج من ضحك الاستقبال والترحيب وضحك الطرد والاستبعاد ، بدليل أن الضحك الذى يستثيره لدينا سوء تصرف طفل صغير ، قد يكون هو نفسه السبب الذى يدفعنا إلى أن نقْبِل عليه ونرغب فى تقبيله ! فهنا يستحيل باعث الطرد والاستبعاد إلى باعث إقبال وترحيب . — وإذا كان برجسون قد ذهب إلى أن للتراجيديا طابعاً « شخصياً » فى حين أن للكوميديا طابعاً « عاماً » ، فإن

دوپرل يقول إن من الواجب أن نصحح هذه المقالة الأخيرة بأن نقرر أن للكوميديا طابعاً « جماعياً » . والواقع أن ما يبدو لنا صلبا جامداً عديم المرونه فاقد الحيوية إنما هو كل ما ينتمى إلى جماعة أخرى غير جماعتنا . فبرجسون قد أخذ المعلول على أنه علة ، فى حين أن « الجمود » الذى يعتبره هو الأصل فى الضحك ، ليس الا نتيجة «مشتقة » *dérivée* مرجعها إلى اختلاف العادات الجمعية . و إذا كان برجسون قد اعتبر الضحك ضرباً من « التقويم الاجتماعى » ، فإنه دوپرل يرى أن الأدنى إلى الصواب أن يقال إنه ضرب من « الجزاء الاجتماعى » *Sanction Sociale* . والسبب فى ذلك أن الضحك لا ينطوى فقط على معانى الطرد والاستبعاد ، بل هو قد ينطوى أيضاً على معانى القبول والاستحسان(١) .

١٤ — أما إذا انتقلنا إلى دراسة الضحك فى المواقف الاجتماعية المختلفة ، فإننا سنجد أن فرويد يقرر أن الشىء الهزلى أو «الكوميدىّ » ليس هو الذى يكون فى حاجة إلى جمهور (لأنه قد يكون فى استطاعتنا أن نتذوّقه ونستمتع به بمفردنا) ، و إنما الذى يحتاج بالضرورة إلى « جمهور » ، هو « النكتة » أو « الملحة » *Wit, Esprit* . فالنكتة تتطلّب (على أقل تقدير) مجتمعاً صغيراً يتكوّن من ثلاثة أشخاص :

(١) *cf. E. Dupréel: «Le Problème Sociolcgique du Rire», in «Revue Philosophique», 1928.(cité par Ch. Lalo op. cit., pp. 195—197)*

راوى النكتة (وهو فى العادة أقلهم ضحكاً) ، والشخص الذى تروى عنه النكتة ، أو تُحكى عنه الدعابة ، أو تُصَبُّ على رأسه السخرية ؛ ثم المستمع الذى يقوم بدور الشاهد أو الحَكَم (والذى قد يكون فرداً أو جماعة) . وإذن فإن « النكتة » فيما يرى فرويد تفترض وجود ضرب من التماسك الاجتماعى — أو شبه الاجتماعى — بين الشخص الذى يرويها والشخص الذى يستمع إليها ؛ لأنه لولا هذا التماسك الاجتماعىّ أو تلك المشاركة النفسية لما كان فى وسع صاحب النكتة أو الدعابة أو « القَفْشة » (كما نقول أحيانا بالعامية) أن ينجح فى إصابة مرماه ، ووضع الشخص الذى يسخر منه موضع الضحك . وتبعاً لذلك فإن لكل نكتة جمهورها ، بحيث إنه قد يصحّ أن نقول إن الاشتراك فى الضحك من نكات معيّنة هو الدليل الأكبر على الاشتراك فى عقلية واحدة أو الانتماء إلى فصيلة نفسية واحدة . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول إن الشخص الذى لا تضحكه سوى الدعابات الماجنة والنكات البذيئة قد لا تكون استجابته للفكاهات الراقية والتلميحات الذكية البارعة سوى الازدراء وعدم الاكتراث . وهكذا يمكننا أن نقرر بصفة عامة إن الأشخاص الذين يتذوّقون فكاهات مشتركة ، ينتمون فى الغالب إلى وسط اجتماعىّ مشترك[1] .

(١) *cf. S. Freud,: «Wit and Its Relaion to the unconscious»., New-York, Moffat Yard, 1916. (trad. franç., 1930)*

وليس أدل على تأثير البيئة الاجتماعية على نوع استجابتنا للمؤثرات الفكاهية ، مما لاحظه كثير من الباحثين النفسيّين والاجتماعيين فى مجتمعات اللهو والهزل والتسلية ، من سرعة فى الاستجابة للمنبهات المضحكة ، وتسامح فى قبول شتى أنواع الدعابة . والواقع أنه حينما يتردد الناس على المسارح أو دور اللهو لسماع بعض المونولوجات الخفيفة والنكات الطريفة ، أو لمشاهدة بعض المسرحيات الكوميدية والروايات الهزلية ، فإن من المؤكد أن من شأن طبيعة « اجتماعهم » أن تعمل على زيادة ضحكاتهم وسرعة استجاباتهم . وهناك نوع من المسارح فى باريس يسمونه باسم مسارح المتنوعات أو الأغانى الخفيفة «*Les Chansonnires*»، وفيه تعلو صيحات الجمهور الضاحك الذى اعتاد تذوّق هذا النوع من الفكاهة ، والتقاط ما فيها من لمحات بارعه ودعابات لاذعة ، وفهم ما تنطوى عليه من سخرية وتهكم واستهزاء . وأما حينما يكون المتفرج من غير رواد هذا النوع من المسارح ، فقد يعجز لأول وهلة عن تقدير ما يستمع إليه من دعابات ، أو هو قد لا يفهم المدلول الخفى لما فيها من إشارات وتلميحات . ولما كان الاندماج فى المجتمع هو الشرط الضرورى لمشاركة أفراده فكاهتهم وضحكهم ، فإنه ليس بدعا أن يبقى الإنسان فى حالة عدم اكتراث حينما يجد نفسه فى مجتمع أجنبى تعلو صيحات أفراده إعجاباً بنكتة يراها هو « سخيفة » لا معنى لها ، نظراً لعجزه عن « التكيف » مع الطبيعة الفكاهية لذلك المجتمع . ومن هنا فإن لكل

مجتمع طريقته فى الدعابة ، وأسلوبه فى التفكُّه ، وأنماطه الخاصة فى إطلاق النكتة والضحك لها . وهذا ما حدا ببعض الباحثين — كما سنرى فيما بعد — إلى دراسة أخلاق الشعوب من خلال نكاتهم ، فإن من المؤكد أن الفكاهة هى خير مرآة تنعكس عليها أحوال كل مجتمع وما مرّ به من أحداث ، وما اكتسب من مقوّمات ، وما اندمج فى خلقه من سمات .

بيد أن التجارب قد دلتنا على أن بعض الأوساط الاجتماعية قد تتسبَّب فى ارتفاع نسبة النكات « السخيفة » أو الفكاهات المبتذلة ، نظراً لأن من شأن الوسط الاجتماعى فى بعض الأحيان أن يُضْعِفَ لدى الأفراد القدرة على الحكم والتمييز ، أو أن يعمل على الحدّ من قُواهم النقدية . وكثيراً ما يقهقه الفرد لنكتة يستمع إليها فى بيئة اجتماعية معينة ، بينما هو قد لا يستجيب لها بأكثر من ابتسامة باهتة حينما يكون بمفرده . ومع ذلك فقد لوحظ فى مناسبات أخرى أن من شأن بعض الأوساط الاجتماعية أن تعمل على تنويع أفانين النكتة ورفع مستوى الفكاهة ، إذ تكون الجماعة متحفّزة لتلقف النكتة البارعة الممتازة ، واطِّراح النكتة المعادة المبتذلة ؛ فتعلو صيحات الجمهور عندئذ منددّة بالنكتة « السخيفة » (لأنها « قديمة » أو «بايخة» كما نقول بالعامية) ، بينما تشق ضحكاتهم عنان السماء عند سماعهم للنكتة الرائعة التى تنتزع استحسانهم وتلهب أيديهم بالتصفيق ! وقد يكون من الطريف فى هذا

الصدد أن يعمد الباحث إلى دراسة استجابات عدة طوائف متباينة من الجمهور لرواية هزلية بعينها ، أو أن يقوم بدراسة استجابات طائفة اجتماعية واحدة لمسرحية هزلية بعينها فى مناسبات مختلفة . وهنا لا بدّ من أن تظهرنا التجربة على أن استجابات الجمهور تختلف باختلاف آدابه العامة وأنماطه السلوكية وطريقته فى الضحك ، كما أنه لا بدّ للتكرار من أن يلعب دوره فى التخفيف من حدة استجابة الطبقة الواحدة لرواية بعينها تشهدها للمرة الثالثة أو الرابعة مثلاً . كذلك لوحظ أن ثمة علاقة اطرادية بين شدة الضحك فى قاعة المسرح أو السينما ، و بين عدد النظارة الذين يشهدون العرض . وحينما يؤدّى المسرحية الهزلية ممثلون حديثو عهد بفن الكوميديا ، فإن من المؤكد أنه لا بدّ من أن تضعف عاصفة الضحك فى المسرح : إما لأن الممثّلين لا يتركون للجمهور من الوقت ما يكفى لتذوّق النكتة والاستجابة لها بالضحك ، أو لأن قلة مرانهم ونقص تجربتهم قد يحولان بينهم و بين انتزاع استحسان الجمهور ، فلا يندمج الجمهور تماماً فى شتى المواقف الفكاهية التى تنطوى عليها الرواية .

من كل هذا يتبيّن لنا بوضوح أن الجمهور لا يضحك دائماً لنفس الأشياء ، وأنّه لا يضحك دائماً بنفس الطريقة . وقد ربط بعض الباحثين بين الضحك واللعب ، فقال إنه كما أن المرء لا يمكن أن يلعب بمفرده ، فإنه كذلك لا يمكن أن يضحك بمفرده ؛ وكما أن اللعب على أنواع ، فكذلك الضحك على أنواع . وليس أدلّ على

ما للمجتمع من تأثير على تقدير الأفراد للفكاهة ، من دراسة الضحك عند صغار الأطفال : فقد أثبتت هذه الدراسة سوء ذوق الطفل فى تقدير الفكاهة ، فضلاً عن انطواء المواقف الهزلية لدى الأطفال على الكثير من الاتجاهات الوجدانية غير المرغوب فيها اجتماعيًا . والحق أن علماء النفس الذين اهتمّوا بدراسة الفكاهة عند الطفل قد تحققوا من وجود هوة كبيرة تفصل ذوق الأطفال فى تقدير الفكاهة عن ذوق البالغين (خصوصاً من بين معلّميهم) . وتبعاً لذلك فإن الأطفال قلما يطمئنون إلى ذوق الكبار فيما يختارون لهم من مجلات ، أو ما يجبرونهم على مشاهدته من أفلام ، أو ما يستحسنونه لهم من وسائل تسلية . وحينما يصرّ بعض الوالدين أو المربّين على أن يفرضوا أذواقهم الفنيــة على أطفالهم ، فقد يترتب على ذلك أن يتمادى هؤلاء فى رفض كل ما يختاره لهم الكبار من قصص أو مطالعات أو روايات فكاهية أو أفلام سينمائية . . . الخ . ولكن الملاحظ عموماً أنه بمجرد ما تكتمل التنشئة الاجتماعية للطفل ، فإنه سرعان ما يكتسب ذوق البالغين فى تقدير الفكاهات والاستجابة لشتى المؤثرات الهزلية ، ومن ثَمّ فإننا نقول إنه قد تطبّع بالروح الفكاهية المميّزة لمجتمعه الخاص (١) .

---

(١) *cf. Flugel: «Humor and Laughter»; in «Handbook of Social Psychology»., 1954, Vol. II., Edited by G. Lindzey, pp. 730—731.*

١٥ — وقد يكون من نافلة القول أن نقرّر أن للضحك والفكاهة علاقة وثيقة بالقيم المنهارة فى المجتمع من جهة ، والقيم المقدّسة التى تحيطها الجماعة بالإجلال والاحترام من جهة أخرى . فالمجتمع الذى يقدّس النظام العائلىّ ، ويرفع من شأن السلطة الزوجية ، كما هو الحال مثلاً عندنا فى الشرق العربى ، لا يمكن أن يسمح لأفراده بأن يجعلوا من موضوع « الخيانة الزوجية » موضوعاً فكاهيًّا تدور حوله الكثير من الروايات الهزلية والنكات المضحكة ، كما هو الحال فى بلد مثل فرنسا مثلاً . والمجتمع الذى يحترم شخص « الحماة » ، ويضع فى يدها الكثير من السلطات ، كما هو الحال فى الصين مثلاً ، لا يمكن أن يأذن لأفراده بأن يتخذوا من « الحماة » موضعاً للسخرية ، كما يحدث فى كثير من الفكاهات الأوربية والأمريكية[1] . . . الخ . والمجتمع الذى تتزعزع فيه سلطة رجال الدين ، قد تتحوّل كل نكاته نحو الكهنة والرهبان وأصحاب العمائم السود ، كما هو الحال اليوم فى المجتمع الفرنسى مثلاً . والمجتمع الذى يعنف فيه الصراع بين الطبقات ، قد تتخذ فيه الطبقة الكادحة من « الفكاهة » سلاحاً تطعن به الطبقة البورجوازية ، فتتفنن فى ابتكار النكات التى تسخر فيها من عادات أهل تلك الطبقة وأنانيتهم وطمعهم وحبهم للاستغلال . . . الخ . والبلد الذى ينقسم أهله إلى قرويين

(١) *Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Paris, Flammarion, 1949, pp. 203—204.*

وسكان مدن ، قد يسخر فيه المدنيون من الريفيين الذين يريدون أن يظهروا بمظهر المتأنقين (خصوصاً أيام الآحاد فى البلاد الأوروبية) ، وبينما يسخر أهل الريف من سكان المدن حين يطوفون بقراهم للسياحة وتمضية العطلات . وهكذا نرى أن كل طبقة تدافع عن قيمها ، متخذة من « الفكاهة » أداة تستعين بها على إظهار قيم غيرها بمظهر « البدع » المستهجنة . وحينما تسخر الطبقة البورجوازية من العامل الذى يتأنق فى ملبسه ، فكأن لسان حالها يقول : « إنك لتُبْدِى من الأناقة ما هو كثير على من كان فى مثل طبقتك ! »

ولسنا فى حاجة إلى أن نبين ما للنكتة من علاقة وثيقة بشتى الظواهر الاجتماعية : فإنه لمن الحديث المعاد أن نقول إن الصراع الطبقى يخلق النكات الاجتماعية ، والكبت الجنسى يولد الكثير من الفكاهات الجنسية ، والفقر يعمل على ظهور الكثير من النكات العدوانية ، والثقافة العميقة تزيد من أصالة النكتة وتصقل روح الفكاهة . . . إلخ . وقد اهتم بعض الباحثين بدراسة العلاقة بين الحرب والفكاهة ، فأظهرنا قوم منهم على أن الفكاهة نفسها مظهر من مظاهر العدوان ، وقالوا إنها تمد أهلها بإحدى الوسائل الفنية البارعة فى محاربة العدو ؛ بينما عُنى آخرون بأن يكشفوا لنا عن التطورات التى تطرأ على روح الفكاهة لدى الأفراد والجماعات إبان الحروب والأزمات الساسية . ولعل من أهم مظاهر التطور التى تطرأ على الفكاهة فى زمن الحرب ، اختفاء مظاهر العداء بين

طوائف الشعب الواحد ، مما كانت تكشف عنه نكاتهم العديدة بما فيها من سخرية وتهكم من قِبَل الطبقة الواحدة ضد غيرها من الطبقات . وهكذا تمحى النوادر التى يتناقلها الناس عن الأقليات — كاليهود أو الزنوج — وتختفى النكات التى تتسم بطابع التعصب أو العداء أو الازدراء . وعلى الرغم من أن « العدوّ المشترك » هو الذى يصبح إبان الحرب موضع سخرية الشعب ، ومثار نكاته وفكاهاته ونوادره ، إلا أن الملاحظ بصفة عامة أن هذه الفكاهات قلما تميل إلى تصوير العدو بصورة الخصم الضعيف الذى لا حول له ولا طول ، خشية أن تسرى بين أفراد الجمهور روح الاستهتار ، فتضعف المقاومة الشعبية وتفتر الجهود الحربية . وإذن فليس من الضرورى أن تؤدى روح الفكاهة إلى إضعاف روح الجدّ (*Seriousness*) لدى أفراد الجماعة ، بل قد ترتد روح الفكاهة على الجمهور نفسه ، فتحثه عن طريق الدعابة إلى مضاعفة جهده وزيادة مقاومته ، حتى يتسنى له القضاء على ذلك الخصم العنيد الذى يصب عليه جام غضبه . وقد يتجه عدوان الجمهور الفكاهى — فى بعض الأحيان — نحو « المُواطن الانعزالى » الذى يستخف بقيضة بلاده ، أو الذى يهز كتفيه فى غير ما اكتراث بالمسئولية الوطنية .

وصفوة القول أن معظم الباحثين مجمعون على القول بأنه وإن كان الضحك ظاهرة فسيولوجية تدخل فى صميم تكويننا البيولوجى باعتبارنا بشراً ، إلا أنه فى الوقت نفسه ظاهرة نفسية وثيقة الصلة بكل ما يحيط

بالأفراد من ظروف اجتماعية . وإن الضحك ليتأثر — كغيره من الظواهر — بشتى عوامل التغير الاجتماعى ، ولـكنه هو نفسه قد يكون بمثابة أداة تعيننا على تحقيق ذلك التغير الاجتماعى . وقد رأينا أن الموضوعات المضحكة تختلف باختلاف المجتمعات ، كما أن التغير الاجتماعى الذى يطرأ على مختلف الأوساط من شأنه أن يعكس آثاره على موضوعات فـكاهتها . فليس بدعا إذن أن يقول أحد الباحثين إنه ليس ثمة ضحك ، بل هناك ضروب شتى من الضحك ، فإن الضحك ليس « جنسا » ، بل هو مجموعة من « الأنواع » . . . [١] . ونحن نضيف إلى هذه العبارة ، أنه ليس ثمة « ضحك فى ذاته » ، بل هنـــاك نماذج مختلفة من الأفراد الضاحكين والمجتمعات الضاحكة .

(١) Cf L. Dugas: «Psychologie du Rire», Paris,1902-; pp 166 – 167.

الفصل الخامس

مشكلة تعليل الضحك

١٦ — إذا ألقينا نظرة عامة على البحوث الكثيرة التى كتبها الفلاسفة وعلماء النفس فى دراسة الضحك ، فإننا نجد أن المشكلة الرئيسية التى استرعت انتباه معظم هؤلاء الباحثين لا تكاد تعدو محاولة « تعليل الضحك » . ومعنى هذا أن السؤال الجوهرى الذى أثارهُ هؤلاء المفكرون هو ضرورة الوقوف على السبب أو الأسباب التى تبعثنا على الضحك . وهذا ما عَبّر عنه وددورث بقوله : « إن أعسر مشكلة تواجهنا حينما نكون بصدد دراسة الضحك هى أن نحدد بلغة علم النفس العام نوع المنبّه الذى يستثيره . »(١) ولكن بعض الباحثين الذين حاولوا تفسير الضحك قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اعتباره مجرد حَدَث طبيعى بين غيره من أحداث الطبيعة ، فلم يعد الضحك فى نظرهم فعلا أو عملية ، بل أصبح شيئاً أو موضوعاً . وهكذا انصرفوا إلى دراسة كوميديا الطبيعة ، وحاولوا أن يفسروا الضحك باعتباره حدثا تولده الطبيعة فى الإنسان . و بعبارة أخرى فقد وقع فى ظن هؤلاء المفكرين

---

(١) R. S. Woodworth : «Psychology, A Study of Mental Life», pp. 157—8.

أن مصادر الفكاهة كامنة فى الطبيعة ، وأنه ليس على الباحث الذى يريد أن يفسر الضحك سوى أن يزيح النقاب عن تلك العلل الطبيعية التى تولد لدينا استجابة الضحك(١) .

بيد أننا حينما نقول مع برجسون أو غيره من الباحثين : « إن المُضحِك أو الهزلى هو كل ما يتصف بكذا أو كذا » ، فكأننا نتصور أن ثمة مصادر طبيعية للضحك ، على نحو ما توجد مصادر طبيعية للكهرباء مثلاً . ولكن الواقع أنه ليس ثمة شىء مُضْحك فى ذاته *En-soi* يكون من شأنه دائماً أبداً أن يظل كذلك فى شتى الظروف وكافة الأحوال . وآية ذلك أنه ليس ثمة فعل واحد ، أو ليس ثمة تصرّف واحد ، يمكن أن نَسِمَهُ بأنه « مُضحِك » أو « هزلىّ » *Comique* فى حدّ ذاته . ولعلّ هذا هو ما عناه أحد الباحثين المعاصرين حينما قال : « إنه ليس ثمة مصادر للهزل فى الطبيعة ، وإنما المصدر الوحيد للهزل كامن فى الشخص الضاحك نفسه . »(٢) . فليس فى وسعنا إذن أن نبحث فى الطبيعة الخارجية عن « العلل » أو « المؤثرات » التى تولّد لدينا استجابة الضحك ، وإنما لا بُدَّ لنا من أن ندرس الضحك باعتباره ظاهرة

---

(١) *Cf. F. Jeanson: «Signification Humaine du Rire», 1950, pp. 27—29.*

(٢) *Marcel Pagnol; «Notes sur le Rire»., Paris, Nagel, 1947, pp. 14—17.*

بشرية ، لا يؤثر فيها « الوسط » على « الذات » إلاَّ بقدر ما تفهمه وتستطيع أن تحيله إلى « موقف » Situation[1] . ومعنى هذا أنه ليس ثمة قوى هزلية موضوعيّة تجيء فتحدث لدينا من الخارج استجابة الضحك ، وإنما نحن نضحك حينما نريد أن نستجيب لبعض المواقف البشرية بلغة الضحك التي تنطوى على دلالة اجتماعية يفهمها الآخرون . وعبثا يحاول الباحثون أن « يفسّروا » الضحك أو أن « يعلّلوا » الفكاهة ، فإنهم لن يستطيعوا أن « يفهموا » هذه الظاهرة الإنسانية باعتبارها مجرد « معلول » لحدث فى حدّ ذاته « كوميدىّ » . وهذا ما عناه بودلير حينما كتب يقول : « إن الهزلىّ ، أو ما يمتلك القدرة على إضحاكنا ، إنما يكمن فى الضاحك نفسه ، لا فى موضوع الضحك بحال من الأحوال » . ويضرب بودلير لذلك مثلاً فيتساءل قائلا : ما الذى يضحكنا — مثلاً — فى منظر ذلك الرجل المسكين الذى تزل قدمه فيتدحرج على الأرض ، وتتسخ ملابسه ، ويصاب برضوض فى كل جسمه ، أو قد تنكسر عظمة من عظامه ؟ إنه لمشهد أليم ، ولكننا مع ذلك ما نكاد نرى هذا المنظر ، حتى ننفجر ضاحكين ، دون أن نقوى على كبت انفعال الضحك الذى يستولى علينا ! ولو أننا نفذنا إلى أعماق فكر الشخص الضاحك فى مثل هذه الحالة لوجدنا أنه

---

(١) J. P. Sartre: «L' Etre et le Néant»., Paris, Gallimard, 1949, p. 660.

فى الحقيقة إنما ينطوى على كبرياء لا شعوريّة . ومعنى هذا أن نقطة البدء فى الموقف الذى نحن بصدده إنما هى « الذات » أو « الأنا » ، وكأن لسان حال الشخص الضاحك يقول : « أما أنا ، فأنا لا أقع فى الطريق ، وأنا أسير دائما بخطى ثابتة ، وأنا أملك قدمين راسختين ، ولست أنا بالشخص الذى يرتكب مثل هذه الحماقة فلا يرى الإفريز أولا يلمح الحاجز الذى يسدّ الطريق[1] ! » .

ولكن على الرغم من أن بودلير يأبى أن يأخذ بالنظرية الكلاسيكية التى تقول بوجود موضوعات هزلية تولّد لدينا الضحك (من الخارج) ، إلاّ أن بودلير مع ذلك لا يقلع نهائيا عن محاولة تفسير الضحك ، بل كل ما هنالك أنه يقدّم لنا تفسيراً ذاتيًّا يركن فيه إلى العوامل الباطنة ، بدلاً من الاستعانة بالعلل الخارجية أو العوامل الموضوعية . وهكذا نجد أن بودلير يقرر أن الضحك هو فى صميم الأمر بمثابة النتيجة التى تتولّد لدى الإنسان عن فكرة امتيازه الخاص أو تفوّقه الشخصى . ولا شك أن هذه النظرية لا تخرج عن كونها مجرد « تفسير » للضحك ، ولو أننا هنا بإزاء تفسير بالأسباب (المعقولة) *Raisons* لا بالعلل (الخارجية) *causes* . — وعلى كل حال ، فإن محاولة بودلير إن هى إلاّ سعى نحو

(١) *Baudelaire: «Curiosités Esthétiques», De l'Essence du Rire; Calmann-Lévy, Paris, 1884, t. II., p. 370.*

« تفسير » الضحك ، على غرار ما فعل من قبل كل من ديكارت واسبينوزا وكنت ، وما فعل من بعد كل من برجسون وفرويد ومارسل بانيول ؛ فهى دراسة لتلك الظاهرة البشرية بمنهج لا يصلح إلاَّ لدراسة ظواهر العالم الفزيائى . ومن هنا فقد ذهب بعض الفلاسفة الوجوديّين الذين درسوا الضحك إلى ضرورة التخلّص من كل وجهة نظر علمية متطرفة *Scientiste* فى دراسة هذه الظاهرة ، من أجل العمل على «فهمها» بالنظر إلى « غاياتها » *Fins* . ومعنى هذا أن الضحك فى نظرهم إن هو إلاَّ ظاهرة شعورية ذات طابع قَصْدى *Intentionnel* ، ولو أن «القصد» هنا يكون فى بادىء الأمر مجرّد حَدَث مُعاش *Vécue* ، لكى لا يلبث من بعد أن يصبح مُتعقَّلاً . و إذا كان من العبث — فى رأى هؤلاء الوجوديّين — أن نفسّر ذلك « القصد » *Intention* بالبحث عن علله أو أسبابه ، فذلك لأنه ليس ثمة سوى مناسبات أو ملابسات أو ذرائع للضحك ؛ بمعنى أن الضحك يعبّر أولا و بالذات عن « اتجاه » الموجود حينما يكون بإزاء « موقف » معيّن (١) .

١٧ — من كل ما تقدم يتبيّن لنا أنه قد يحسن بنا أن نقلع عن محاولة « تفسير » الضحك ، أو البحث عن « علل » للفكاهة ، لكى

---

(١) *F. Jeanson: «La Signification humaine du Rire», Seuil, 1950, p. 114.*

نقتصر على النظر إلى الملابسات أو الذرائع التى تكتنف تلك الظاهرة . ولو أننا حاولنا أن « نفهم » الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية ، لتبيّن لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من مواقف بشرية . وإذا كان من العبث أن نجتزئ فى فهمنا للضحك والفكاهة بتطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتأوّل شتى المواقف البشرية المضحكة ، فذلك لأن الحياة البشرية هى من السعة والتعقّد بحيث أنه قلما تنهض نظرية واحدة بتأويل ما تنطوى عليه مواقفها الكثيرة من قيم ومدلولات . فالمرء قد يضحك لكى يثبت لنفسه وللآخرين تفوقه على غيره ، وهو قد يضحك حتى يشجع نفسه فى موقف يتطلّب قسطا غير قليل من الشجاعة والبطولة ، وهو قد يضحك لكى يغطّى عجزه عن حلّ مشكلة ما ، وهو قد يضحك على أثر نجاته من خطر مُحقّق ، وهو قد يضحك لكى يعبّر عن تهلّله وفرحه ، وهو قد يضحك حين يرى شخصا متأنقاً يزلّ فيهوى على الأرض كما يتدحرج الحجر . . . إلخ . وإذن فإن الملابسات التى تحيط بظاهرة الضحك هى أعقد وأكثر من أن تحيط بها نظرية واحدة أو أن يستوعبها مذهب واحد . وقد رأينا من قبل كيف حاول فالنتين *Valentine* فى كتابه « سيكولوجية الطفولة المبكرة » (سنة ١٩٤٢) أن يحصر بعض تلك الملابسات ، فاستطاع أن يجمع حوالى خمسة عشر موقفاً رأى أن لها نظائرها عند البالغين أيضاً ، وجميعها مما نستجيب له

بالضحك فى الظروف العادية . وقد عنى أحد الباحثين الإنجليز — ألا وهو بدنجتون — بتلخيص أهمّ الآراء المشهورة فى تعليل الضحك ، فاستطاع أن يحصرها فى حوالى ٥٧ نظرية مختلفة فى تفسير تلك الظاهرة البشرية المعقدة التى استرعت اهتمام المفكرين منذ عهد أفلاطون حتى يومنا هذا[١] .

والملاحظ بصفة عامة فى هذا الصدد أنه يندر أن نجد بين جمهور الباحثين الذين اهتمّوا بدراسة تلك الظاهرة مَنْ يقنع بانتهاج منهج سلفه فى تفسير الضحك ، أو من يكتفى باعتناق أحد مذاهب السابقين عليه فى شرح طبيعة الفكاهة . وما دام الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم إلى هذا الحدّ ، فإنه قد يكون من خطل الرأى أن نساير مذهبا بعينه فى فهمه لتلك الظاهرة البشرية المعقدة ، أو أن نشايع فلسفة بعينها فى تفسيرها لما تنطوى عليه تلك الظاهرة من دلالة . ولكن الباحث قد يجد نفسه مدفوعاً — من حيث يدرى أو لا يدرى — إلى أن يلتمس شيئاً من التنظيم فى وسط ذلك الخضمّ الهائل من النظريات المتضاربة التى خلّفها لنا الفلاسفة وعلماء النفس ممن عنوا بدراسة هذه الظاهرة . وهو لو أمعن النظر فى تلك الآراء الكثيرة التى لا تكاد

---

(١) *R. Piddington: «<u>The Psychology of Laughter</u>», London, Figurehead, 1933, appendix,*

تجمع على شىء ، لتحقق أن تضاربها ليس من الخطورة بما قد يقع فى ظننا لأول وهلة ، إذ أن ثمة عوامل مشتركة تتردّد على ألسنة الباحثين حينا بعد حين ، وإن كانت تظهر فى كل مرة بصورة خاصة ، ويُنْظَر إليها فى كل مرة من زاوية مختلفة[١] .

وهكذا نجد أن الضحك فى نظر الكثير من الباحثين يقترن فى العادة بمجموعة من المنبّهات أو المؤثرات الفسيولوجية — كالدغدغة مثلا — ويصاحب فى كثير من الأحيان ظاهرة السرور أو الانشراح العام *(Euphoria)* . ويكاد معظم الباحثين الذين درسوا ظاهرتى الفكاهة والضحك يجمعون على أنهما تنطويان على عنصر لهو أو لعب *(Playfulness)* باعتبار أنهما ليستا وليدتَىْ حاجة بيولوجية ملحة . كذلك يقرر عدد غير قليل من علماء النفس أن للضحك والفكاهة دلالة اجتماعية واضحة ، نظراً لأنهما — كما أسلفنا فيما تقدم — متأثران بالوسط الاجتماعىّ المباشر والإطار الحضارىّ العام . — أما فيما يتعلق بطبيعة الموقف الفكاهى فإن الرأى يتجه إلى القول بأنه ينطوى على عنصر « مفاجأة » أو « عدم توقُّع » ، بينما يرى آخرون أن الضحك مرتبط ارتباطاً وثيقا بظاهرة « الاسترخاء المفاجئ » التى يحدث فيها

---

(١) *Flugel: «Humor & Laughter», in «Handbook of Social Psychology», t. II., p. 712.*

انتقال سريع من حالة الجد والتوتر إلى حالة اللهـــو والانطلاق . — أمّا فيما يتعلق بالميول الانفعالية والغرزية التى يتصل بهـا الضحك ، فإن معظم علماء النفس يميلون إلى حصرها فى الخوف ، والجنس ، والعدوان ، والإحساس بالانتصار أو التفوق . — فإذا ما انتقلنا إلى المجال الذهنى ، وجدنا أن الغالبية العظمى من الباحثين تقرر أن الضحك كثيرًا ما يتولّد عن المفارقات ، وعدم التمييز بين المتفقات والمختلفات ، والتأليف بين العناصر المتنافرة ، ووضع الشىء فى غير موضعه . . . الخ .

تلك هى أهمّ الاعتبارات التى تتلاقى عندها نظرات الباحثين ، وإن كان ثمة اختلاف بينهم حول مدى أهمية كل عنصر من العناصر التى أتينا على ذكرها ، فضلا عن أنهم غير متفقين حول طبيعة العلاقات الموجودة بين شتى هذه العناصر التى تدخل فى تكوين ظاهرتى الفكاهة والضحك . هذا إلى أن البعض منهم يأبى أن ينسب إلى الضحك معنى معينًا أو دلالة خاصة ، بل يذهب إلى أنه يخلق معناه الخاص فى عين اللحظة التى يحدث فيها ؛ وهؤلاء يربطون الضحك بالحرية البشرية فيقولون إن ضحكى حرّ ، وهو يعبّر عن اختيارى لنفسى باعتبارى « موجوداً لذاته » يشعر بأنه أسمى من « الموجود فى ذاته » (سواء كان هذا الموجود هو الماضى أو البدن أو العالم نفسه) . ولسنا بمعرض شرح هذه النظرية الوجودية فى الضحك ، ولـكن حسبنا أن نقول إنها

لا تريد أن تدرس « الضحك » باعتباره « موضوعاً » ، بل باعتباره سلوك « ذات » ، أعني باعتباره « فعلا » يقوم به الشخص الذى « يضحك » . وهذا ما عبّر عنه أحد الوجوديين حينما قال : « إننى لا أضحك بسبب حادث هو فى حدّ ذاته مضحك ، وإنما أنا أضحك وفقاً لمقصد خاص ، وإذْ أفعل هذا فإننى أجعل الحدث الذى أضحك بمناسبته يبدو لى هزلياً أو باعثاً على الضحك »[1] . وربما كان من بعض مزايا هذه النظرة إلى الضحك أنها تريد أن تفهم الظاهرة التى نحن بصددها فى ضوء الاتجاه العام للسلوك البشرى نفسه . فالوجوديون يأبون أن يربطوا الضحك ربطاً مباشراً بمجموعة من الموضوعات الطبيعية أو المواقف الموضوعية ، لأنهم يرون أن كل نوع من أنواع الضحك إنما يشتق صبغته الخاصة من المقصد المعين الذى تتخذه الذات بمناسبة ما يعرض لها من أحداث . حقا إن ثمة « ضحكا اصطلاحياً » أو عُرْفيًّا *Rire Conventionnel* يعبر عن اتجاه وجدانى أوّلى (أو قَبْلى) *Apriori* وهو الضحك الاصطناعى الذى يعد ضرباً من الغش أو الخداع (مادمنا نتصنع فيه أشياء ليست من الحقيقة فى شىء) ، ولكن ثمة ضحكا آخر يمكن أن نعدّه بمثابة الضحك الإنسانى الحقيقى ، ألا وهو ذلك الضحك

(١) *F. Jeanson : «Signification humaine du Rire», Paris, Seuil 1950, Ch. II. (Le Rire, phénomène intentionnel), p. 88 — & Ch. IV. (Le Rire et la liberté) pp. 148—197.*

الذى يعبّر عن مقصد الذات حين تريد أن تضع نفسها فى مستوى معين من المستويات ، أو أن تنسب إلى نفسها قيمة معينة من القيم ، كما يحدث مثلاً حينما نضحك فى مناسبة ما من المناسبات حتى نثبت لأنفسنا تفوقنا وسموّنا . وليس الضحك فى نظر الوجوديين مجرد فعل منعكس ، كما أنه ليس ثمرة لتصميم إرادى ، وإنما هو يقترن دائماً بضرب من « الغائية » *Finalité* التى تخلع عليه معناه ، والتى بدونها لا بد من أن يفقد كل صبغة إنسانية . وإذا كان البعض يتوهم أن الضحك ظاهرة تصاحب الانشراح وتترجم عنه فى مستوى مواز له ، فإن بعض الوجوديين يقرر أن المرء لا يضحك إلا لـكى يعرب عن انشراحه ، أو لـكى يوجِد هذا الإنشراح فى بعض الأحيان ، أعنى لـكى يصبح منشرحا بالفعل ! وهكذا يأبى الوجوديون أن يجيبوا على السؤال التقليدى: « لماذا نضحك ؟ » بكلمة « لأن » *(Parce que)* ، لـكى يردوا عليه بكلمة « لـكى » *Pour* . والفارق بين الإجابتين أن الأولى تنطوى على معنى « العلية » ، بينما الثانية تحمل معنى « الغائية[1] » .

١٨ — وثمة طريقة أخرى التجأ إليها بعض الباحثين فى دراسة الفكاهة والضحك ، فلم يهتموا بدراسة مثيرات الضحك أو ملابساته ،

---

(١) F. Jeanson : «Signification humaine du Rire», Paris, Seuil 1950, Ch. II (Le Rire, phénomène intentionnel), p. 88 — & Ch. IV. (Le Rire et la liberté) pp. 148—197.

وإنما قصروا جهودهم على استقصاء الطبيعة العامة للعمليات الذهنية التى تنطوى عليها ظاهرة الضحك . وهذا ما فعله مثلا ايزنك فى كتابه « أبعاد الشخصية » (الذى ظهر عام ١٩٤٧) ، حيث نجده يتخذ التقسيم الكلاسيكى للحالات الشعورية إلى حالات إدراكية ، ووجدانية ، ونزوعية ؛ فيحاول أن يظهرنا على ما فى ظاهرتى الفكاهة والضحك من عناصر عرفانية ، وانفعالية ، وإرادية ، مع اهتمامه فى الوقت نفسه بمراعاة التداخل القائم بين هذه العمليات النفسية الثلاث . وقد حاول ايزنك أن يصنف النظريات التقليدية فى تفسير الضحك ، بحسب نوع الجانب السيكولوجى الذى أكد كل باحث أهميته على حساب غيره من الجوانب ، فقال : إن الغالبية الكبرى من هذه النظريات تضغط بشدة على العناصر الإدراكية فى ظاهرة الضحك ، كعنصر المفارقة ، أو عنصر التباين بين الأفكار ، أو عنصر الخداع العقلى ... الخ . ويُدْخِل ايزنك فى عداد المفكرين الذين حرصوا على تأكيد الجانب الإدراكى فى الضحك شيشرون ولُوكْ وكَنْت وشوبنهور وسبنسر ولِبْس ورنوفييه وبرات ... الخ . أما أولئك المفكرون الذين يؤكدون أهمية الجانب النزوعى فى ظاهرة الضحك فإنهم يربطون الضحك بإشباع بعض الرغبات كالرغبة فى التفوق أو الاستعلاء أو الغرور أو ما شابه ذلك . وربما كان فى استطاعتنا أن ندخل فى عداد هؤلاء أفلاطون وأرسطو وهوبز

وهيجل ولامنيه وبرجسون وغيرهم . وقد حاول أحد الباحثين المحدثين — ألا وهو لودفتشى — فى كتابه « سر الضحك » أن يرد شتى مظاهر الضحك إلى علة أصلية واحدة ، فقال مع هوبز بأن الضحك « عزة فجائية تهبط علينا نتيجة لشعورنا بسمونا ورفعة شأننا ، إما بالقياس إلى الآخرين ممن هم فى حالة ضعف وقصور وضعة ، أو بالقياس إلى أنفسنا نحن فى حالة سابقة من حالات نقصنا وضعفنا وتخلفنا » . ويمضى هذا المؤلف فى تعليل الضحك ، فيقول بأنه تعبير عن ضرب سام من ضروب التكيُّف ، ثم يسوق لنا حوالى ٣٦ حالة يتولد فيها الضحك ، مبتدئا من الحالة التى تنشأ عن استنشاق غاز أوكسيد النتريك ، ماراً بحالات الدغدغة ، والانشراح المتولد عن السكر ، والعدوان ، وحالات عدم الاحتشام *Indecency* ، حتى يصل إلى حالات المحاكاة ، والتنكر ، والمفارقة ، والتورية . . . الخ . وكل وهذه الحالات — فى نظر الباحث المذكور — لا تخرج عن كونها مظاهر لما أطلق عليه اسم « التكيف السامى[١] » *Superior adaptation.*

أما المظهر الوجدانى للفكاهة والضحك فقد عنى بإظهاره بعض الباحثين ممن استرعت انتباههم المقومات الانفعالية والشحنات الوجدانية الكامنة فى ظاهرة الضحك . وهؤلاء الباحثون يربطون فى العادة بين

---

(١) *Cf. A. Ludovici: «The Secret of Laughter», London, Constable, 1932.*

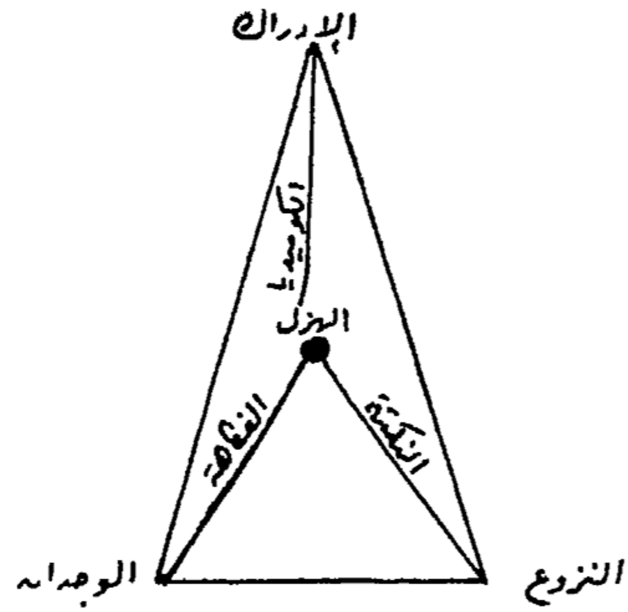
الضحك و بين السرور الخالص ، أو السرور الممتزج بانفعال آخر كانفعال الخوف أو الغضب مثلاً . وهناك قوم منهم يعدون التباين القائم بين العواطف بمثابة عنصر جوهري هام في صميم عملية الضحك . ويدخل في عداد هؤلاء ديكارت وهارتلي ومكدوجال وهوفدنج وغيرهم .

وقد حرص بعض الباحثين على تأكيد أهمية عدة جوانب مختلفة في الضحك ، فاهتم كل من ريبو ، وسلي ، وسنتيانا بجانبين من جوانب الضحك ، بينما أكد فرويد أهمية الجوانب الثلاثة معاً . وهكذا أكد فرويد أهمية الجانب « النزوعي » حينما قال إن ما هو هزلي *Comique* إنما ينشأ عن الاقتصاد في انفاق طاقة الكف أو المنع *Inhibition* ، ثم عاد فأكد أهمية الجانب « الوجداني » حينما عرف الفكاهة *humour* بأنها ظاهرة ترجع إلى الاقتصاد في العواطف ، بينما نراه يؤكد أهمية الجانب « الإدراكي » حينما يعرف « الهزلي » أو الكوميدي بأنه مظهر للاقتصاد في التفكير . ولكن نقطة الضعف في نظرية فرويد هي أنها تقوم على نظرية سبنسر ليبس *Spencer - Lipps* الآلية في « الاقتصاد » *économie* ، في حين أن هذه النظرية دخيلة تماماً على شتى آراء فرويد الأخرى ، كما لاحظ إيستمان *Eastman* بحق في كتابه « روح الفكاهة[1] » .

---

(١) *M. Eastman: «The Sense of Humor», New-York, Scribner, 1921.*

أما أيزنك فإنه يعرض علينا نظرية توفيقية يحاول فيها أن يوفق بين تلك الجوانب الثلاثة من ظاهرة الضحك ، موضّحا هذه النظرية برسم يمثل مثلثاً متساوى الضلعين على النحو التالى :—



وهنا يستعمل ايزنك كلمة « الهزل » بمعنى عام ، ويقول إن العناصر الإدراكية والوجدانية والنزوعية تدخل هى الثلاثة فى تركيب « الهزلىّ ». ولكن أثر أحد هذه العناصر الثلاثة قد يزيد عن أثر العنصرين الآخرين فى كل حالة من الحالات الخاصة ، فتقترب الدعابة فى هذه الحالة من الزاوية التى تمثل العنصر الغالب . ويطلق ايزنك بصفة عامة اسم « الفكاهة » ***humour*** على العنصر الوجدانى ، واسم « النكتة » ***wit*** على العنصر النزوعى ، واسم « السكوميديا » ***Comic*** على العنصر

الإدراكى . وهو يعترف بأن هذه التسميات لاتخلو من نقص ، ولـكنها توضح مع ذلك الجانب الغالب من بين المقوّمات الثلاثة للضحك (فى كل حالة من الحالات) . ولو أننا نظرنا إلى المثلّث الذى يبيّن علاقة الجوانب الثلاثة من الفكاهة بَعْضها بالبعض الآخر ، لوجدنا أن الجانبين الوجدانى والنزوعى أقرب فى علاقتهما الواحد بالآخر منهما بالجانب الآخر — ألا وهو الجانب الإدراكى — . وربما كان السبب فى ذلك براجع إلى أن ثمة تداخلاً بين هذين المظهرين من مظاهر الحياة النفسية ، خصوصاً فى مضمار الهزل حيث تمتزج الفكاهة بالنكتة(١) .

ولسنا نريد أن نتابع ايزنك فى تقسيمه لمقوّمات الفكاهة والضحك إلى عناصر وجدانية ، ونزوعية ، وإدراكية ؛ فإننا نعتقد أن بين هذه الجوانب الثلاثة من التداخل والتشابك والاتصال أكثر مما وقع فى ظن ايزنك ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد مع فلوجل *Flugel* بأن هذا التقسيم قد يعيننا إلى حدٍّ ما على تصنيف النظريات السيكولوجية العديدة فى تفسير الضحك ، أو هو قد يساعدنا على حصر الملابسات الكثيرة التى تقترن

---

(١) *cf. H. J. Eysenck: «Dimensions of Personality». London, 1947, Routledge & Kegan Paul. (trad. franç. sous le titre «Les Dimensions de la Personnalité», par Mme D. Mazé & Mme Bize, Paris, P. U. F, 1950, pp. 252—254.)*

فى العادة بهذه الظاهرة[١] . وإذن فنحن لا نريد أن نأخذ بالتقسيم الـكلاسيكى للحالات الشعورية إلى إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، وإنما كل ما هنالك أننا سنحاول الـكشف عن العناصر العرفانية ، والانفعالية والإرادية التى قد تدخل فى تـكوين المواقف الفكاهية ، مع بيان ما بينها من تداخل وَظَفِى وتفاعل دينامى . وسنبدأ فيما يلى بدراسة العنصر الوجدانى فى الضحك ، فإن الباحث الذى يحاول فهم هذه الظاهرة ، لا بد من أن يعنى بادئ ذى بدء بالجانب الانفعالىّ من الضحك ، باعتباره تعبيراً عن حالة الابتهاج أو الغبطة أو السرور[٢] .

---

(١) *Cf. Flugel: «Humor and Laughter»; in «Handbook of Social Psychology», Edited by G. Lindzey, Addison—Wisley Co, 1954, Vol. II., pp. 712 — 713.*

ولابد لنا فى هذا المقام من أن نعطى لـكل ذى حق حقه ، فنسجل اعترافنا بالجميل للأستاذ فلوجل الذى أفدنا من دراسته للفـكاهة والضحك الشىء الـكثير .

(٢) *Ch. Darwin: «The Expression of the Emotions in Man & Animals», London, Watts, 1943, Ch. VIII, pp. 98—99.*

الفصل السادس

العنصر الوجدانى فى الضحك

١٩ — حينما درسنا ظاهرة الضحك لدى الطفل ، فقد تبين لنا بوضوح أن الضحك يظهر لدى صغار الأطفال — بادئ ذى بدء — باعتباره تعبيراً عن اللذة أو السرور أو الانشراح . وليس من النادر أن نشهد لدى الكبار مثل هذا النوع من الضحك ، فقد يضحك الشخص البالغ حينما يستحم فى البحر ، أو حينما يهبط بسرعة من فوق جبل عالٍ تعصف به الرياح . . . الخ . والواقع أن ثمة ضحكا بدائيا لا يكاد ينفصل عن شعورنا بالراحة الجسمية أو الرفاهية العضوية ، بدليل أننا قد نبتسم أو نضحك لمجرّد شعورنا بلذة الحياة أو متعة البقاء . — وحينما تقوى فى نفوسنا حماسة الشباب وسَوْرتُه ، فقد نتمادى فى الضحك لمجرد إحساسنا بالفتوّة أو الشباب أو القوة الجسمية ! ولكننا مع ذلك قد لا نجد أى أثر لهذا الضحك البدائى لدى بعض القبائل البدائية أو الجماعات المتوحشة ، بدليل أن بعض الأقوام فى جنوب إفريقية كثيراً ما تستخدم الضحك وسيلة للتعبير عن الدهشة أو القلق أو التعجّب ، بل قد تعبر به عن شعورها بالحزن العميق فى بعض الأحيان . وأما عندنا نحن المتحضرين فقد عملت العوامل الحضارية عملها ، فأصبح للضحك من الدلالات

الاجتماعية والمعانى العقلية ما جعله يفقد مضمونه البدائى الأصلى ، وأصبحنا اليوم قلما نضحك للتعبير عن شعورنا بالرفاهية أو الراحة أو السعادة . هذا إلى أننا قد نجد لدى بعض الأفراد فى المجتمعات الحديثة والبدائية على السواء ، ضرباً من الضحك الذى لا يمكن اعتباره تعبيراً عن شعور حقيقى بالبهجة أو السرور ، ألا وهو الضحك الهستيرى (١) .

بيد أن هذا لا يمنعنا من أن نقرر أن الضحك هو فى جانب منه مظهر من مظاهر البهجة أو السرور أو الارتياح أو الانشراح . وحسبنا أن ننظر إلى البلهاء وضعاف العقول لكى نتحقق من أن الضحك عندهم إن هو إلاّ مجرد تعبير عن الشعور بالغبطة أو السعادة . والضحك عند البلهاء هو أكثر التعبيرات الانفعالية تردّداً ، لأن الأبله يضحك حين يُقدَّم إليه الطعام ، ويضحك حين يُداعَب ويُلاطَف ، ويضحك حين تُعْرَض على ناظرَيْه بعض الألوان الناصعة ، ويضحك أيضاً حين تُعْزَف على مسامعه بعض المقطوعات الموسيقية . . . الخ . ومعظم البلهاء لا يكادون يُعْمِلون فكرهم ، ولكنهم يشعرون باللذة ويعبّرون عن شعورهم هذا بلغة الابتسام أو الضحك . ولو شئنا أن نقسم الضحك الذى نحن بصدده هنا ، بحسب درجة عموميته ، لَقُلْنا إن ضحك السرور

---

(١) *Cf. K. Young : « Personnality & Problems of Adjustment », London, Kegan Paul & Routledge, 1952, 2'ed., p. 66.*

قد ينبعث عن حالة انشراح عامة ، أو هو قد يحدث بفعل مؤثّر سارّ من نوع خاص ، أو نتيجة لموقف اجتماعىّ ملائم يبعث على الشعور بالارتياح . وليس من السهل فى كثير من الأحيان أن نميّز بين الحالتين السابقتين : لأن من شأن حالة « الانشراح » العامة فى بعض الأحيان أن تجعلنا نتقبل بسرور بعض المؤثرات أو المواقف التى لم نكن نأبه بها فى العادة ، أو التى لم نكن نجد فيها أية لذة فى ظروف أخرى هذا وقد لاحظ دارون أنه ليس ثمة موضع للتمييز بين حالات السرور وعواطف المشاركة لدى القردة العليا ، فإن انفعال السرور عند الحيوان كثيراً ما يقترن بانفعال آخر أو عاطفة أخرى تولّدها فى نفسه المشاركة الوجدانية أو التعاطف . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه الملاحظة تصدق أيضاً على بنى البشر ، فإننا حينما نحبّ شخصاً قد نجد لذة كبرى فى مصاحبته والاستمتاع بحضرته ، و بالتالى فإن انفعال السرور عندنا قد يسير جنبا إلى جنب مع عاطفة الحبّ أو المشاركة الوجدانية .

٢٠ — وليس العنصر الوجدانى الوحيد الذى يدخل فى ظاهرة الضحك هو عنصر الارتياح والانشراح أو الغبطة والسرور ، بل هناك عنصر وجدانى آخر قد لا يقل عنه أهمية ، ألا وهو عنصر اللهو والمرح والتسلية واللاواقعية ... والواقع أننا لو نظرنا حتى إلى ظاهرة « الدغدغة » نفسها ، لوجدنا أنها تنطوى على عنصر لهو أو لعب ، مما دفع بعض

الباحثين إلى القول بأن فى كل المواقف الفكاهية على اختلاف أنواعها « عنصر لهو » واضح من شأنه أن ينأى بالإنسان عن حياة الجد والواقعية والنشاط الغائىّ — وقد استعرض بدنجتون *Piddington* كل الملابسات الباعثة على الضحك لدى صغار الأطفال ، فاستطاع أن يتبيّن أنها جميعا تنطوى على عنصر سارّ مشوّق ، وأنها لا تتطلب أية استجابة نوعية سريعة من جانب الجهاز العضوىّ . والظاهر أن انعدام الجدية فى حالة الضحك ، بسبب انعدام الحاجة البيولوجية الملحة ، هى الخاصية العامة المميّزة لشتى المواقف الفكاهية . وهذا ما لاحظه فرويد حينما قال إن المواقف الفكاهية ، مثلها فى ذلك كمثل حالة اللهو أو اللعب ، تقوم دائما على « مبدأ اللذة » *Pleasure Principle* ، وتكاد تخلو من كل أثر من آثار الواقع الجدىّ المتجهّم . — أما حينما يتغير الموقف فتتخذ المسألة صبغة جدية تستلزم مواجهة بعض المشكلات الهامة الملحة ، فهنالك يمتنع الضحك (إذ تصبح المسألة — كما نقول — مما لا يحتمل الدعابة أو الهزل) . وهكذا لا تلبث حالتنا النفسية أن تتغير تماما ، فتتحول طاقتنا التى كانت مستوعبة بتمامها فى الضحك ، لكى تتجه نحو مسلك آخر يكون أكثر واقعية وأظهر نفعية . — والحق أن الصبغة اللاواقعية المميّزة للفكاهة هى مما يتجلى بوضوح فى شتى أنواع الدعابة والمزاح ، ابتداء من حالات الطرب والانشراح *Hilariousness* التى نلتقى فيها

بأشخاص لا يكادون يعيشون فى دنيا الناس بما فيها من تبعات وآلام ، وكأنما هم فى حلم ، مارّين بحالات التفكه والدعابة والتوريات والألاعيب اللفظية والفكاهات السخيفة ، حتى نصل فى خاتمة المطاف إلى « الفكاهة » الراقية التى تنطوى على إنكار للواقع — بالمعنى الدقيق الذى نسبه إلى هذه الكلمة (كلمة *Humour*) فرويد وغيره من علماء النفس — .

ولو أننا أنعمنا النظر فى الموقف الفكاهى بصفة عامة ، لتبين لنا بوضوح أن الوظيفة الأولى التى يقوم بها إنما هى تخفيف أعباء الواقع عن كواهلنا ، وتخليصنا — إلى حين — من بعض تبعات الحياة اليومية الجدية . وهذا فولتير — الفيلسوف الفرنسى الساخر — يؤكد أهمية الضحك فى هذا الصدد فيقول : « لو لم تَبْقَ لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم ؛ فويل للفلاسفة الذين لا يبسطون بالضحك تجاعيدهم ، لأن العبوس فى نظرى مرض عُضال » ! . والحق أن اللذة الكبرى التى يجدها المرء فى الفكاهة والضحك إنما ترجع فى الجانب الأكبر منها إلى هذا الشعور بالتحرر من الواقع والتحلُّل من الحياة الجدية ، عن طريق الهزل والتفكّه والمزاح . — ونظراً لما فى المواقف الفكاهية من إنكار للواقع أو تجاهل له ، فقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة تقوم فى حياتنا النفسية بدور أو وظيفة تشبه إلى حدّ ما وظيفة اللاشعور

(على نحو ما يتبدى في الأحلام — مثلاً — أو في الأعراض العُصابية) ؛ وهذا ما قرره فرويد نفسه في دراسته للنكتة وعلاقتها باللاشعور[١]. — هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فإنه لما كان اللهو واللاواقعية هما من أخصّ خصائص العقلية الصغيرة غير الناضجة — أعني عقلية الطفل الذى لم يكتمل بعد نضجه النفسى والعقلى — فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فى المواقف الفكاهية — على اختلاف أنواعها — شيئا من النكوص أو الارتداد نحو مرحلة سابقة من مراحل النموّ ، وكأن البالغين يريدون عن طريق الضحك أن يعودوا إلى طفولتهم المبكرة ، حتى تسقط عنهم تبعات الحياة الجدية ، وترتفع عنهم مشاغل المعيشة العادية . — ولكن الفكاهة تختلف عن الأحلام والأعراض العُصابية فى أنها لا زالت تحت ضبط الإرادة ، لأن الذات الشاعرة فى حالة الضحك لم تُغلَب على أمرها ولم تُحوَّلْ عن طريقها ، بل كل ما هنالك أنها تسمح لنفسها عندئذ بضرب من الاسترخاء *relaxation* ، حتى تتخلّص — إلى حين — من الضغط الثقيل الذى يفرضه عليها الواقع بتبعاته الجسام . ومن هنا فإن للفكاهة — فى نظر كثير من الباحثين — طابعا سويًّا صحيًّا ، باعتبارها وسيلة نافعة للتهرب وقتيا من بعض مشاغل الحياة وهمومها العادية . وهذا ما عبّر عنه الباحثان

---

(١) *cf. S. Freud: «Wit and Its Relation to the Unconscious», New-York, Moffat Yard, 1916.*

الأمريكيان ستانلى هول (Stanley Hall) وألِنْ (Allin) حينما كتبا يقولان : « إن العالم الواقعى ليصبح [فى لحظة الضحك] وكأنْ لا وجود له ، أو كأنما هو قد أصبح نَسْيا منسيًّا ؛ وأمّا شعورنا بوجود غيرنا من الناس بما لهم من صفات ، فهذا أيضاً لا يلبث أن يزول ؛ وهكذا لا تعود أُذُنا الموجود تسمعان سوى الموضوع المضحك وحده ، ولا تعود عيناه تشهدان سوى ذلك الشيء الذى استثار ضحكه . وينسى المرء كل همومه وآلامه ، بل وحتى أوجاعه الجسمية نفسها ، لـكى يعود بعقله آلاف السنين إلى الوراء فيجد نفسه فى لحظة سريعة خاطفة ، فى العهد الذهبىّ الأول للإنسانية ! » . ويعلّق لالو على هذه العبارة بقوله : « أجل ، فإن الحياة هى الفردوس المفقود ، وأما الضحك فهو الفردوس المستعاد أو المَرْدُود » ![1] *Le Paradis Retrouvé* .

. . . لقد كان فولتير يقول إن السماء قد أرادت أن تعوّضنا عن بعض ما ابْتلتْنَا به من محن فى هذه الحياة ، فمنحتنا الأمل *L'espérance* والنوم *Le sommeil* ؛ ولـكن كَنْت يعلّق على هذه العبارة فيقول : « إنه ما كان أحرى فولتير بأن يضيف إليهما الضحك *Le Rire* »[2].

---

(١) *Cf. Ch Lalo: «Esthétique du Rire», Flammarion, 1949, p. 95.*

(٢) *E. Kant: «Critique du Jugement», traduit par Gibelin, Vrin, 1951, p. 151.*

والواقع أن الضحك إذ يلقى على الواقع ستار اللاواقعية *L'irréalité* ، وإذ يرفع عن هموم الحياة مافيها من جدية *sérieux* ، فإنه يهون على الإنسان عبء الحاضر ، ويعدّه لمواجهة المستقبل بروح البشر والترحاب . ولا نرانا فى حاجة إلى أن نؤكد ما للضحكة من فعل سحرىّ فى شفاء النفس ، فإن التجربة نفسها لتدلّنا على أننا نستطيع بالابتسام والضحك أن نأخذ من الحياة أكثر مما نستطيع أخذه بالتقطيب والعبوس . وقد روى لنا أحد الأطباء النفسانيّين أن سيدة عقيمًا كانت تتردّد على عيادته ، وكانت لفرط يأسها وقنوطها قاب قوسين أو أدنى من المرض العقلى . ولم ينجح الطبيب فى علاجها عن طريق التحليل النفسى ، فاتفق معها على أن تروى له قصة مضحكة كلما جاءته للزيارة . وكان تنفيذ هذه الخطة عسيراً فى البداية ولكن السيدة أخذت تجد فيها رويداً رويداً شيئاً من اللذة . وقبل أن ينتهى علاج تلك المرأة على هذه الطريقة ، كانت المريضة قد ولعت بجمع الحكايات وبرعت فى روايتها . وهكذا ردّت الفكاهة إليها بشاشتها وسعادتها .

هذا وقد لاحظ لوس *F. M. Loos* فى دراسته لعلاقة « روح الفكاهة » ببعض المتغيرّات فى الشخصية ، أن أولئك الذين يتمتعون بحسّ فكاهى يجىء ترتيبهم فى العادة متأخّرا نسبيًا فى سلّم الأشخاص المعرّضين للأمراض النفسية . — ومهما يكن من شىء ، فإن طابع اللهو أو اللاواقعية الذى تتميّز به المواقف الفكاهية يكاد

يكون هو الإطار الثابت الذى يكمن من وراء شتى الخصائص والميّزات الأخرى للفكاهة والنكتة . وسواء أكان هذا الطابع طبيعيًّا تلقائيًّا ، أم اصطناعيًّا تعويضيًّا (هروبيًّا *Escapist* كما نقول أحياناً) فإنه لا بدّ من أن يكون ماثلاً فى جميع الحالات كخاصية أساسية تميّز كلاً من الفكاهة والضحك[١] .

٢١ — أما إذا حاولنا الآن أن ندرس العلاقة بين الضحك والانفعال ، فإننا سنجد أن بعضاً من الباحثين — وفى مقدمتهم برجسون — يصرّون على القول بأن العدوّ الأكبر للضحك هو الانفعال *Emotion* . ومعنى هذا أن الضحك — فى نظر هؤلاء — هو ظاهرة إدراكية تقترن بانعدام الحساسية الوجدانية ، لأن الوسط الطبيعى الذى تنمو فيه إنما هو « اللامبالاة » أو « عدم الاكتراث » . ويستطرد برجسون فيقول إننا لو تصوّرنا مجتمعاً يتألف من عقول محضة ، لما كان فى استطاعتنا أن نتصوّر أهل هذا المجتمع وهم يبكون ، ولكن من المؤكّد أنهم سيعرفون الضحك ! والواقع أن الشخص الذى يشغل نفسه بكل ما يحدث من حوله ، والذى يشارك غيره أفكارهم وأفعالهم وعواطفهم ، سرعان ما يعتاد أن ينسب قيمة إلى أتفه الأحداث ، وسرعان ما يجد نفسه مضطرًّا إلى أن ينظر إلى كل ما فى الوجود نظرة

(١) *Flugel:«Humor & laughter», in«Handbook of Social Psychology», Vol. II., 1954, p. 714.*

جدية . وأما الشخص الذى يقف من الحياة والمجتمع موقف الناظر المتأمّل ، فإن كثيراً من الأحـداث الدراماتيكية التى تقع تحت ناظريه سوف تظهر له بمظهر الـكوميديا المضحكة . وحسبنا أن نسدّ آذاننا عن سماع أنغام الموسيقى ، لـكى يبدو لنا الراقصون فى حلبة الرقص بمظهر موجودات هزلية تبعث على الضحك والسخرية ! وهكذا يقرر برجسون أن الشرط الضرورى الذى يتطلبه الحـدث حتى يكون كوميدياً ، إنما هو أن نُخدِّرَ قلوبنا إلى حين . والسبب فى ذلك — على حدّ تعبير برجسون نفســه — هو أن الشىء الهزلىّ أو المضحك إنما يخاطب العقل المحض(١) .

ويتابع بعض الباحثين المعاصرين برجسون فى فهمه للعلاقة بين الضحك والانفعال ، فيقول مارسل پانيول — مثلاً — إن ثمة عاطفتين أساسيَّتين من شأنهما حتما أن توقفا الضحك ، ألا وهما الشفقة والخوف . ويشرح پانيول نظريته فيقول إن الشفقة حينما تستولى علينا لتعاطفنا مع موجود بشرىّ حلت به نـكبة ، فإن من المؤكد أنها لا بدّ من أن تضع حدًّا لانفعال الضحك الذى قد يستولى علينا فى ظروف أخرى حينما نفرح لما يلمّ بخصمنا من محن ، أو لما يحلّ به من نـكبات . حقا إن الحدود التى تفصل الضحك عن الشفقة هى حدود ملتبسة غير واضحة ، ولـكن

(١) *H. Bergson : «Le Rire», P.U.F., Paris, 69e éd., 1949, pp. 3–4.*

الشفقة والضحك هما فى العادة خَصْمان يتناوبان حياتنا الوجدانية واحداً بعد الآخر . أمَّا الخوف فهو الانفعال الكفيل بخنق الضحك فى سرعة البرق ، لأننا ما نكاد نشعر بضعفنا وقصورنا ، حتى نكف فى الحال عن الضحك . وحينما يجد المرء نفسه فى مأزق حرج ، فإنه سرعان ما يتجهّم ويقطّب جبينه ؛ وهذا هو الموقف الذى يعبّر عنه الفرنسيّون أحياناً بقولهم : « أقسم لك يا صديقى بأنه لم تكن لدىّ عندئذ أية رغبة فى الضحك » ![١] فالشخص الذى يشعر بالخوف ، لأنه يحسّ بضعفه أو عجزه عن مواجهة الموقف ، قلّما ينفجر ضاحكاً . . . وهكذا يَخْلُص بانيول إلى القول بأن الضحك يتوقَّف حيث يبدأ الخوف أو الشفقة[٢] .

وأما مكدوجال فإنه يذهب — على العكس من ذلك — إلى أن العلاقة وثيقة بين الضحك من جهة والتعاطف أو المشاركة الوجدانية من جهة أخرى : لأنه لما كان للانفعالات الرقيقة دور هامّ فى صميم حياتنا النفسية ، فقد اخترعت الطبيعة حيلة بيولوجية هى « الضحك » تقينا بها آثار الشفقة البالغة والتعاطف الزائد ، ممّا كان يمكن أن نتعرض له بسبب ما لدينا من قدرة على التأثر الانفعالى والمشاركة الوجدانيـــة لآلام

---

(١) نص العبارة بالفرنسية : *«Mon vieux, je te jure que je ne rigolais pas.»*

(٢) *Marcel Pagnol : « Notes Sur Le Rire », Paris, Nagel, 1947, pp. 113—119.*

الآخرين . فالضحك هو ضرب من المناعة النفسية التى تحول بيننا وبين التأثر بما يعرض للغير من مصائب صغرى ونكبات بسيطة مما نشهده حولنا فى كل لحظة ، وما قد نجد أنفسنا مضطرين — بحكم كوننا كائنات اجتماعية — إلى أن نشارك فيه ونأخذ بقسط منه . ومعنى هذا أن الضحك — فى نظر مكدوجال — استجابة للألم لا للسرور ، نظراً لأن مفتاحه هو المواقف التى تسبّب لنا الضيق أو الكرب أو الألم إن لم نضحك . فنحن نضحك حتى نخفف عن أنفسنا أعباء الانفعالات الرقيقة والتأثرات الوجدانية البالغة وعواطف الشفقة المفرطة . ومن هنا فإنه لا بدّ من التفرقة بين الابتسام والضحك : لأن الأول منهما ردّ فعل للسرور ، بينما الثانى ردًّ فعل للألم . وقد يقوم الضحك بوظيفة تعويضية كما هو الحال مثلاً حينما نضحك لما مُنينا به من فشل أو تعثر ، أو كما يحدث أحياناً حينما نجد أنفسنا بإزاء موقف مهين لكرامتنا أو معرقل لحركتنا أو معطّل لنشاطنا . — وحينما تضحك سيّدة أنيقة على أثر انزلاق قدمها فى الطريق العام واتساخ ثوبها بالغبار أو إصابة وجهها برذاذ من الوحل ، فإن من المؤكد أن ضحكها فى هذه الحالة هو ضرب من « التعويض الراقى » (على حدّ تعبير لودفتشى *Ludovici*) الذى تستلزمه ضرورة مواجهة مثل هذا الموقف ، وإن كان مكدوجال يضيف إلى ذلك أن الإطار العام للضحك هنا هو الضيق أو الهمّ أو الكرب *Distress* ، إذ لو لم تضحك تلك السيدة لانفجرت باكية

أو لنهضت ساخطة لاعنة ! — وهكذا نرى أن مكدوجال يطرح الرأى القائل بأن الضحك هو تعبير عن اللذة أو السرور ، لـكى يقرر أن الشيء المضحك — على العكس من ذلك — ليس بالموضوع السارّ ، و إنما هو موضوع لو لم نستجب له بالضحك لسبَّب لنا الضيق أو الألم . فالوظيفة الأساسية للضحك هى وقايتنا من آلام المشاركة الوجدانيــة التى قد تترتب على تأثرنا بمصائب الغير على نحو ما نتأثر بمصائبنا الشخصية . والنظرية الحقيقية فى تفسير الضحك إنما تتلخص فى هذه العبارة ، ألا وهى أن الضحك هو الترياق الواقى من التعاطف أو المشاركة الوجدانية[1] .

ولو أننا رجعنا إلى شهادة أصحاب الفــكاهة وأهل النـكتة ، لوجدنا أنهم يشتركون مع مكدوجال فى تقرير وجود علاقة بين الضحك والألم ، أو بين المواقف الفــكاهية والمأساة أو الدراما . وهذا شارلى شابلن نفسه يقول : « إن الناس ليتعاطفون معى بحق حينما يضحكون : فإنه ما يكاد الطابع التراجيدى لأى حدث يزيد عن الحدّ ، حتى يصبح الموقف بأ كمله باعثاً على الضحك » . ومعنى هذا — كما قال مكدوجال تماماً — أن الضحك يجىء فى الوقت المناسب ، حتى يهبنا شيئا من المناعة ضد تلك الجرعة الزائدة من الألم أو المأساة ! ويقول والت دزنى

---

(١) *W. Mc Dougal : « An Outline of Psychology », Methuen, 1923, London, pp 165—170*

Walt Disney : « إن الناس كثيراً ما يتعاطفون حين يضحكون . والملاحظ أنه لما كان من دأب الأطفال أن يتعاطفوا بشكل مبالغ فيه ، فإنهم قد يجدون أنفسهم مضطرين فى بعض الأحيان إلى أن يغلقوا أعينهم حينما يكونون بإزاء بعض المواقف المروّعة »(١) . ولكننا فى هذه الأمثلة لسنا إلاّ بإزاء انتقال من الضحك إلى التعاطف ، لا العكس . — فإذا ما تساءلنا عن السبب الذى من أجله قد نضحك عند رؤيتنا لبعض الأحداث الساديّة الوحشية التى نشهدها فى الرسوم المتحركة (ممّا قد يولّد لدينا الشعور بالخوف أو الهول أو الفزع أو على الأقل التأثر والتعاطف فى الظروف العادية) ، وجدنا أن السرّ فى ذلك هو أننا نعرف جيدا أننا لسنا بإزاء مخلوقات حقيقية وآلام واقعية ، بل نحن فى موقف « لهو خالص » أو « تسلية صرفة » ، بدليل أن سلوك الشخصيات الماثلة فى تلك الرسوم المتحركة سرعان ما يدلّنا على أنه لم يلحق بها أى ضرر أو لم يصبها أى أذى ! وقد يتصوّر الطفل لأول وهلة أن الحيوان المسكين الذى سقط من علوّ شاهق — فى أحد أفلام والت دزنى — لا بدّ من أن يكون قد تهشم ومات ، فإذا به يراه ينهض بسرعة أمام ناظريه لكى يواصل حركاته البارعة فى خفة ونشاط !

---

(١) *Cf. R. Ghosh : « An Experimental study of humor. » ; London University, 1939. — Abstract in « British Journal of Educ. Psych. », 1939, IX, 98. —*

وهكذا لا يملك الطفل فى مثل هذه المواقف سوى أن يضحك لتلك المفاجآت السريعة التى تنتقــل به من التعاطف إلى الضحك ، وبالعكس . . .

ولو أننا أنعمنا النظر فى هذا النوع من الضحك الذى ترتبط فيه الفكاهة بالتعاطف أو المشاركة الوجدانية ، لوجدنا أنه لا يتوقف على أى تغيّر فى الموقف الخارجى ، بل هو يتوقف على اتجاهنا الوجدانى أو حالتنا النفسية . وآية ذلك أن الموقف الخارجى قد يبقى على ما هو عليه ، كما فى حالة السيدة التى زلت قدمها فوقعت على الأرض فى الطريق العام ، وأدى وقوعها إلى اتساخ ردائها بالغبار وإصابة وجهها برذاذ الوحل . فهنا نجد أنه لاسبيل إلى تغيير الموقف الناجم عن سقوط تلك السيدة : لأن رداءها قد اتسخ بالفعل ولم يعد لها حيلة فى ذلك ، وإن كان فى وسعها عن طريق الاتجاه الوجدانى أو الحالة النفسية أن تستخف بهذه الكارثة البسيطة أو أن تهوّن من شأن تلك المصيبة الصغرى ! وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى كثير من المواقف الأخرى التى قد يظل فيها عنصر المأساة أو الإهانة أو الخطورة أو الجدية على ما هو عليه ، وإن كان فى وسعنا عن طريق الضحك أن نزود أنفسنا فى مثل هذه الأحوال بضرب من « المناعة النفسية » التى تجعلنا نستخف — ولو إلى حين — بما يترتب على الموقف من آثار سيئة . وأما حينما نعجز عن مواجهة ما يعرض لنا من أحداث سيئة بمثل هذه « الآليات الدفاعية » التى

تنطوى على عنصر الفكاهة والسخرية والاستخفاف ، فإننا نظل متأثرين بجدّية الموقف ، وتكون استجابتنا بعيدة كل البعد عن التسليم بالأمر الواقع أو العمل على تقبله بروح الاستخفاف (١) .

وكثيراً ما يواجه الإنسان مواقف الخوف والقلق والهلع بأن ينفجر ضاحكا . وفى مثل هذه المواقف تظهر بوضوح أهمية كل من العوامل الداخلية والخارجية ؛ وذلك لأنه حينما يضحك الإنسان لمواجهة المواقف الخطيرة التى يتعرض لها ، فإنه بلاشك إنما يحاول عن طريق الضحك أن يرفع من روحه المعنوية أو أن يعمل على تقوية حظه من الشجاعة . وهناك حالات أخرى قد يضحك فيها الإنسان لمجرد أنه استطاع أن ينجو من خطر محقق ، أو أن يهرب فى اللحظة الأخيرة من موت محتوم . وكثيراً ما ينفجر الجنود (فى الخطوط الأمامية) فى ضحك شبه هستيرى ، على أثر انفجار بعض القنابل على مقربة منهم ، وتسببها فى قتل عدد من زملائهم ! وقد روى لنا أحد الباحثين الإنجليز كيف أن سيدة طاعنة فى السنّ ، خرجت ترقص ضاحكة فى الشوارع ، على أثر انفجار قنبلة شديدة أطاحت بالمنزل المجاور لمسكنها ، فكانت تقهقه بصوت مرتفع وهى تقول : « لقد أصبحنا الآن فى الخطوط الأمامية ؛ أجل ، لقد أصبحنا الآن فى الخطوط الأمامية » !

---

(١) *Flugel : « Humor & Laughter » ; in » Handbook of Social Psychology Vol. II., pp 715—716*

ولـكننا ما نكاد نتحدث عن هذا النوع الأخير من الضحك ، حتى نجد أنفسنا قد تجاوزنا العنصر الوجدانى المحض ، لـكى نتعرض للحديث عن العنصر النزوعىّ الذى يتخذ فيه الضحك دور « الآليات الدفاعية » . والواقع أن الاتجاهات الوجدانية قد تلعب فى حياتنا النفسية دور « الآليات الدفاعية » ، فليس بدعا أن نجد فرويد وغيره من الباحثين يتحدثون عن نوع من الفكاهات فيه تنظر الذات إلى همومها العادية ومشاغل حياتها اليومية بشىء من التحرّر الرواقى والاستخفاف الهزلىّ . وسنرى فيما يلى كيف يمكن أن ترتبط الفكاهة ببعض حالات الخوف والقلق والحصَر النفسى على نحو خاص ، وكيف يؤدّى الضحك فى مثل هذه الأحوال دور « إنكار الواقع » والسموّ بنا نحو آفاق « الأنا الأعلى » .

الفصل السابع

العنصر النزوعيّ فى الضحك

٢٢ — رأينا من قبل كيف حاول هربرت اسپنسر أن يفسّر السبب الذى من أجله يعبّر السرور عن نفسه بلغة الابتسام والضحك ، بقوله إن للسرور طابعاً ديناميكيا يجعل منه طاقة زائدة لابدّ من أن تلتمس لها بعض المنافذ . ومعنى هذا أن اسپنسر قد وجد فى « الضحك » مخرجا نافعاً تفيض عَبْرَه قوتنا العصبية الزائدة التى لو ظلّت حبيسة لكانت مصدر خطر كبير على حياتنا النفسية . ولكن إذا كان اسپنسر قد حرص على تأكيد عنصر « إطلاق الطاقة » الذى يتمّ عن طريق حالة الانشراح العامّ *Euphoria* ، فإن ثمة باحثين آخرين قد عُنوا ببيان وظيفة الضحك باعتباره وسيلة للإفراج عن بعض الطاقات الجزئية التى كانت قد عُبِّئت لمواجهة موقف جديّ ، ثم زال الخطر على حين فجأة ، أو تبدل الموقف نفسه بما لم يكن فى الحسبان ، إما لأسباب خارجية ، أو لأننا أنفسنا لم نلبث أن تحققنا من أن الأمر لم يكن من الخطورة بما وقع فى ظننا . وليس من اليسير عمليًّا أن نفرّق بين حالات «الانطلاق» الكلية العامة ، وحالات « الانطلاق » النوعية الخاصة ، لأن المرء قد يكون بإزاء موقف تتم فيه عملية تحرير الطاقة نتيجة لظرف

خاص مؤقت ، أو هو قد يمرّ بفترة طويلة من العنت والإرهاق تعقبها على حين فجأة حالة تفريغ للطاقة المكبوتة (كما يحدث مثلاً حينما يندفع بعض التلاميذ إلى الطريق العام فرحين متهللين لخروجهم من المدرسة) ، أو هو قد يجد فى الضحك شيئا من التحرّر الوقتى من أسر بعض مظاهر الكبت أو القمع الواقعة عليه بصفة شبه مستمرة (كما فى حالة النكات الموجهة ضد بعض المواضعات الاجتماعية أو القيود الثقيلة المفروضة على الناس نتيجة لبعض الظروف الاقتصادية أو السياسية . . . الخ) ، أو هو — أخيراً — قد يشعر بانطلاق الطاقة نتيجة لحالة سرور عامة أو لشعور غامض بالسعادة . — ونحن نلاحظ أن الباحثين الذين يؤكدون عنصر « تفريغ الطاقة » نتيجة لحالة « الانشراح العام » يسلّمون أيضا بوجود حالات نوعية خاصة قد يتم فيها ضرب من التحرّر الجزئى للطاقة عن طريق بعض المواقف الفكاهية العارضة . وهذا ما قرره اسپنسر نفسه حينما ذهب إلى أن عنصر « المفارقة » *Incon grutty* قد يتدخل على حين فجأة فى موقف ما من المواقف ، فيهبط به من مستوى جدىّ رفيع ، إلى مستوى هزلىّ وضيع ، وعندئذ لا تلبث الطاقة المعبّأة التى لم تعد لازمة لمواجهة الموقف الجديد أن تنطلق عن طريق الضحك . — ومهما يكن من شىء ، فإن عنصر إطلاق الطاقة — سواء أكان فجائيا أم غير فجائى — هو العنصر الغالب الذى يكاد يميّز جميع أنواع الفكاهة ، بحيث قد لا نكون مغالين

إذا قلنا إنه لا يقل أهمية وعمومية عن صفة اللهو أو اللاواقعية التى سبق أن قلنا إنها قلّما تنفصل عن الموقف الفكاهى بصفة عامة .

بيد أن الاعتراف بأهمية هذا العنصر لا يلبث أن يقودنا — كما لاحظ فلوجل — إلى إثارة مشكلة هامة ، وتلك هى مشكلة الوقوف على الطبيعة الدفينة لشتى الانفعالات ومظاهر الإجهاد العقلى التى تنطلق حينما تجد لها منفذاً عبر الفكاهة والضحك . وهنا نجد أن بعضاً من المفكرين قد حاول أن يحل هذه المشكلة بالرجوع إلى ميل أصلى واحد ، أو انفعال رئيسى قائم بذاته ، يفسر عن طريقه عملية «تفريغ الطاقة» . ولكن ربما كان الأدنى إلى الصواب أن يقال إن أى ميل انفعالى — كائنا ما كان — يمكن أن يندمج فى الموقف الفكاهى ، فيولّد لدينا استجابة الضحك ، كما لاحظ برت *C. Burt* فى بحثه الموسوم باسم « سيكولوجية الضحك » . وهكذا قد يكون فى وسعنا أن نميّز بين ضروب مختلفة من الضحك ، تبعاً لنوع الانفعال الذى ينطلق أو يتحرّر عن طريق الموقف الفكاهى . فانفعال الغضب والخصام يولّد الفكاهات العدوانية والنوادر التهكّميّة والدعابات الساخرة ، والشعور بالنقص يثير بعض النوادر الخفيفة التى تتسم بطابع الحياء والخجل ، والميول الجنسية تعمل على ظهور النكات الماجنة المقترنة بالتعبيرات الفاضحة أو التلميحات الرمزية ، والتقزّز يؤدّى إلى ظهور ضرب من المجون الرابلى (نسبة إلى

الكاتب الفرنسي رابليه)[١] ، وبعض النكات البذيئة التي تدور في معظمها حول موضوع « الإخراج »[٢] . واذن فإن طابع الفكاهة يتوقف على نوع الميل الذي تحرّره ، أو طبيعة الانفعال الذي تطلقه ؛ وبالتالي فإن الفكاهات تختلف فيما بينها بحسب نوع الوظيفة النفسية والاجتماعية التي تؤديها في حياتنا كأفراد وجماعات . ومن هنا ، فقد يكون من الأهمية بمكان — بالنسبة إلى الباحث الذي يتصدّى لدراسة الفكاهة والضحك — أن يعنى باستقراء الشحنات الانفعالية المختلفة التي تطلقها الفكاهة في شتى صورها ، بدلا من أن يقتصر على تقرير أهمية عنصر واحد من عناصر الضحك ، أو جانب واحد من جوانب الفكاهة .

٢٣ — وربما كان أهم ميل من الميول التي ينطوي عليها العنصر النزوعيّ في الفكاهة والضحك هو الميل الذي عبّر عنه توماس هُوبْز حينما قال بأن الأصل في الضحك هو شعورنا بالتفوّق أو الاستعلاء أو الامتياز . وقد تردّدت هذه النظرية من بعد عند ديكارت واسْبينوزا وبودلير واستندال وبينْ *Bain* وجروس *Groos* ومارسل پانيول *M. Pagnol* وغيرهم . وقد سبق لنا أن أشرنا فيما تقدّم إلى الرأي الذي ذهب إليه لودفتشي *Ludovici* حينما ارتأى أن في الضحك شيئاً من الغدر أو التشفّي من الآخرين . وقد قرّر هذا الباحث أيضاً أن

---

(١) *Rabelais* (١٤٩٤ — ١٥٥٣)

(٢) أي النكات المتعلقة بالغائط أو البراز *Scatological.*

الشعور بالتفوّق الذى يقترن بالضحك كثيراً ما يكون مجرّد « محاولة تعويض » يُراد بها تغطية خوفنا من التعرض لحالة « الدونية » أو « النقص » ، كما يحدث مثلاً حينما نجد أنفسنا فى موقف مهين يدعو إلى السخرية ، فنضحك على سبيل الدفاع عن النفس . أما مارسل بانيول فإنه يقول : « إن الضحك إنما هو نشيد انتصار ، لأنه تعبير عن استعلاء وقتىّ يكتشفه فى نفسه على حين فجأة ذلك الشخص الضاحك حينما يتحقق من تفوّقه على الشخص الذى يسخر منه[١] » . و يعود بانيول فيقسّم الضحك إلى نوعين : « ضحك إيجابى » *Rire Positif* يقرر أنه هو الضحك الحقيقىّ ، الصحىّ ، المنعش ، المقوّى ، وهذا هو الضحك الذى ينبعث عن شعور المرء بتفوّقه على خصمه أو على جماعته أو على العالم كله ، أو على نفسه ؛ « وضحك سلبىّ » *Négatif* يقرر أنه ضحك حزين متجهّم غليظ القلب ، وهذا هو الضحك المتولّد عن شعور المرء بنقص الآخر أو ضعفه أو ضَعَته ، أعنى أنه ضحك الاحتقار أو الازدراء أو الانتقام أو التشفّى . و بين هذين القطبين النائيين يقع « الضحك المكتمل » الذى هو مزيج من النوعين السابقين ، وفيه يضحك « الإنسان » من كل قلبه ، بل بنفسه وجسمه معاً ، كما يحدث مثلاً حينما يفرح المرء باسترداد بلاده من قبضة الأعداء ، وارتداد الغاصبين

---

(١) *Marcel Pagnol : « Notes sur Le Rire », Paris, Nagel, 1947, pp. 42—43.*

عنها مدحورين منهزمين . والذين شهدوا خروج آخر جندىّ أجنبي من ميناء بور سعيد ، بعد العدوان الإنجليزى — الفرنسى الغاشم على أرض الوطن ، يستطيعون أن يحدّثونا بحق عن دموع الفرح التى انسكبت من عيون الوطنيّين ، ممزوجة بفرحة التشفّى من ذلك العدوّ الغاصب الذى سوّلت له نفسه أن يدوس أرض الوطن .

ويحاول بعض الباحثين أن يفسّروا لنا الأصل فى هذا النوع من الضحك ، فنراهم يربطون بَيْنَ التفوّق و « العدوان » *Aggression* ، بدعوى أننا قد « نكشف عن أسناننا » ، لا لكى نعبّر عن غبطتنا أو مودّتنا ، بل لكى نعرب بطريقة رمزية (ترجع بلا شكٍ إلى آثار الوحشية الأولى القديمة) عن شعور العداء أو الرغبة فى المهاجمة . ويذهب بعض الباحثين إلى حدّ أبعد من ذلك ، فيقرر أن ضحكات بعض الناس لا زالت تنطوى حتى اليوم على شىء من الوحشية التى تتّسم بها جماعات آكلى اللحوم البشرية . وأصحاب هذا الرأى يسلّمون ضمنا بأن الضحكة الأولى للبشرية هى ضحكة الاستيلاء على الفريسة والاستمتاع بنشوة الانتصار . ويضيف البعض إلى هذا أن للابتسامة طابعاً وجدانياً تناقضيًّا *Ambivalent* ، وأن الأَصْل فى شتى أنواع الفكاهات هو الضحك المتولّد عن الانتصار فى معركة جسمية بدائية[١] .

---

(١) *Cf. Charles Lalo : « Esthétique du Rire », Flammarion, 1949, pp. 54 — 55.*

ولكننا حتى إذا لم نسلّم بهذه النظرية فى تفسير الضحك ، فإننا لا بدّ من أن نعترف بأن الإنسان كثيراً ما يضحك لشعوره بالتفوق على خَصْمه أو الانتصار على غريمه ، خصوصاً حينما تجىء صروف القدر فتُنْزِل به الكثير من صنوف الزراية والتحقير . وقد كان الإنسان البدائى يضحك لما يصيب غيره من عاهات وأمراض وعيوب جسمية ، فلما صقلت الحضارة البشرية روح الإنسان الفكاهية ، أصبح من النادر اليوم أن يسخر الإنسان المتحضّر من عيوب الآخرين الجسمية ، أو عاهاتهم الخِلْقية ، أو مصائبهم المادية . ومع ذلك فإن الضحك قد يستولى علينا حينما نرى الرجل القزم أو العملاق أو الأحدب أو صاحب الأنف الكبير ، وإن كنا قد نحاول فى مثل هذه الأحوال أن نكتم ضحكنا حتى لا نبدو بمظهر « الإنسان الشرّير » الذى يسخر من نقائص مخلوقات آدمية تعسة . وحينما يلمّ بأحد هذه المخلوقات المشوّهة أىّ حادث بسيط مما يثير الضحك فى العادة (كأن تزلّ قدمه ، أو يصيبه رَذاذ الوحل فى الطريق) فإننا قلّما نسمح لأنفسنا بالضحك ، لأننا نشعر بأن مثل هذا المخلوق العاجز المسكين ليس منّا بالقرين المنافس ، ومن ثَمّ فإننا لا نفرح لما يلمّ به من محن أو نكبات . وأما فيما عدا ذلك ، فإن الإنسان المتحضّر لا زال يضحك لمصائب الناس الصغرى ، وما قد يعرض لهم من عثرات بسيطة ، وما قد يتردَّوْن فيه من مزالق سيكولوجية أو اجتماعية ، خصوصاً حينما يكون وقوعهم فى مثل هذه المآزق بسذاجة

وحسن نية . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يرتكبه بعض الطلبة من أخطاء غير مقصودة فى أوراق الإجابة أثناء الامتحان ، نتيجة لتسرُّعهم فى الكتابة ، وعدم انتباههم إلى ما قد يقعون فيه من مزالق لفظية . وهكذا قد يجد المصحّح نفسه بإزاء بعض التوريات الطريفة التى تثير الضحك لما تحتمله من معان جنسية (مثلاً) ، مما جرى على قلم الطالب بحسن نية . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما مارواه لنا أحد الباحثين الإنجليز من أن طالباً جامعيًّا كتب يقول (فى معرض نقده لمنهج سيكولوجى اقترحه أحد علماء النفس لاستجواب الأطفال بمجموعة من الاختبارات اللفظية) : « لا شك أن عشرة آلاف طفل سنوياً لهو عدد ضخم بالنسبة إلى رجل واحد ؛ وخمس دقائق يقضيها مثل هذا الرجل مع كل طفل هى بطبيعة الحال فترة قصيرة جدا لا تكفى لتأدية عمل متقن بالنسبة إلى كل طفل على حدة » ! ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن المضحك فى هذه العبارة هو احتمالها لمعنَيَيْن *double Entendre* ، فإنه لمن الواضح أنها تخفى وراء تعبيراتها الساذجة ضرباً من التورية الجنسية التى تثير ضحكنا لأن الكاتب لم يقصد إليها مطلقاً .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن الإنسان حينما يضحك لما يُلِمُّ بالآخرين من مِحَنٍ تجلبها عليهم بعض القوى الطبيعية أو بعض العوامل اللاشخصية ، فإن ضحكه فى مثل هذه الأحوال قد يكون وليد شعوره الدفين بأن هذه المحن أو المصائب هى جزاء حَقّ لهم . وهنا يدخل

عنصر « الثأر » أو « الانتقام » ، فيضاعف من حدة عاصفة الضحك لدى النظّارة ، كأن تهبّ عاصفة شديدة فتطيح بقبعة رجل أرستقراطي شامخ بأنفه ، أو ترفع ذيل ثوبٍ هَفْهَاف ترتديه سيّدة أنيقة معجبة بنفسها ، أو تحمل إلى أعماق اليمّ لباس البحر الجميل الذى تتأهب غادة حسناء لارتدائه . . . الخ . ولعلّ من هذا القبيل أيضا ما يرويه فلوجل من أن عاصفة شديدة هبت يوماً على مدينة ساحلية من مدن الشاطىء الجنوبي لبريطانيا ، فأطاحت بقبعة رجل أسود اللون كان راكباً فى الدور العلوىّ بإحدى السيّارات العمومية ؛ وطارت القبعة فى الهواء إلى أن استقر بها المطاف على مقربة من رجل وزوجه كانا يسيران فى الطريق ، ولكن أحداً منهما لم يتنازل بالتقاط القبعة ، لمجرّد أنها كانت ملكاً لرجل ملوّن ! وتشاء الصدف أن يتمكن الرجل الأسود من استعادة قبعته فى نفس اللحظة التى هبت فيها على حين فجأة عاصفة أخرى شديدة لم تلبث أن انتزعت قبعة تلك المرأة وحملتها بعيداً إلى أن اختفت بها مع موجات البحر العاتية ! وينظر المرء إلى هذا المشهد ، فلا يسعه سوى أن يضحك ملء رئتيه ، لأن الطبيعة قد انتقمت للرجل الأسود المسكين ، فجعلت تلك المرأة المتكبرة تدفع ثمن صلفها وترفعها . ويعلّق الكاتب الإنجليزى على هذه القصة فيقول إن الذين لم يشهدوا من هذه السلسلة الفكاهية من الأحداث سوى الحلقة الأخيرة منها فقط ، لم يستجيبوا للموقف بالضحك ، نظراً لأن عنصر

« القصاص » *Talion* المتضمَّن فى هذه القصة لم يسْتَبِنْ لهم ، فى حين منعهم الأدب أو التعاطف من أن يستجيبوا للموقف استجابة الضحك .

والواقع أن نماسيس *Nemesis* إلهة النقمة كثيراً ما تتكفل بإضحاك الناس ، خصوصا حينما تسخر من علية القوم على مرأى من عامة الناس فتطامن من حدة صلفهم وكبريائهم ، وتكسر من شوكة غرورهم وتعاليهم . وهكذا قد يصيب رذاذ الوحل حلة بيضاء يرتديها رجل متأنق ، أو قد ينكسر كعب حذاء تلبسه سيدة متجملة ، أو قد تتعطل سيارة فخمة تركبها جماعة من الأثرياء . . . الخ . ونحن حينما نشهد منظراً من هذه المناظر فإننا لا نتمالك أنفسنا من الضحك ، وكأن لسان حالنا يقول : « فلننظر هل سيشمخون بأنوفهم بعد هذا » ! والواقع أن ثمة إحساساً كامنا بالحسد أو الغيرة أو العداء يكمن من وراء هذا النوع من الضحك ، بدليل أنه لو وقعت مثل هذه الأحداث لأناس بسطاء عاديِّين ، لما خطر ببالنا أن نضحك ، فى حين أننا ننفجر بالضحك حينما تقع مثل هذه الأحداث لقوم متكبرين من أهل الطبقة الأرستقراطية . وهذا النوع من الضحك هو ما أطلق عليه پانيول اسم « الضحك السلبى » لأننا لا نضحك فيه بسبب تفوقنا واستعلائنا ، بل بسبب نقص الآخرين وضعفهم . وربما كانت أعلى صورة من صور هذا النوع من الضحك هى

تلك التي تضحك فيها الضحايا بسبب شنق الجلاد نفسه[١] !

وهناك حالات أخرى قد يستولى فيها علينا الضحك ، نتيجة لشعورنا بأننا في جو خانق من الرسميات ، كما قد يحدث أحياناً في بعض الاحتفالات الرسمية أو الاجتماعات الجدية أو المناسبات الدينية ، إذ قد لا يقوى المرء عندئذ على كتمان رغبته في الضحك ، وكأن خطورة الموقف هي التي ولدت لديه — على سبيل التناقض — استجابة الضحك . وهكذا قد يحدث أن ينفجر المرء ضاحكا في كنيسة أو محفل رسمي أو موكب جنازة أو في أية مناسبة جدية أخرى . وهذه الواقعة إن دلت على شيء ، فإنما تدلنا على وجود قرابة خطيرة بين الشيء « الجليل » *Sublime* الباعث على الاحترام ، والشيء « المضحك » *Ridicule* الباعث على السخرية . وليس يكفي لتفسير مثل هذه المواقف أن نُهِيبَ بشعور « العدوان » ، وإنما يجب أن نتذكر دائما أن الأطراف في تماس ، وأن الصبغة الجدية لأي موقف إذا زادت عن الحد ، فإنها لا بد من أن تستحيل إلى صبغة هزلية[٢] .

٢٤ — فإذا عمدنا الآن إلى دراسة العلاقة بين الفكاهة وبين بعض حالات القلق أو الحصر النفسي *Anxiety* ، وجدنا أن الفكاهة

(١) *Marcel Pagnol : « Notes sur Le Rire », Nagel, Paris, 1947, p. 106—7.*

(٢) *J. C. Flugel : « Humor & Laughter », in « Handbook of Soc. Psych. », Vol II., p. 716.*

هنا قد تقوم بدور « الفيلسوف الساخر » الذى يلقى جلائل الأمور بروح الهزل والاستخفاف ، أو بروح الاستهانة وعدم الاكتراث ، كما أظهرنا على ذلك فرويد فى بحث قيم له عن الفكاهة ظهر عام ١٩٢٨ [١] .
وفى هذا البحث نرى صاحب مدرسة التحليل النفسى يستعين بنظريته فى « الأنا الأعلى » *Super — Ego*، فيقرر أن « الأنا » *Ego* قد يتخذ فى حالات الضيق أو القلق أو الحصر النفسى وجهة نظر « الأنا الأعلى » ، ومن ثم فإنه قد ينجح عن هذا الطريق فى أن ينظر إلى هموم الأنا العادية ومشاغلها الطبيعية بشىء من « التحرُّر الرواقى » الذى لا يخلو من نبل وسموّ . — ولكى يدلل فرويد على صحة نظريته ، نراه يهيب ببعض الأمثلة الموضّحة ، فيروى لنا بعض « نكات المشنقة » *Gallows* ، *Humour* ، كقصة ذلك المحكوم عليه بالإعدام الذى اقتيد إلى غرفة المشنقة صباح يوم الاثنين (وهو أول أيام الأسبوع فى البلاد المسيحية) ، فابتدر منفذّى الحكم بقوله : « حقا إنها لبداية طيّبة للأسبوع » !. وثمة قصة أخرى تروىٰ عن أحد المحكوم عليهم بالإعدام ، فقد سئل قبل تنفيذ الحكم عليه ، عما إذا كان لديه شىء يريد أن يقوله ؛ فما كان منه إلاّ أن أجاب : « أجل ، قولوا للقاضى على لسانى إنه قد يكون أحسن صنعا بما أصدر علىّ من حكم ، فربما يكون فى الإعدام — رغم كل شىء —

(١) *S. Freud: «Humor»; in «International Journal of Psych.», 1928, IX, 2-6.*

عظة وعبرة لى . » ! والمضحك فى هاتين القصتين أن المحكوم عليه بالإعدام يتجاهل موته تماماً ، وأنه يفترض أن الأمور تسير كالمعتاد ، وكأنما هو لا يكترث بما سَيُوَقَّع عليه من حكم بعد حين ، أو كأنما هو ينكر الواقع و يستخف تماما بهيبة الموقف(١) !

وثمة نادرة أخرى يرويها أحد الباحثين عن بحّار ضُربت غوّاصته أثناء الحرب الأخيرة ، فوجد نفسه بين أمواج المحيط على ظهر حُطام صغير تتقاذفه الأنواء . ولمح البحار سفينة ركاب قادمة من بعيد ، فصاح فى بحّارتها قائلا : « إيه يارفاق ، هل أنتم سائرون فى طريقى ؟ » . وفى هذا المثل أيضاً نجد أن ثمة إنكاراً واضحاً للحقيقة ، أو تجاهلا تاماً لخطورة الموقف ، وكأن كل شىء يسير كالمعتاد ، أو كأن ليس ثمة ما يتهدد حياة المتكلم ! . ولكن فرويد يلاحظ أن فى « إنكار الواقع » عن طريق النكتة ضرباً من السموّ الأخلاقى الذى يرجع إلى ما يَقُوم به « الأنا الأعلى » من دور هام فى صميم هذا النوع من أنواع الضحك . « فالأنا الأعلى » فى مثل هذه الحالات يعامل « الأنا » كما يعامل الشخص البالغ الرحيم طفلا ألمت به بعض المصائب الصغرى أو الكوارث البسيطة ، إذ يبين له فى ضوء خبرته الشخصية الناضجة كيف أن تلك الأحداث البسيطة هى مما لا يستحق كل هذا الاهتمام ! وكأن « الأنا الأعلى »

(١) *Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Ch. III., pp. 144 .*

يريد أن يأخذ بيد « الأنا » ، فيوجه إليه الحديث فى محبة وحنان قائلا له : « اسمع يا صاح ؛ إن كل ما يبدو لك خطيراً عظيم الشأن لا يخرج فى صميمه عن كونه ألاعيب أطفال ، فاعلم إذن أن هذا الشىء التافه لا يستحق منك سوى الهزل والمزاح » ! . وهكذا نرى أن فرويد ينسب هنا إلى « الأنا الأعلى » وظيفة أخرى تختلف عما نسب إليها فى كتابه السابق الموسوم باسم « الأنا والهو » *(The Ego & the Id)* (الذى ظهر قبل ذلك بخمس سنوات) ، وذلك لأن الأنا الأعلى هنا يقوم بوظيفة التشجيع والتبرير والتسويغ ، فيأذن للأنا بالرجوع إلى حالة الطفولة التى يتحقق فيها إنكار الواقع أو إعادة الحكم على الحقيقة . ولهذا يقول فرويد : إن من شأن هذا التفسير الجديد للفكاهة أن يدلنا على أن هناك حقائق أخرى لا زال أمامنا أن نعرفها ونتدارسها عن طبيعة « الأنا الأعلى » . — وعلى كل حال ، فقد يكون فرويد محقاً فى قوله بأن الفكاهة تؤدى دوراً رئيسياً هاماً فى صميم حياتنا النفسية ، لأنها باستبعادها لإمكانية الألم ، تتخذ مكانها بين الأساليب الفعالة التى ابتدعها عقل الإنسان للتحرّر من قَسْر الألم ، فتقف إلى جوار العصاب والهُذاء والنشوة والسُكْر والتجرُّد والوَجْد الصوفى . . الخ . ولكن الفكاهة تتميز عن هذه الأساليب المختلفة التى قد نلتجئ إليها لدَفْع الألم ، بأنها تنطوى على عنصر أخلاقى واضح يتمثل فى كونها تعمل على تحريرنا ورفع مستوانا النفسى ، فهى من ثَمّ أداة فعالة تحافظ على كيان « صحّتنا

النفسية .»[١] ويقرر فرويد — فى موضع آخر — أن الفكاهة ترتد بنا إلى تلك الحرية السعيدة المنطلقة التى كنا نستمتع بها إبان الطفولة قبل أن تتكون لدينا أية رقابة أو أى رقيب ! فالوظيفة الأولى للفكاهة هى استعادة عهد الانشراح العام *(Euphorie)* البدائىّ الذى كنا نجهل فيه المزاح ، ولا نعرف الهزل ، ولا نملك القدرة على تأليف النكتة ، ولا نشعر بالحاجة إلى الفكاهة حتى نستمتع بلذة الحياة ! ويستطرد فرويد فيقول : إن العلاقة وثيقة بين الفكاهة والحلم ، لأن كُلاً منهما ينطوى على ضرب من الارتداد نحو حياة الطفولة ، من أجل التملّص — ولو إلى حين — من كل تلك الحدود أو القيود التى تفرضها علينا الحياة الجدية . ومعنى هذا أننا نجد فى « الضحك » نكوصاً نحو الأساليب الطفلىّ فى المعيشة بما فيه من أحلام برّاقة وخيالات سعيدة وتهاويل جميلة ؛ وهذا هو السبب فى رَبْط فرويد للفكاهة بالحلم[٢] .

٢٥ — وثمة حالات أخرى تقوم فيها الفكاهة أيضاً بدور « إنكار الواقع » ، فضلاً عن أنها قد لا تخلو أحياناً من كل أثر من آثار التوكّل أو الاستسلام *(Résignation)* ، وإنْ كانت تنطوى على « عنصر عدوانىّ » ينأى بها عن ذلك النوع من الفكاهة الذى وصفه فرويد

(١) *Freud: «Humor» ; «International Journal of Psych» 1928, IXp. 5.*

(٢) *Cf. Freud: «Wit & its relation to the unconscious» N-Y, Moffat Yard, 1916.*

بأنه « عامل سموّ أخلاق » ، و نعنى بها تلك الحالات التى يتجه فيها الميل العدوانى إما نحو الذات أو نحو الآخرين . وهنا نجد أن « الأنا الأعلى » أقل رحمة بالذات منه فى الحالات السابقة ، وأشد نزوعًا نحو العدوان بصفة عامة ، ومن ثمّ فإنه قد يتجه نحو معاقبة نفسه والقصاص من ذاته ، أو هو قد يتجه نحو إدانة الآخرين واضطهادهم دون أدنى رحمة أو شفقة . وقد درس رَيْك *Reik* (١٩٢٩) نماذج لهذا النوع من الفكاهة ، فوقف بحثا بأكمله على دراسة « الفكاهة اليهودية » التى تنطوى فى معظم الأحيان على نوادر ونكات تدور حول اليهود أنفسهم ، إما باعتبارهم شعباً أو باعتبارهم أفراداً . وكان فرويد قد سبق هذا الباحث إلى دراسة بعض نماذج للفكاهة اليهودية ، فانتهى من بحثه إلى القول بأن بنى اسرائيل هم فى فكاهاتهم من أكثر شعوب العالم انتقاداً لأنفسهم « *Auto - Critique* » . وهذا ما يؤكده ريك مرة أخرى حينما يقرر أن الفكاهة اليهودية تنطوى على شعور بنقائص الذات وعيوب النفس ، وكأنّ « الأنا الأعلى » عند اليهودىّ يريد أن يدعو « الأنا » إلى إلقاء بعض النظرات النقدية على المثالب والنقائص الكامنة فى أسلوب المعيشة وطرق التعامل لدى اليهود . ولكن وراء هذه الروح النقدية التى تعبّر عنها الفكاهة اليهودية تكمن ميول عدوانية حادة ضد النفس ، وهذه بدورها تكشف عن ميول عدائية قوية ضد الشعوب الأخرى (أو ضدّ « الكفّار » *Gentil* على حد تعبير اليهود

أنفسهم) ؛ إذ أن هذه الشعوب هي التي تسببت في ظهور تلك « النقائص اليهودية » التي تتهكم عليها فكاهات اليهود أنفسهم . وكأن لسان حال الفكاهة اليهودية يقول لتلك الشعوب : « انظروا كيف خلقتم منا موجودات تعسة ، ضعيفة ، شاذة ، ضيقة الأفق ، غليظة القلب ، مُقَتِّرة على نفسها وعلى الآخرين ! » .

والواقع أن اليهود إذ ينتقدون أنفسهم — في نكاتهم العديدة — إنما ينتقدون خصومهم وظالميهم ، مَثَلُهم في ذلك كمَثَل الشخص السَّوْداوي *Mélancholique* الذي يتجه نقده الذاتي — كما لاحظ فرويد — لا نحو ذاته ، بل نحو الموضوع المُبْغَض الذي امتصَّه واسْتَدْمجه في ذاته . وقد شرح رَيْك الآلية السيكولوجية التي تقوم عليها هذه العملية ، فسرد علينا قصة ذلك اليهودي الذي جلس إلى مائدة واحدة يلعب القمار مع أحد الأشخاص ، فظل يغافله ويغش في اللعب ، دون أن يفطن إلى ذلك زميله . وأخيراً ضاق اليهودي نفسه ذرعاً بهذا الوضع ، فانفجر صائحاً في زميله : « يالك من رفيق أحمق ، حتى تقبل اللعب مع شخص . . . ارتضى أن يلاعب شخصا مثلك ! » . ففي هذه النكتة يتوقع السامع أن يقول اليهودي : « حتى تقبل اللعب مع شخص مثلي » ، ولكن ذيل النكتة هو الذي يكشف لنا عما فيها من وخز ، لأن عدوان اليهودي لا يرتدّ إلى نفسه ، بل يتجه صوب زميله في اللعب ، باعتباره مسئولاً عن تماديه هو (أي اليهودي)

فى الغش ! . وهكذا نرى أن العدوان الذى تنطوى عليه أمثال هـذه النكات يتضمّن انتقالاً من « النقد الذاتى » المحض إلى نقد الآخرين باعتبارهم موضوعات مُبْغَضة تمتصّها الذات *Introjected* — . وهذه الحالة شبيهة بما يحدث فى أمراض الهوس حيث يستمدّ المريض لذّته من عملية تحرر مفاجىء يتخلّص فيها من « الموضوع العدائى » المُستَدْمَج فى ذاته ، وهو الموضوع الذى طالما ران عليه كحمل ثقيل بغيض ، فكان سبباً فى شعوره بالإثم وفى توجيهه للعداء نحو نفسه . ومعنى هذا أن « النقد الذاتى » الذى تنطوى عليه الفكاهة اليهودية إن هو إلاّ انتصار على الخَصْم نفسه باعتباره موضوعا خارجيا قد امتصّته الذات واستدمجته فى صميم كيانها(١) .

وقد لا يقف العدوان فى أمثال هذه النكات عند حدود الخصوم البشريّين ، بل هو قد يمتدّ أيضاً نحو قوة أخرى غير بشرية تتخذ فى نظر اليهود صورة الطاغية الأكبر ، ونعنى بهذه القوة « الله » نفسه ! ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن يهودىّ عجوز من أنه قال فى لحظات احتضاره : « انصتوا يا أبنائى : لقد ظللتُ طوال حياتى أعمل وأكدّ وأقتّر على نفسى وأحرمها شتى الملذّات ، آملاً أن أجد يوماً فى الحياة الأخرى شيئاً أفضل يعوّضنى عن كل ما افتقدت . والآن لن أتردّد فى أن أضحك طويلاً لو أننى وجدت أنه ليس ثمة شىء هناك

(١) Flugel: «Humor & Laughter»; «Handbook of Soc. Psych.», Vol. II., p. 718.

أيضا ! » . ويعلّق فلوجل على هذا المثال بقوله : إن وراء المظهر السطحى للنقد الذاتى ، على نحو ما تـكشف عنه شكوك هذا اليهودىّ المحتضر حول قيمة العمل المضنى فى الحياة ، ومدى حكمة الحرمان والتقتير الشديد ، تـكمن نزعة شـكية عدائية تتجه نحو الدين ، بل نحو الله نفسه باعتباره المخادع الأكبر الذى يضلّل عباده بالوعود المعسولة التى لن تتحق يوماً ! وقد لا يتمثل العداء هنا بطريقة سافرة مكشوفة ، ولـكنه يتخفّى وراء تلك الشكوك التى يثيرها هذا اليهودىّ العجوز لأول مرة بعد حياة مليئة بالعمل والنشاط والحرمان والتقتير . وبينما نجد فى مثال المحكوم عليه بالإعدام (الذى أقر قبل شنقه موقف قاضيه) أن ثمة تخلّيا من جانبه عن ميوله العدوانية السابقة ، نجد فى مثال اليهودىّ المحتضر أن ثمة عناصر عدوانية تمرُّدية تظهر لديه للمرة الأولى ، فتكشف بذلك عن انفجار مفاجئ لطاقاته العدوانية التى ظلت حبيسة طوال حياته !

٢٦ — أما الميلان الأخيران اللّذان ترتبط بهما ظاهرتا الفـكاهة والضحك ، فهما الميلان المقترنان بمسائل العلاقات الجنسية والعمليات الإخراجية . وبينما نجد أن باحثاً مثل برجسون قد أغفل تماماً هذا النوع من الفـكاهة ، نجد أن فرويد (فى كتابه الموسوم باسم « النكتة فى علاقتها باللاشعور ») يهتم اهتماماً كبيراً بدراسة النكات الجنسية والفـكاهات البذيئة ، حتى يقف على دلالتها السيكولوجية ومضمونها الأخلاقىّ . وقد لاحظ فرويد بصفة عامة أنه إذا كان هذا النوع من

الفكاهة ينطوى على عنصر تخفُّف أو راحة ، فذلك لأنه يحرّرنا إلى حين من أسر الأوامر والنواهى الأخلاقية التى تفرضها علينا الجماعة ، فيدع لنا مطلق الحرية فى أن نتعرض لتلك المسائل المحرّمة أو المحظورة التى اعتدنا فى الغالب أن نتجنب الإشارة إليها . وإذا كنّا قد درجنا على تسمية النكات الجنسية باسم النكات البذيئة أو القذرة ، فذلك لأنها تنطوى على شىء من الارتداد نحو مرحلة الطفولة التى ترتبط فيها اللذة بالقـــذارة . والواقع أن النكات التى تنصبّ على العملية الإخراجية ، تدلنا على احتمال نكوص بعض البالغين نحو المرحلة الإستية . حقا إننا نضحك فى العادة من كل خلل أو اضطراب يطرأ على الوظائف الطبيعية (كالتحرّك والتنفّس والهضم والإخراج والتناسل) لدى الآخرين ، لأن هذا الاضطراب أو الخلل يذكّرنا بأننا أسمى منهم ، ما دمنا نتمتع بصحة جيدة ؛ ولـكن من المؤكّد أن المضمار الأكبر الذى تستطيع فيه الفكاهة أن تصول وتجول إنما هو مضمار الوظائف الإخراجية والتناسلية . ولسنا نعدم نماذج لهذا النوع من الأدب الفكاهى فى الأغانى ، ومقامات بديع الزمان الهمذانى ، وعند الجاحظ وأبى نواس ، وفى بعض جلسات أبى حيان التوحيدى الواردة فى «الإمتاع والمؤانسة» ... الخ[1] . أما فى الآداب الأوروبية ، فإننا نجد أمثلة طريفة لهذا النوع

(١) كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٤٢ ، تصحيح أحمد أمين وأحمد الزين (الليلة الثامنة عشرة) .

من الفكاهة عند تشوسر *Chaucer* الكاتب الإنجليزى القديم ، وعند الأديبَيْن الفرنسيَّين المشهورين رابليه *Rabelais* وأرمان سِلْفِسْتر *Armand Silvestre* . وقد روى لنا بعضهم كيف أن الكباريه الباريسىّ المشهور « مولان روج » (إلى عهد قريب) كان يستعين على إضحاك الناس باستخدام رجل عجيب كان يظهر على خشبة المسرح فتتعالى قهقهات الجمهور وصيحاته بما لم يسبق له نظير ! وقد كانت كل براعة هذا الرجل إنما تنحصر فى قدرته العجيبة على إصدار أكبر عدد ممكن من الأصوات الطبيعية غير المستحبّة بنغمات خاصّة ، وأسماء متنوّعة ، وعلى النحو الذى يروق له ! (١) .

ولا بدّ لنا من أن نلاحظ أن ممارسة مثل هذه الوظائف الطبيعية لا تستثير أى ضرب من الضحك لدى الجماعات البدائية ، لأن الناس قد اعتادوا أن يمارسوها على الملأ ، وبمُطْلق الحرية . وأما لدى الجماعات الراقية ، فإن ممارسة مثل هذه الوظائف الطبيعية على الملأ قد تستثير ضحك الناس ، خصوصاً إذا ارتبطت لدى الفرد بعجز تام عن التحكّم فى أجهزته العضوية ووظائفه الطبيعية ! ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما قد يحدث للعاشق المُتلهِّف الذى يصاب بنوبة إسهال حادّة فى عين اللحظة التى يلتقى فيها بمعشوقته ، أو ما يحدث للواعظ المتحمّس الذى ينبعث

(١) *Cf. M. Pagnol : «Notes sur le Rire» Paris, Nagel, 1947, pp. 69 - 77.*

منه صوت غير مستحبّ فى الوقت الذى تشقّ فيه صيحاته العالية عنان السماء ! وإنّا لنستطيع فى بعض المجتمعات (كما هو الحال مثلاً فى المجتمعات الطبية والعلمية وغيرها) أن نتحدث عن بعض أجزاء من الجسم ، دون أن يستثير هذا الحديث بين السامعين أى همس أو لغط أو ضحك أو تلميح خفىّ ، ولكننا ما نكاد نشير إلى هذه الأجزاء من الجسم — فى مجتمعات أخرى — حتى ترتسم الابتسامات على الشفاه ، وتغمز العيون بالضحك . . . الخ . فإذا استعمل فرد للإشارة إلى تلك الأجزاء من الجسم كلمات سوقية أو ألفاظاً مبتذلة ، كانت استجابة الحاضرين لهذه العبارات البذيئة إما بالاستنكار والاستهجان ، أو بالابتسام والضحك(١) . — ولكن ربما كانت اللذة الكبرى التى يجدها الناس عادة فى الفكاهة الجنسية بصفة عامة ، إنما هى مظهر لارتياح الأفراد فى بعض الأحيان لمخالفة بعض الممنوعات ، أو التعدّى على بعض المُحرّمات *Taboos* . ومن هنا فإن المجتمعات تتحرّز فى العادة من هذا النوع من الفكاهة ، بدليل أنها تفرض على النكات الجنسية رقابة صارمة ، باعتبار أنها تنطوى على عنصر « إغراء » أو « غواية » . ولما كان المستمع لمثل هذه النكات يشترك مع رَاويها فى التلذّذ بمخالفة الأوامر والنواهى الأخلاقية ، فإن كثيراً من المجتمعات تحرّم نشر هذا

(١) *Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Flammarion, 1949 pp. 220—221.*

النوع من الفكاهة ، وتتشدّد فى الرقابة على كل فن مكشوف قد يشير إليه من قريب أو بعيد . وكلما كان المجتمع أشد محافظة على الآداب العامة ، وأميل إلى استعمال العنف فى قمع كل ما يخدش الحياء ، زاد تحريمه لهذا النوع من النكات ، وتضاعفت رقابته على كل ما يَتَشْتَمُّ فيه روحَ المجون أو الفحش أو الغواية ! ومن هنا فقد ظهرت عندنا الحاجة إلى بوليس الآداب ، كما ظهرت الحاجة إلى الرقابة الصارمة على الأفلام !

وقد حلّل فرويد ظاهرة الفحش فى التنكيت فذهب إلى أن الفكاهات البذيئة هى عبارة عن استثارة مقصودة يراد بها الإشارة ضمناً أو صراحة إلى بعض المواقف أو الأفعال الجنسية . فالشخص الذى يروى نكتة جنسية فى حضرة أشخاص من الجنس الآخر إنما يرمى من وراء ذلك إلى توليد استجابة الخجل أو الحياء أو الغواية أو الإغراء لدى أفراد هذا الجنس . وقد تتخذ عملية التنكيت البذىء طابع « التعرية » ، فيكون موقف راوى النكتة الجنسية مِنْ أى شخصٍ من أفراد الجنس الآخر كموقف الشخص الذى يُعرّيه ويكشف عن عورته ! وحينما يتجه راوى النكتة اتجاهاً صريحاً نحو شخص من الجنس الآخر يجعله هدفاً لفكاهته الجنسية ، فكأنَّهُ فى هذه الحالة يريد أن يخدش حياءه حتى يضطره إلى أن يشترك معه فى انتهاك حرمة القانون الأخلاقى !

والمشاهد فى العادة أن النكات الجنسية لا تدور إلاَّ بين أناس

تتقارب أعمارهم وتتحد طبقتهم الاجتماعية ، فهى — مثلاً — قلما تجرى بين والد وابنه ، أو بين رئيس ومرءوس ، أو بين مموّل كبير وعُمّال مصنعه . . . الخ . وبينما نجد فى الفكاهة العدوانية أنه كثيراً ما تكون العلاقة بين راوى النكتة والمستمع إليها هى علاقة الأسمى بالأدنى ، نجد فى الفكاهة الجنسية أن العلاقة بين صاحب النكتة وسامعها هى علاقة الند بالندّ . ومع ذلك فقد تدخل فى النكتة الجنسية بعض عناصر عدوانية كعنصر الانتقام أو القصاص ***Retaliation*** ، خصوصاً حينما يجد صاحب النكتة نفسه فى موقف يضطره إلى الدفاع عن نفسه . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن سائق من أهل الطبقة العليا كان يقود سيارة نقل إبان الإضراب الذى حدث فى انجلترا عام ١٩٢٦ فابتدرته سيدة حانقة من أهل الطبقة العاملة بقولها : « يا لَكَ من لقيط ابن زنا» ! ، فما كان منه سوى أن أجابها بقوله : « مرحباً بك يا والدتى ، فإنها لمفاجأة سعيدة أن ألتقى بك فى هذا المكان ! » . وثمة نادرة أخرى تروى عن أحد الأمراء من أنه التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه فابتدره بقوله : « هل كانت أمّك يا هذا تقيم فى البلاط الملكى ؟ » ، فأجابه الغريب ببديهته الحاضرة : « كلاّ يا سيّدى ، بل أبى » ! .

ولكن ربّما كان أهم ما تتميز به النكات الجنسية هو كونها تتصف بصفة « الرمزية » ، مثلها فى ذلك كمثل الأحلام ؛ وإن كان المفروض فى « رمزية » النكتة الجنسيّة أنها مما لا يستغلق فهمه على

السامع . وإن الجمهور المثقف ليثور فى كثير من الأحيان على نظرية فرويد فى تفسير الأحلام ، ولـكنه هو نفسه لا يلبث أن يضحك ملء شدقيه — فى الصالونات الخاصة — عند سماعه لبعض النكات الجنسية التى ترتكز على رمزية شبيهة برمزية الأحلام . والواقع أن هناك كثيراً من النكات التى تقوم أولا بالذات على الرمزية ، بحيث إنه لولا ما فيها من عنصر رمزىّ ، لما كان لها أى طابع فكاهىّ على الإطلاق ، بل لكانت مجرّد روايات بذيئة وأقاصيص مبتذَلة . وأما حينما يعجز السامع عن فهم أو تأويل الرموز التى تنطوى عليها النكتة الجنسية ، فإنه بطبيعة الحال لن يستطيع أن يستجيب لها بالضحك ، لأن هذه النكتة لن تكون فى نظره عندئذ سوى هراء محض (كما هو الحال غالباً فى الحلم) .

بيد أنه على الرغم مما هنالك من خلاف بين الحلم والفكاهة من حيث درجة طواعية كل منهما للفهم أو قابليته للتأويل ، إلاَّ أن « الرمزية » فى النكتة تؤدّى نفس الدور الذى تؤديه فى الحلم ، لأنها تخفى أو تحجب « المعنى المحرّم » خلف ستار جدىّ أو مظهر محترم ، فتسمح بمروره على الرقيب *Censor* . أما حينما لا تكون الرمزية شفّافة كل الشفافية ، أعنى حينما تكون الكناية مستترة أو مطويّة ، فقد يكون فى استطاعة صاحب النكتة أن يتخفّى وراء المعنى الآخر لعبارته ، وبذلك يصير السامع هو المسئول عن المعنى الجنسىّ الذى فهمه من تلك

العبارة . وهكذا نرى أن راوى النكتة قد يلقى بفكاهته الجنسية فى براءة تامة ، لكى لا يلبث أن يعتصم بسذاجته المصطنعة ، فى اللحظة التى يحدس فيها السامع بالمعنى الجنسى ، وكأنما هو لم يقصد قط إلى ذلك « الفحش » الذى وقع فى ظن السامع ! وكثيراً ما يلجأ بعض أصحاب الفكاهة أو أهل النكتة إلى هذه الطريقة فى إلقاء دعاباتهم ، فنراهم يعمدون إلى إخفاء معالم تلميحاتهم تحت ستار من البراءة أو الجدية أو الاحترام ، حتى يتركوا السامع هو الذى يسىء الظن بمعانى عباراتهم ، وبذلك يصبح هو المسئول عن تصوّر المعنى البذىء ، وبالتالى عن خَرْق القاعدة المحرّمة ! ويضحك صاحب النكتة ملء شدقيه حينما يرى الحيرة تستولى على نفس المستمع : لأنه من جهة قد ضلّله فجعله يذهب بعيداً فى تفسير مرمى النكتة ، ثم هو من جهة أخرى قد عاد فحرمه متعة التلذّذ التام بخرق القاعدة المحرمة . — أما المستمع نفسه فإنه يضحك (فى شبه ارتياح) حينما يعود راوى النكتة فيكفيه مشقة الخروج على القانون الأخلاقى أو الإشارة إلى شىء مدنّس معيب ، وبذلك يحدث فى نفسه شيئاً من الراحة أو التخفُّف — *Relief* — إذ يعفيه من التفكير فى المعنى الجنسىّ المحظور . ولكن التحرُّر من أَسْر القاعدة الأخلاقية قد تمّ بالفعل ، حتى بعد هذا التصحيح الذى عمد إليه صاحب النكتة ، ومن ثمّ فإن كلا من راوى النكتة والمستمع إليها لابد من أن يضحك ،

ما دام التلميح إلى الموضوع الجنسى قد أحدث أثره فى نفس كل منهما من طرف خفىّ !

وكثيراً ما يلتجىء إلى هذه الحيلة فى إضحاك الجمهور بعضُ رجال الكوميديا فى بلاد الغرب ، فنراهم يشيرون من طرف خفىّ إلى بعض المسائل الجنسية ، فما يكاد الجمهور ينفجر ضاحكاً ، حتى يتصنّع راوى النكتة الاستياء ، وكأن الجمهور قد خدش حياءه ، فيبتدر المستمعين بقوله : « أرى أيها السادة أنكم قد أسأتم الظن بى ، فما إلى هذا قصدت ! » ثم يشرح صاحب النكتة عبارته الملتوية فى سذاجة تامة وبراءة مطلقة ، مُبْديا استهجانه لعقلية الجمهور التى أساءت به الظن ! وقد يلجأ أحياناً إلى مثل هذه الطريقة بعضُ خبثاء الطلبة فيوجّهون إلى أساتذتهم عبارات ملتوية تشير من طرف خفى إلى بعض المعانى الجنسية ، فما يكاد الأستاذ يُفاجأ بهذه العبارات المشتبهة التى لا يدرى على أى نحو ينبغى أن يتأوّلها ، حتى يبادر التلميذ الخبيث إلى تكملة عبارته فى سذاجة وبراءة ، محوّلا مجرى الحديث إلى أمور عادية تافهة ، وكأنما هو لم يكن يلمّح من قريب أو بعيد إلى أى معنى جنسىّ ! وحينما يكون لدى الطالب من البراعة ما يستطيع معه أن يظهر بمظهر الشخص الجادّ أو حسن النية ، فإن تأثير نكتته لابدّ من أن يتضاعف فى نفوس زملائه من الطلبة الخبثاء !

٢٧ — ولو أننا أنعمنا النظر إلى مشكلة « الرمزية » فى الفكاهة ، لتبيّن لنا أن عنصر اللهو أو العبث أو اللاواقعية الذى تنطوى عليه هو الذي يجعلنا نتقبل ما فيها من خروج على الآداب العامة أو النواهى الأخلاقية ، لأننا نعلم أن خرق القاعدة المحرّمة هنا لا يعدو اللهو أو التسلية التى لا تحتمل أى معنى جدىّ أو أية دلالة خطيرة . وليس أدلّ على صحة ما نقول من أن الجمهور المثقّف الذى تضنيه الأحاديث الجدية والمناقشات العلمية (فى قاعة بحث مثلاً) سرعان ما يقبل عن طيب خاطر على هذا النوع من الفكاهة حينما ينتقل إلى غرفة التدخين المجاورة ! وهذا الانتقال الذى يحمل معنى اللهو أو التسلية ، فيبيح لنا المحظور فى لحظات الراحة والاسترخاء ، هو بعينه الذى قد يسمح لنا أحياناً بأن نتندّر على بعض الموضوعات الجدية التى قلّما نفكّر عادة فى وضعها موضع السخرية ، كموضوع الموت أو الجحيم مثلاً . وليس من النادر فى مثل هذه المناسبات أن نجد رجل الدين نفسه يضحك لأمثال هذه الفكاهات ، فى حين أنه لن يقبل بطبيعة الحال فى المواقف الجدّية أن يتناول شخص مثل هذه الموضوعات بروح الفكاهة أو السخرية أو التندر ، فيشير إلى الموت أو الجحيم مثلاً إشارات هزلية تنطوى على الاستخفاف والاستهزاء .

وقد يكون عامل « البُعْد عن الواقع الجدىّ » هو المسئول فى بعض الأحيان عن تمادى أشخاص محتشمين خجولين فى الكثير من أحلام اليقظة التى تدور حول مسائل الجنس ، على خلاف عادتهم فى مواقف

الحياة العملية . والظاهر أن الطابع الشخصىّ الانعزالىّ لأحلام اليقظة يقوم هنا بدور مماثل لذلك الدور الذى يلعبه عنصر اللهو أو التسلية فى حالة الفكاهة . ولكن الفكاهة تختلف من جهة أخرى اختلافا جوهريًّا عن أحلام اليقظة ، من حيث أنها لا تنطوى على صبغة شخصية انفراديّة ، وإنما هى تتسم دائما بصبغة اجتماعية . وهذه الحقيقة تقودنا إلى الاعتراف بأهمية العامل الثانى الذى يظهر أنه يلعب دوراً كبيراً فى تحديد موقفنا من الرموز الجنسية ، ونعنى به العامل الاجتماعى . والواقع أن فى الاستماع إلى نكتة جنسية عملية « مشاركة فى الإثم » guilt تتمّ بين شخصين أو أكثر ، وهذه العملية هى التى تتسبّب فى تراخى آليات « الكبت » ، كما يحدث مثلاً فى حالة الشخصين اللذين يشتركان فى فعل جنسىّ واحد ، فيعمل اتحادهما معاً على قهر ما فى نفس كل منهما على حدة من دوافع « الكفّ » . وإذا صحّ ما يقوله المثل المأثور من أن الحزن المتقاسَم تهبط حدته إلى النصف ، فقد يصح أيضاً أن يُقال إن الإثم المتقاسَم لابدّ من أن تهبط حدته كذلك إلى النصف ! وكما أن اللذة المتقاسمة هى لذة متضاعفة ، فإن النكتة الجنسية التى يتبادلها شخصان لا بدّ أن تولّد لديهما لذة مُضاعَفة ! والحق أن راوى النكتة الجنسية والمستمع إليها يجدان لذة مضاعفة فى التآمر على خَرْق المحرّمات ، وإن كانت لذتهما هنا تقف عند حدّ اللهو

أو العبث أو التسلية ، فتضمن للمجتمع ألا تجيء هذه العملية ضارة أو مؤذية[١] .

وصفوة القول أنّ عمليات تفريغ الطاقة عن طريق الفكاهة هى عمليات معقدة متباينة إلى أقصى حدّ . وليس تنوّع تلك العمليات بقاصر على عمومية أو جزئية مصدر التوتر الذى يتم انطلاقه ، أو على طول أو قصر مدة ذلك التوتر ، أو على طبيعة مضمونه الانفعالىّ ، وإنما يمتدّ هذا التنوّع أيضا إلى صميم الآلية النفسية التى يتم عن طريقها التحرّر أو التخفُّف . وهكذا قد يحدث إطلاق الشحنة الانفعالية نتيجة لإدراك مباشر بأنه لم يعد ثمة مبرر لحالة التوتر ، كما فى حالة التهرّب من موقف خطر ، أو قد ينطوى التحرّر على عملية « تعويض » (بالمعنى الأدلرى لهذه الكلمة) كما فى حالة الضحك مما ألمّ بنا من سوء حظ أو إهانة ، أو قد يعمل على توليد الراحة والتخفّف فى نفوسنا تغيّر فى صميم موقفنا الباطنى نفسه ، كما فى حالات النكتة (بالمعنى الفرويدى الدقيق لهذه الكلمة) ؛ أو قد يكون السبب الجوهرى فى إطلاق الطاقة الحبيسة فى نفوسنا هو مجرد الارتداد نحو حالة أولية من حالات الطفولة ، كما فى الفكاهات الساذجة أو السخيفة القائمة على اللغو أو الهذر أو السلوك الطفلىّ الساذج ؛ أو قد يكون التحرّر أخيراً وليد ضرب من

---

(١) *cf. Flugel «Humor & Laughter»; «Handbook of Soc. Psych»., II., 1954, p. 720.*

التفاهم الرمزى الذى يتم بين شخصين ، كما فى حالة الفكاهات الجنسية التى يقلّل فيها عامل المشاركة الاجتماعية من حدة الشعور بالإثم أو القلق . ومهما يكن من شىء ، فإن الملاحظ فى كل حالات الفكاهة أن عملية « تفريغ الطاقة » تتم دائماً تحت إشراف « الأنا » ، بعكس ما يحدث فى حالات الأعراض العُصابية والأمراض النفسية التى لا تنطوى على أى « تناغم ذاتى » *Ego-syntonic* . ومن هنا فقد أجمع كثير من الباحثين على أن الفكاهة هى خير أسلوب صحىّ سوىّ فى تفريغ الطاقة ، بينما ذهب آخرون إلى أن النكتة هى وسيلة فعالة تسمح للأنا *Ego* بأن يتخلّص من تهديدات الـ «هو» *Id* والـ « أنا الأعلى » *Super-ego* عن طريق تغيير نوع الرضا أو الاشباع الذى يسمح به الـ « هو » . وأخيراً يقرر بعض الباحثين أن الفكاهة قد تسمح لنا بتحقيق ضرب من « الانتصار » أو السيطرة على ما كان من قبل مبعث خوف أو رهبة فى نفوسنا .

الفصل الثامن

العنصر الإدراكى فى الضحك

٢٨ — إذا استعرضنا تاريخ النظريات الفلسفية التى تعرض أصحابها لدراسة الضحك ، فإننا نجد أن عدداً غير قليل من هذه النظريات يميل إلى تأكيد الجانب الإدراكى — أو العرفانى — *Ccgnitive* فى الضحك ، كما يظهر من دراسات شيشرون ولوك وكنت وجان پول (رشتر *Richter*) وشوپنهور وليپس ورنوڤييه وغيرهم...وهؤلاء الباحثون قد أجمعوا على تفسير الضحك بالتناقض أو الاستحالة أو الانحراف عن المنطق ، بدعوى أن أى موقف لا يمكن أن يكون فكاهياً إلا إذا انطوى على ضرب من المفارقة أو التنافر أو الاختلال فى القياس . و يربط دوجا *Dugas* بين الضحك واللعب فيقول : « إن كل شىء قد يصبح مثاراً للضحك ، ولا شىء قد يكون كذلك . و بيت القصيد هنا هو الزاوية التى ننظر منها إلى الأشياء . فإذا مانظرنا إلى الشىء من وجهة نظر لاهية ، بدا لنا الشىء فى الحال باعثاً على الضحك . » وأما المقصود باللهو أو « اللعب » *le jeu* فى نظر هذا الباحث فهواستخدام الخيال فى النظر إلى الأشياء ، بحيث نعامل الواقعى على أنه لا واقعى ، ونعامل اللاواقعى على أنه واقعى . ومن هنا فإن « للتناقض » دوراً هاماً فى شتى أنواع الفكاهة ، لأنه هو الذى يؤكد عامل « اللاواقعية » *L'Irréalité* ،

واللاواقعية هي الصبغة المميزة للشيء المضحك أو للموضوع الفكاهي بصفة عامة (١) .

ويؤكد باحث آخر هو شاپيرو *Chapiro* هذه الصبغة اللاواقعية التخيلية التي تميز الضحك ، فيقول: إن «الاستحالة التي تكمن في صميم الشيء المضحك هي عبارة عن مفارقة حسية عيانية ظاهرة . . . ولكن ؛ لما لم يكن « للمُحال » أي موضع في صميم شعورنا بالواقع ، فإنه مايكاد « المُحال » يُدْرَكَ ، حتى يبادر الشعور إلى طرده ، لأنه يرى فيه علامة على اللاواقعيّة أو اللاوجود » . وإذن فالضحك إنما ينشأ حينما ينفذ «التناقض» إلى صميم شعورنا ، فنقع ضحية لذلك « الوهم الكوميدى» *Illusion comique* . ويضرب شاپيرو مثلا لهذه « اللاواقعية الهزلية » فيسوق لنا قصة عائلة بورچوازية لم تجد بُدًّا أثناء حصار باريس من أن تأكل كلبها العزيز ، حتى لاتموت جوعا ! وتجلس ربّة البيت إلى المائدة ، وقد احتوى الطبق أمامها عظام الضحية المسكينة ، فلا تملك سوى إبداء أسفها على فراق كلبها العزيز بقولها : « ياآزور المسكين ! لو كان معنا الآن ، لكان قد اغتبط حقا بهذه الأكلة الشهيّة اللذيذة ! » (٢) .

واللاواقعية في هذا المثال صارخة لا تحتاج إلى تعليق !

---

(١) *cf. Dugas: «Psychologie du Rire», 1902, cité par Lalo, op. cit., p. 94—95.*

(٢) *M. Chapiro.: «L'Illusion Comique», Paris, 1941, (Ibid., pp. 95-6.)*

وعلى حين يؤكد شاپيرو ما فى المواقف الفكاهية من استحالة وتناقض ولاواقعية ، نجد أن باحثاً آخر ألا وهو سُولْنيه *Saulnier* يقرر أن الضحك هو انتقال من الجدى إلى غير الجدىّ ، أو هو تذبذب للعقل بين الواقعىّ واللاواقعى . ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يكون الموقف مضحكاً إلاّ إذا أحدث لدى العقل ضرباً من التذبذب أو التأرجح أو الانتقال بين هذين القطبين المتنافرين المتعارضين . فالمعيار الذى يقترحه هذا الباحث لتمييز الفكاهة هو تذبذب الفكر بين الواقعىّ المُدْرَك واللاواقعىّ المستحيل (١) .

وكان شوبنهور قد علّل الضحك بقوله : إنه مجرد تعبير عن إدراكنا المفاجئ لضرب من التنافر بين مفهوم عقلىّ تصوّرناه من قبل وبين بعض الموضوعات الحقيقية التى تتكشّف عنها الواقع أمامنا على حين فجأة ، فجاء ليبس *Lipps* وقرّر أن الضحك عملية ربط تمّ بين تصوّرين أحدهما هامّ عظيم القيمة ، والآخر تافه ضئيل الشأن . والموقف الهزلىّ إنما ينشأ حينما يتحقق المرء من وجود ضرب من « التباين » *contraste* بين التصورين ، أو حينما ينتقل الفكر من إدراك « الشىء العظيم الهامّ » إلى إدراك « الشىء الصغير التافه » ، أو العكس . ويضرب ليبس مثلاً لذلك فيقول : إننا حينما نرى طفلاً صغيراً يرتدى قبعة والده الكبيرة التى

---

(١) *cf. Saulnier: «Le Sens du Comique», Paris, 1940 Ch. II.*

يرتديها فى المناسبات الرسمية لا نملك سوى أن نضحك ؛ ونحن هنا ننتقل من القبعة الكبيرة إلى رأس ذلك الإنسان الصغير ، فنضحك لمرأى الطفل ! وعلى العكس من ذلك حينما نرى شخصاً بالغاً يرتدى لباس رأس صغير مما يلبسه الأطفال عادة ، فإننا فى هذه الحالة ننتقل من الرأس الكبير إلى لباس الرأس الصغير ، فنضحك لمرأى القبعة ! ويخلص ليبس من هذا إلى أن الكوميديا إنما تنشأ حينما نكون فى انتظار شىء حافل بالمعنى ، نتيجة لإدراكنا لموقف كلى يحملنا على توقع ذلك الشىء ، فلا نلبث أن نجد أنفسنا بإزاء شىء تافه لا يحمل أى معنى لإدراكنا أو عاطفتنا أو فهمنا . . . فالضحك إنما ينشأ عن انحراف مجرى الأحداث أو سياق الحديث أو منطق التصوّرات عما كان الإنسان يتوقعه انحرافاً فجائياً مباغتاً . وكل انتقال من قطب الكِبَر أو العظمة أو الجلال إلى قطب الصِغَر أو التفاهة أو الصّغار لا بدّ من أن يستثير لدينا الضحك . ولولا إدراكنا لهذا « التباين » الصارخ بين القطبين ، لما استجبنا للموقف بالضحك[1] .

٢٩ — والواقع أننا لو استرجعنا ما سبق لنا قوله عن أهمية «الرمزية» فى الفكاهة ، لتبيّن لنا بوضوح أهمية العنصر الإدراكى فى الضحك ، ما دامت الطبيعة القصوى لهذه الرمزية إنما تقوم على الربط بين عناصر

(١) *cf. Charles Lalo : «Esthétique du Rire», Ch. I. VI Partie, p. 109—110.*

هى فى صميمها عقلية وليست واقعية . ومعنى هذا أن الرمزية لا تخرج فى الحقيقة عن كونها مظهراً خاصاً من مظاهر تلك العملية النفسية التى يتم فيها ضرب من الخلط (أو المزج) بين أشياء مختلفة أو أحداث متباينة أو ميول متنوّعة ، ونعنى بها عملية « التكثيف » *condensation* (كما يسمّيها علماء التحليل النفسى) . ويذهب بعض الباحثين فى هذا الصدد إلى أن عملية « التكثيف » هى التى تضمن لنا توفر عنصر « الإيجاز » *Brevity* الذى قال عنه شكسپير إنه « روح » الدعابة أو النكتة . وكثير من الكلمات اللاذعة أو « القفشات » البارعة التى نضحك لها من كل قلوبنا ، لا تعدو هذا النوع من الفكاهة ، لأنها تقوم فى جوهرها على نوع من الإيجاز البليغ الذى يخفى وراءه نقدا لاذعاً ، كأنْ نعرّف « النصيحة » بأنها « أرخص نقد متداول » و « المجاملة » بأنها « أحبّ ضروب الرياء إلى الناس » و « الجبان » بأنه « مَنْ إذا نزل بساحته خطر داهم ، كان عقله فى رجليه » ، و « الأنانىّ » بأنه « كل امرىء فاسد الذوق ، اهتمامه بنفسه أكثر من اهتمامه بى أنا » إلخ .

وليست « التوريات » اللفظية *Puns* سوى ألاعيب لغوية تقوم أيضاً على عملية « التكثيف » ، لأننا هنا نُحمّل اللفظ الواحد معنيين ، فنجعل الذهن ينتقل فى لحظة واحدة من معنى إلى آخر ، وبذلك ننتزع

منه استجابة الضحك . والأمثلة عديدة لا حصر لها على هذا النوع من النكات ، وهى جميعاً تقوم على ازدواج المعنى أو التلاعب اللفظى ، وفى كتب الأقدمين شواهد كثيرة على هذا الضرب من الفكاهات اللغوية . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى من أنه ركب ذات يوم سيارة أحد الأصدقاء ، فتعطلت بهما السيارة لخلل طرأ على أسلاكها الكهربائية . وهبط الشيخ من العربة ، وسار فى طريقه لا يلوى على شىء . . . فسأله صديقه : « رايح فين يا شيخ عبد العزيز ؟ » ، فأجابه الشيخ : « رايح أركب سيارة حسنة السير والسلوك » ! وهناك نكتة أخرى من هذا النوع تدور حول مقابلة تمت بين « لمبة غاز » و « لمبة كهرباء » ، فقد أرادت الأولى منهما أن ترحب بالثانية ، فقدمت لها « سيجارة » ، وعندئذ قالت لها « لمبة الكهرباء » : « متشكرة جدا ، أنا ما بادخنش » ! !

وكثير من النكات الجنسية التى تستثير لدينا الضحك إنما تعتمد على هذا النوع من التلاعب اللفظىّ . وإن القارىء ليتذكر بلا شك كثيراً من الفكاهات الجنسية التى تلعب فيها « التورية » الدور الرئيسىّ ، ولكن كاتب هذه السطور يستميح القارىء العذر فى أن يروى له نكتة من هذا القبيل أتيح له أن يستمع إليها عَرَضاً : فقد وقف المترو القادم من مصر بمحطة كوبرى الليمون فى طريقه إلى مصر الجديدة ، وكان

« الـكمسارى » مشغولاً بالتطلّع إلى فتاة كانت تذرع المحطة جيئة وذهاباً ، ولم يكن فيها من جمال سوى بروز صدرها الناهد ! وفى تلك اللحظة بالذات سأله راكب : « منشية البكرى من فضلك ؟ » ، فأجابه المحصّل وهو يواصل تطلّعه إلى الفتاة : « لا ، الصّدْر بَسْ » !

وقد اختلف الباحثون فى تعليل السبب الذى من أجله تستثير التوريات ضحكنا ، فذهب برجسون إلى أن التلاعب اللفظى هو فى نظرنا مظهر من مظاهر إطلاق العنان للغة ، وكأنّ اللغة عندئذ تنسى أو تتناسى غايتها الحقيقية ، فتريد هى أن تتحكّم فى الأشياء ، بدلاً من أن تدع الأشياء تتحكّم فيها . ومعنى هذا أن التلاعب اللفظى فى نظر برجسون هو الدليل على انحراف اللغة انحرافاً مؤقتاً ، وكأنّ الألفاظ تريد هى الأخرى أن تلهو وتعبث ؛ وهـذا اللهو أو ذلك العبث هو السرّ فى ضحكنا[١] . أمّا پانيول فإنه يقول : إن الأصل فى اللغة أن تـكون الخادمة المطيعة للفـكر ، تسايره وتطاوعه وتلين له . فإذا ما أصبحت اللغة هى الحاكمة المسيطرة على الفـكر ، بدا لنا الشخص الذى يتكلم على هذا النحو وكأنما هو مخمور يهذى أو محموم « يُهَلْوِس » ! وحينما تتاح للمرء الفرصة لأن يشهد ضرباً من المساجلة اللفظية بين شخصين يتحكم فيهما منطق الألفاظ ، فإن أول ما يخطر على باله هو أن كُلا منهما ليس

---

(١) H. Bergson: «Le Rire», Ch. II., Le Comique de Mots, 1946, p92.

بالشخص الذى يُسيِّره عقله ويتحكم فيه تفكيره . وهكذا قد يعدّ المرء نفسه « أسمى » من أمثال هؤلاء الأفراد الذين ينزلون بأنفسهم إلى مستوى المخلوقات العابثة التى تسخر من نفسها بمحض إرادتها ![١]

بيد أننا نرى أن فى أمثال هذه التعليلات الظاهرة « التورية » أو التلاعب اللفظى تعسُّفا لا مبرّر له لأن كل ما هنالك أن عنصر اللهو أو اللعب *Jeu* الماثل فى هذه العمليات الذهنية التى نقوم بها هو الذى يولد لدينا استجابة الضحك . فليست التورية عملية آلية تخضع فيها لمنطق اللغة وحدها — كما وقع فى ظن پانيول — بل الصحيح أنها عملية ذهنية تنطوى على « إيجاز » و « تكثيف » (بالمعنى السيكولوجى لهذه الكلمة) . وإذا كان بعض الباحثين من أمثال شوبنهور ورنوفييه قد ذهبوا إلى أن الضحك — عموماً — هو انتصار للمُحال أو اللاّمعقول على المنطق أو المعقول ، فإن من واجبنا أن نصحّح هذه المقالة بأن نقرر أن الضحك ليس بمثابة تعطيل للعقل وإنكار للمنطق، وإنما هو منطق من نوع خاص ، وبرهنة عقلية هى نَسْج وَحْدِها ! وآية ذلك أن « التورية » التى يعدّها البعض بمثابة تعطيل للفكر هى فى صميمها عملية ذهنية تخفى تحت قناع « التلاعب بالألفاظ » نزوعاً خفيًّا يحاول أن يتستَّر تحت رداء المعنى المزدوج . ولو أننا استرجعنا المثل الذى سقناه لتورية

---

(١) M. Pagnol : «Notes sur le Rire», Nagel, 1947, Le feu de mots, pp. 95 – 97.

طريفة تفوّه بها تلميذ صغير حينما قال : « كل من ينظر إلىَّ ألعنه ، ألا لعنة الله على الناظر ! » ، لوجدنا أن فى هذا المثال تعبيراً عن رغبة ذلك التلميذ الصغير فى تحدّى السلطة والخروج على النظام ، بدليل أن « التورية » هنا هى التى تسمح له بأن يسبّ الناظر ، لاعناً فى شخصه كلّ « ناظر » ! (١) .

وقد تكون الفكاهة أحياناً وليدة فهم حرفىّ للكلمات ، فتستثير الضحك لما يكْمُن وراء هذا الفهم الحرفىّ من دلالة سيكولوجية كالنكتة التى يرويها فرويد عن يهودىّ سئل يوما : « هل أخذت حمّاما ؟ » فما كان منه إلاّ أن أجاب : « كلاَّ ، ولكنْ لمَ ؟ هل نَقص واحد ؟ ! » (٢) — وهذا الردّ إن دلّ على شىء فإنما يدلّ على أن صاحبه شخص يهتم بالكسب أكثر مما يهتم بالنظافة ، بدليل أن أول معنى قد تبادر إلى ذهنه هو فهم كلمة « يأخذ » بمعنى « يسرق » ! وقد يكون الباعث على الضحك أحياناً هو جهل الشخص بمعنى اللفظ الذى يستخدمه ، كما فى حالة الأدعياء والمتقعّرين ، خصوصاً أنصاف العلماء

(١) يحلو لبعض التلاميذ أحيانا أن يسبوا أقرانهم تحت ستار الفكاهة ، فترى الواحد منهم — مثلا — يقول لزميله : « إذا كنت أنت صاحب هذا العمل فلك أن تفخرا ! ! ، ولك ن تفخرا ! ! » . وفى هذا المثل ، تتجلى بوضوح لذة النطق باللفظ المحرم أو الممنوع !

(٢) *Have You taken a bath ? — No, Why? Is there one missing?*

منهم ممن يحلو لهم أن يستخدموا الكثير من الكلمات الأجنبية فى غير معانيها الأصلية . ونحن نذكر كيف كانت المجلات الفكاهية عندنا إلى عهد قريب جدا تجد فى شخص « غنى الحرب » مادة خصبة للتندّر والسخرية . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن أحد أثرياء الحرب من أنه زار الكثير من البلاد الأجنبية ، فلما قال له بعضهم : « إذن فأنت تعرف جغرافية خير معرفة » ، أجاب بقوله : « كلاَّ مع الأسف ، فإنه لم تتح لى الفرصة لزيارتها » ! !

وثمة قصة طريفة رواها لى أحد الأصدقاء فقال : إن رجال التربية والتعليم عندنا حاولوا منذ نحو ثلاثين سنة أو أكثر أن يدخلوا « علم النفس » ضمن برامج التعليم الابتدائى ! ودخل المدرّس أحد فصول السنة الأولى الابتدائية ، فشرع يشرح لهم معنى كلمة « علم » ، ثم راق له بعد ذلك أن يسألهم عن معنى كلمة « نفْس » ، فقال لهم : « مين فيكم يا شُطّار يعرف يعنى إيه نفس ؟ » . وهنا رفع تلميذ صغير يده طالباً الإجابة ، ثم عاد فأنزلها بسرعة . فقال له المدرّس : « انت يا شاطر يا اللّى فى الآخر ، عايز تقول حاجة ؟ » فأجابه التلميذ : « لا ، عيب يا افندم » . وعاد المدرّس يسأله : « إيه هو اللّى عيب يا شاطر ؟ » . فقال التلميذ : « أصل « نفس » يعنى حمامة ! » وعاد المدرس يستوضحه : « حمامة إيه يا ولد ؟ » ، فإذا بالتلميذ يجيبه : « أصل ماما لما باجى أعمل زىّ الناس ، بتقول لى عيب يا ولد غطّى نفسك » ! .

ولا نرانا فى حاجة إلى أن نقرر أن الخطأ اللفظى أو اللسانى كثيراً ما يكون باعثاً على الضحك ، فإن هذه حقيقة نعرف جميعاً كيف يستغلها فى كثير من الأحيان كُتّاب الروايات الهزلية ومؤلفو المونولوجات الفكاهية . وكثيراً ما تكون التراجم الحرفية (من لغة إلى أخرى) مناسبة طريفة لإثارة الضحك ، خصوصاً حينما تجىء الترجمة ركيكة مفككة ، أو حينما تجىء منطوية على تورية غير مقصودة . . . الخ . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن فتاة إنجليزية من أنها علّقت على قصة ضبط فيكتور هيجو متلبّسا بجريمة زنى *En flagrant délit d'adultère* بقولها *« M. Hugo a été pris flagrant dans le lit »* ! . وقد جمع بيرسون وتيلور فى كتابهما المسمّى باسم « الفرنسية المكسورة »[1] مجموعة من الدعابات اللفظية الناشئة عن الخلط الطريف بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وألحقا بها بعض الرسوم الكاريكاتورية المناسبة ، فترجما مثلاً العبارة الفرنسية *«Mise en scène»* (ومعناها إخراج فنّى بالعربية) بالجملة الإنجليزية *«There are mice in the river»* ، ورسما إلى جوارها صورة لفتاة مرتعبة ، وقد رفعت هُدْب ثوبها ، مُشمّرة عن ساقيها ، على شاطىء نهر السين ، أمام كاتدرائية نوتردام ! كذلك ترجما التعبير الفرنسى *«Pis aller»* بالجملة الإنجليزية

---

(١) *F. S. Pearson & R. Taylor: «Fractured French» London, 1951.*

you have to cross over ، ووضعا إلى جوارها رسما كاريكاتوريا يمثل محطة ريفية من محطات السكة الحديدية الفرنسية ، وبها دورة مياه كُتب عليها « رجال » من ناحية ، و « سيدات » من ناحية أخرى ! وفى هذا المثال الأخير ، نجد أنفسنا بإزاء فكاهة تقوم على الربط بين لغتين ، وتستند إلى الجمع بين الصورتين اللفظية والبصرية .

٣٠ — وهذا النوع من الفكاهة يقودنا إلى الحديث عن الضحك القائم على إدراك المفارقة أو التنافر أو انعدام التجانس ، كما فى الكثير من روائع الفكاهة الكلاسيكية المعروفة . والفكاهة هنا إنما تنحصر فى التأليف بين عناصر مُتباعدة فى الواقع ، أو المزج بين حقائق متباينة بطبيعتها ، أو التوفيق بين ظواهر متنافرة فى العالم الخارجى . والأمثلة عديدة لا حصر لها على هذا النوع من الفكاهة ، خصوصاً لدى الأطفال ، كما يظهر من النكات العديدة التى تتضمنها فى العادة مجلاّت الصغار فى شتى المجتمعات . والظاهر أن المفارقات ، بصرية كانت أم سمعية ، تحتل مكانة كبرى فى عالم الفكاهة ، لاعند الأطفال وحدهم ، بل عند البالغين أيضاً ، بدليل أن نسبة كبرى من النكات التى نضحك لها فى حياتنا العادية إنما تقوم على عنصر التنافر أو عدم التجانس . فنحن نضحك حينما نرى مشهداً يتجلى فيه التنافر بين « الشخص » و « البيئة »

---

(١) *Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», 1949, Paris, Flammarion, p. 175*

(أو « الموقف ») ، كأن نرى شخصاً يستدير ليخاطب صديقه الواقف إلى جواره على محطة الترام فإذا به يتحدث إلى حمار أمسك به صاحبه على مقربة منه ، أو كأنْ نرى شخصا بديناً ضخم الجثة يضع فوق رأسه الكبير المتشامخ طربوشاً صغيراً لا يصلح إلاَّ لطفل ، أو كأن نرى كلبا يدخل الكنيسة وينفذ إلى الهيكل وقت الصلاة . . . الخ . وقد روى لنا شوپنهور أن الممثِّل الهزلى جاريك *Garrick* كان يؤدى يوماً دوراً تراجيديا على خشبة المسرح ، فلم يستطع أن يكتم ضحكاته حينما تطلع إلى النظارة فوجد أن أحدهم كان قد خلع شعره المستعار ، ووضعه على رأس كلبه العزيز الذى كان يحتل المقعد المجاور له !

ولا بدّ لنا من أن نلاحظ أن المفارقة وثيقة الصلة بالاستحالة ، فإن عنصر المبالغة أو التهويل إذا انضاف إلى عنصر التنافر أوالمفارقة لم يلبث أن يخرج بالموقف كلّه إلى عالم آخر هو عالم الاستحالة . وقد سبق لنا أن رأينا كيف أن من شأن بعض النكات أن تنقلنا إلى عالم خيالىّ يُحرِّرنا — إلى حين — من عالم الحقيقة . وهنا تتخذ النكتة طابع التفكير البدائى ، فنكون بإزاء ضرب من الحلم أو الهُذاء أو الابتكار السكيزوفرينى [1] . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يرويه الكثيرون من أهل الفكاهة عندنا (خصوصاً أصحاب برنامج ساعة لقلبك) ، كأنْ

---

(١) نسبة إلى مرض السكيزوفرينيا ***Schizophrenia*** (أو الفصام) الذى يقترن فى العادة ببعض الهلوسات والهذاءات ومظاهر البعد عن الواقع .

يقول أحدهم إنه ركب طائرة من نوع ردئ ، فكان الركاب يُضطَّرون بين الحين والآخر إلى أن ينزلوا جميعا لكى يدفعوا بالطائرة إلى الأمام ، فما تكاد الطائرة تمشى قليلا حتى تعود إلى التوقف ، وهكذا دواليك ! — والواقع أننا كثيراً ما ننفجر ضاحكين حينما يروى لنا أحدهم نكتة ساذجة تنطوى على استحالة مادية أو عقلية ، وكأنما نحن نجد لذة كبرى فى أن نعود بعقولنا إلى مرحلة الطفولة التى كنّا نستمرئ فيها أحاديث الجن والعفاريت ، وأخيلة ألف ليلة وليلة ! وكثيراً ما تكون صيغة « المبالغة » وحدها كافية لاستثارة عاصفة من الضحك لدى النظارة أو المستمعين كَأَنْ يقول ممثّل هزلى فى معرض التدليل على بدانة سيدة إنه تعب فى اللفّ حولها ولم يستطع إكمال الدورة ، أو كَأَنْ يدلّل على بطء حلاّقه الكسول بأن يقول إنه ما كاد يفرغ من عملية الحلاقة حتى كان شعره قد نبت من جديد ! . . الخ . ونحن فى مصر نملك ثروة ضخمة من الأمثال العامية التى تستثير ضحكنا لما فيها من عنصر إغراق أو تهويل ، كهذا المثل الذى يبالغ فى وصف حب المصريات للنسل فيقول : « حبلى ومرضعة ، وجَرّة أربعة ، وطالعة الجبل ، طالبة الحبَل » ! ، أو كذلك المثل الآخر الذى يبالغ فى تأكيد حب الأمهات لأبنائهن وإعجابهن بهم ولو كانوا فى دمامة القردة فيقول : « الخنفسا شافت ولادها عَ الحيط ، قالت للجعران أمّا لولى وملضّم فى خيط ! » . ويدخل فى هذا النوع من الفكاهة تلك النكات الكلاسيكية القائمة على « القَشْر والمَغْر » ،

كأنْ يقول أحدهم إنه رأى « قنبيطة » نمت فى حقله بلغ وزنها عدة قناطير ! ورد عليه أحد المستمعين فقال له إنه رأى « وعاء » يُصْنع ، يمكنه أن يتسع لأهل مدينة بأسرها . . . وعاد الأول يكذّبه ، فرد عليه الثانى بقوله : لعلّه صُنع لطبخ قنبيطتكم» ! — ونكات « الفَشْر » متداولة عندنا بَيْن النساء بصفة خاصة ، نظراً لما عُرف عنهن من نزوع نحو المبالغة ، وحبّ للتفاخر والمباهاة ، وميل نحو الاسترسال فى أحلام اليقظة ، أو الخلْط بين الواقع والحلم !

والظاهر أن كل تلك الأنواع العديدة من الفكاهة التى تقوم على « المفارقة » إنما تنطوى فى صميمها — كما أسلفنا — على ضرب من الارتداد أو النكوص نحو مرحلة الطفولة ، بما فيها من حب للهو واللّعب ، وتعبير عن الخيال الخصب والقدرة المطلقة *Omnipotence* . وتبعاً لذلك فقد تكون الفكاهات القائمة على المفارقة هى أكثر أنواع الفكاهة تعبيراً عما سمّاه فرويد باسم « الدعابة البريئة » *harmless* ، فى حين أن ثمة فكاهات أخرى يطلق عليها صاحب مدرسة التحليل النفسى اسم « الدعابة المُغْرضة » *tendentious* ، وتلك هى الفكاهات التى تشبع فى نفوسنا بعض الميول العدوانية أو النوازع الجنسية أو الأغراض الشخصية . ويذهب بعض الباحثين إلى أنه إذا كان فى هذا النوع من الفكاهة البريئة ضرب من الارتداد نحو مرحلة الطفولة ، بما فيها من حب للعب وتعلق باللهو وميل إلى التسلية ، فذلك

لأن الإنسان البالغ قد يشعر أحياناً بحاجة ملحة إلى الاستخفاف بالمنطق والسخرية من الواقع ، وكأنما هو يريد أن يبذل أقل جهد عقلى ممكن ، أو أنْ ينتقل بنفسه إلى مستوى آخر من مستويات التفكير فى الواقع .

بيد أن استخفاف الإنسان بالمنطق لا بدّ من أن يتخذ صورة منطق جديد يختل فيه القياس فيكون هذا الاختلال نفسه باعثاً على الضحك . ونحن نعرف قياس إپيمنيدس الكريتى *Epiménide le crétois* الذى يقول فيه إن كل أهل كريت كاذبون ، وبما أن إپيمنيدس نفسه من كريت ، إذن فهو كاذب ؛ ومن ثمّ فإن أهل كريت صادقون ، وبما أن إپيمنيدس نفسه من كريت فهو صادق ، وهلم جرًّا . . . . وهناك مغالطات أخرى من هذا النوع تستثير ضحكنا لما فيها من منطق زائف كالقياس الذى يقول : — كل نادر غالى الثمن ؛ وبما أن الحلى الرّخيصة نادرة ؛ إذن فالحلى الرخيصة غالية الثمن ! ولعل من هذا القبيل أيضاً تلك المغالطة التى يعمد فيها الإنسان إلى الاستخفاف بالرياضة (رمز الدقة واليقين المطلق) فيقول : إن الزجاجة الفارغة إلى نصفها تساوى الزجاجة الممتلئة إلى نصفها ، فإذا افترضنا أن سعة الزجاجة هى لتر واحد أمكننا أن نقول إن $\frac{\text{ز م}}{٢} = \frac{\text{ز ف}}{٢}$ ، وباستبعاد المقام المشترك (ألا وهو ٢) نصل إلى النتيجة التالية : ز م = ز ف ، أى أن أن الزجاجة الممتلئة تساوى الزجاجة الفارغة . وثمة مغالطة رياضية أخرى نستطيع فيها أن

تثبت أن ١ = ٢ ، فنقول : س^{٢} — س^{٢} = س^{٢} — س^{٢} . ؟
س (س — س) = (س + س) (س — س) . — وبالقسمة على (س — س) نصل إلى النتيجة التالية : إذن س = س + س
∴ ١ = ٢ ! !

وفى كل هذه المغالطات ، نجد أن عقل الموجود الناطق يريد أن يلهو ويلعب ، فهو يستخف بالمنطق ويتلاعب بالقياس ويسخر من الرياضة ، وكأنما هو يريد أن يعبر عن ضيقه بتلك القواعد العقلية الصارمة التى تطّرد دائما على نسق واحد ، أوكأنما هو يريد أن يضع لنفسه منطقاً آخر يرتاح إلى ما فيه من مرونة وحرية وانطلاق !

. . . ويروى لنا فى هذا الصدد أحد الباحثين أن شابا يهودياً اسمه « جاكوب » دخل يوماً دكان بائع حلوى ، لـكى يشترى قطعة من « البقلاوة » . ولـكنه لم يلبث أن وجد أن قطعة « الـكنافة » الـكبيرة تباع بنفس الثمن ، فطلب إلى البائع أن يستبدل بقطعة « البقلاوة » قطعة من « الـكنافة » . وأخذ الشاب قطعة الحلوى واتجه نحو باب المحل قاصداً الخروج ، فصاح فيه البائع : « ولـكنك لم تدفع ثمن قطعة الـكنافة التى تحملها ؟ ! » فأجابه الشاب : « معذرة يا سيدى ، ولـكنك تنسى أننى أخذتها بدلا من قطعة البقلاوة ! » وعاد البائع يقول : « ولـكنك لم تدفع ثمن قطعة البقلاوة ! » ، فأجابه اليهودىّ : « عجباً لك يا سيّدى ! وهل تريدنى على أن أدفع ثمن شىء لم آخذه » !

ولو أننا أنعمنا النظر فى هذه القصة ، لوجدنا أن « المغالطة » التى تنطوى عليها ليست مجرَّد تعبير عن اللهو واللعب ، و إنما هى مغالطة خبيثة مغرضة . والواقع أن تقسيم الفكاهة إلى « فكاهة بريئة » و « فكاهة مُغرضة » سرعان ما يثير مشكلة سيكولوجية هامة ، وتلك هى مشكلة « البراءة » المزعومة التى ننسبها إلى بعض الفكاهات . وهنا يقرر بعض الباحثين أنه مهما كان من أهمية عنصر اللهو أو التسلية البريئة فى كثير من الفكاهات ، فإنه لا بدّ من أن يكون ثمة « غرض » أو « ميل » يكمن وراء ذلك المظهر البرىء . وسواء أكان هذا الميل جنسيًّا أم عدوانيًّا أم معبّراً عن أية رغبة أخرى ، فإن من المؤكد أنه كامِنٌ وراء الكثير من النكات البريئة التى قد يتصنّع أصحابها السذاجة وحسن النية . وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة المعلّم الذى كان يراجع الواجب المنزلى لأحد التلاميذ فقال له : « إننى لأعجب حقا كيف استطاع شخص واحد أن يقع فى كل هذا العدد الكبير من الأغلاط ! » فما كان من التلميذ سوى أن أجابه بقوله : « كلا يا سيّدى ، إنه لم يكن شخصا واحداً ، فقد ساعدنى أبى فيه » ! ! وقد روى لى أحد تلاميذى الظرفاء أنه كان يشرح يوماً درساً فى التربية الوطنية ، فظلّ يتحدث طويلاً عن التضحية والإيثار وبذل الذات ، ومضى يبيّن لتلاميذه كيف أن المواطن الصالح الذى يضحّى بنفسه فى سبيل أمّته لا بد من أن يظفر بنعمة الخلود ، وكيف أن الرجل الوطنىّ الصادق الذى يبذل من ذات نفسه للآخرين هو الذى يبقى

اسمه مُخلَّدا فى صفحات التاريخ . . . الخ . وفى ختام الدرس أراد صاحبنا أن يستمع لتلاميذه النجباء تلك المبادىء الأخلاقية السامية فسألهم قائلاً : « والآن يا أبنائى ، بماذا نسمّى الشخص الذى يضحّى بنفسه فى سبيل الآخرين ؟ » . وهنا صمت التلاميذ جميعاً ، فعاد المدرّس يقول لهم : « الشخص اللى يضحّى بنفسه و بمصلحته فى سبيل بنى وطنه . . . يبقى شخص إيه ؟ . . . شخص خا . . . خا . . . » . وهنا وقف تلميذ خبيث وقال له : « خايب يا افندم » ! وللقارىء بعد ذلك أن يحكم على مدى سخرية هذه الإجابة بما فيها من تهكّم لاذع على المدرّس الألمعىّ وقصّته عن الخلود والخالدين !

حقا إن درجة البراءة أو الخبث فى الفكاهة قد تختلف من نكتة إلى أخرى ، ومن شخص إلى آخر ، فإن من المؤكد أن بعض فكاهات الصغار قد تخلو أحياناً من عنصر الخبث وسوء النية (كقصة الطفل الصغير الذى سأل جدته قائلاً : متى تبدأين يا جدتى العزيزة فى لعب الكرة ؟ ، فأجابته الجدّة : إننى يا صغيرى المحبوب لا أستطيع أن أفعل ذلك ! فقال لها الطفل : ولكن أبى قال إنه سيشترى لنا سيارة حينما تبدأ جدتك فى لعب الكرة !) ، ولكن من الواضح أن ثمة نكات تستمد كل ما فيها من طابع فكاهىّ مُضْحِك مما يشيع فيها من خبث وسوء طويّة ! والواقع أن سُلَّم الفكاهة يتدرّج ابتداء من

تلك النكات الساذجة التى تتّسم بروح البراءة وحسن النية ، حتى تلك النكات المُغرِضة التى تتجلّى فيها روح الخبث وسوء الطويّة . والأمثلة عديدة لا حَصْر لها على هذا النوع الأخير من النكات ، فمن ذلك — مثلاً — ما يُروى عن الزوج المريض الذى سا ل زوجته يوماً : « اسمعى يا عزيزتى ؛ إننى أرى أن (فلاناً) يتردَّد على بيتنا بكثرة فى هذه الأيام ، فهل تعدينني بعدم الزواج منه بعد موتى ؟ » ، فأجابته الزوجة : « اطمئن يا عزيزى ، فقد سبق لى أن وعدتُ الطبيب الذى يشرف على علاجك ! » . وللقارىء أن يتصوَّر مدى السخرية التى ينطوى عليها هذا الردّ ، خصوصاً وأن فيها من المفاجأة السيئة للزوج المسكين ما يكفى لإزالة كل طمأنينة قد تكون فى نفسه عن حسن سير علاجه ! . ويروى لنا فرويد نكتة أخرى من هذا القبيل فيقول : إن زائراً شهد فى حجرة الاستقبال عند جماعة من الأصدقاء صورة معلَّقة على الحائط تمثل شخصيَّتين كبيرتين من شخصيَّات العائلة ، وقد وضعت صورة الواحد منهما على اليمين وصورة الآخر على اليسار فى إطار واحد ضمّ الصورتين . ونظر الزائر فتعرَّف فيهما على رجلين مشهورين من رجال المال ، فما كان منه إلا أن قال : « ولكن أين المخلّص *Le Sauveur* ؟ » . والذين يعرفون قصة صلب المسيح ، وكيف أنهم صلبوا لصَّيْن معه ، واحدًا عن يمينه والآخر عن يساره ، لن يجدوا صعوبة فى أن يفهموا المضمون الخفىّ لهذه النكتة . ويحاول فرويد أن يتخذ

من هذه النادرة دليلاً على صحة نظريته فى الفكاهة باعتبارها ضرباً من الوفْر أو الاقتصاد (*Épargne*) ، فنراه يقول إن صاحب هذه النكتة قد وفّر على نفسه بهذا التلميح الخفىّ الإشارة الصريحة السافرة ، أو الشتيمة العلنية النابية ، فيما لو أنه قال : « إنْ هما إلاّ لصّان ! »(١) .

٣١ — ولكن أيًّا ما كان حظ النكتة من البراءة أو الخبث ، فإن من المؤكد أن العنصر الإدراكى — أو العرفانى — لا بدّ أنْ يلعب دورًا هامًّا فى الغالبية العظمى من النكات على اختلاف أنواعها . والواقع أنه لولا ما تنطوى عليه الفكاهة من منطق أو ذكاء أو سرعة بديهة أو حسن تخلّص أو براعة فى الردّ ، لما كانت مثارًا للضحك على الإطلاق . — حقا إن بعض الفكاهات قد لا تخرج عن كونها وسائط للتنفيس عن بعض الانفعالات المكبوتة ، أو الميول المطويّة ، ولكن العامل الذهنى قلّما ينعدم تماماً فى أى نوع من أنواع الفكاهة . ونحن نضحك كثيرًا لما فى بعض النكات من ذكاء أو منطق خاص ، كما هو الحال مثلاً فى النكتة التى تروى عن أحدهم من أنه كان يفرط فى شرب الخمر ، فلما قيل له : إن الخمر انتحار بطىء ، أجاب بقوله : « ولماذا تريدوننى على أن أنتحر بسرعة ؟ » ولعلّ من هذا القبيل أيضاً

---

(١) *S. Freud: «Le Mot d'Esprit et ses Rapports avec l'Inconscient», Paris, 1930, (cité par Lalo: «Esthétique du Rire», p. 144.)*

ما يروى عن برنارد شو : من أنه جلس يوماً فى حفلة عشاء إلى جوار فتاة جميلة ، فدار بينهما حديث قالت خلاله الفتاة للفيلسوف الإيرلندى الكبير : « لو تزوج رجل مثلك — يا مستر شو — بامرأة مثلى ، لكان لنا بلا شك أذكى الأبناء وأجملهم ! » ، فما كان من برنارد شو سوى أن ردّ عليها بقوله : « ومن يدرى يا آنستى ، فربما ورث أبناؤنا حظّى من الجمال وحظَّك من الذكاء » ؟!

وهنالك كثير من النكات التى تتجلَّى فيها سرعة البديهة أو البراعة فى الإجابة ، بحيث قد يصحّ لنا أن نسمّيها باسم نكات « الرد حاضر » . وكثيراً ما يكون صاحب النكتة فى هذا النوع من الفكاهة سليط اللسان ، فتنضاف البراعة اللغوية إلى سرعة البديهة ، وتخرج من ذلك النكتة البارعة اللاذعة التى لا تدع مجالاً للردّ ! ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن أحد الأطباء الجرّاحين فى أوروبا من أنه كان مشهوراً بأجوره العالية ، فجاءه ذات يوم أحد الأثرياء من رجال الصناعة ؛ وفحصه الطبيب الكبير ، فوجد أنه فى حاجة إلى عملية عاجلة . ثم أضاف قائلاً : « أما الأجر فهو ألف جنيه » ! وعندئذ قال الغنى : « ولكن هذا المبلغ كبير ! » ، فأجابه الجرّاح بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فأنا أقترح عليك أن تذهب إلى الطبيب س : فإنه سيطلب منك نصف هذا الأجر ، ثم إنك لن تدفعه ، لأن ورثتك هم الذين سيتكفّلون بذلك ! » . وقد نلتقى بهذا النوع من النكات لدى بعض الأطفال ،

فنجد فى فكاهاتهم قوة ملاحظة وحسن تعليل ، أو سرعة بديهة و براعة فى الإجابة ، أوقدرة على القياس والاستدلال . وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة ذلك القسّيس الذى ذهب إلى مدينة لم يكن يعرفها من قبل لإلقاء عظة فى كنيستها ولما نزل من القطار ألفى فى جيبه خطاباً وأراد أن يضعه فى البريد . والتقى القسّيس بصبىّ صغير ، فسأله أن يرشده إلى مكتب البريد . وقاد الصبى القسّيس إلى حيث كان مكتب البريد وهنا قال رجل الدين للصبىّ : إننى الليلة سألقى عظة فى الكنيسة وأنصحك بأن تحضرها يا بنىّ لكى أريك الطريق إلى السماء . فتبسّم الصبى ونظر إليه ثم قال : « ولكنك يا سيّدى لا تعرف حتى الطريق إلى مكتب البريد » ! حقا إن فى هذه الإجابة قياساً منطقيّاً واضح النقص ، لأن الطفل يقيس السماء على غيرها من الأماكن التى يمكن الذهاب إليها ، فيخطىء القياس ، ولكن الذى يضحكنا هنا هو على وجه التحديد أن الطفل يقيس قياساً منطقيّاً لايدرى موضع النقص فيه . وكثيراً ماتنطوى ملاحظات الأطفال العادية على بعض الفكاهات الطريفة التى تكشف عن ذكاء وقوة ملاحظة ، كالذى يروى عن طفل صغير جلس يتطلّع إلى إحدى الأشجار من النافذة ، وقد بدت عليه علامات الحيرة الشديدة والتفكير العميق . . . فاقتربت منه أمّه ملاطفة ، وسألته عن سبب ما يبدو عليه من الحيرة والتفكير . فأجابها الطفل وهو يتنهّد : « هذه الأشجار يا ماما أمرها عجيب ! إنها تُسقِط أوراقها فى الشتاء الذى يحتاج

فيه الإنسان إلى غطاء يقيه البرد . . . ثم تستعيد أوراقها فى الصيف الذى نُخفّف فيه ثيابنا من فرط الحرّ » ! . وفى هذا النوع من الفكاهة ، قد تكون فطنة الطفل هى الباعث لنا على الابتسام أو الضحك ، وكأننا نستكثر عليه تلك البراعة العقلية أو الملاحظة الفلسفية التى قد لا نجد لها نظيراً عند بعض البالغين . ومعنى هذا أن تفكير الطفل بأسلوب الرجل الناضج الذى يديم النظر ويتعمّق فى التأمّل هو فى هذه الحالة السبب المباشر الذى قد يدفعنا إلى الابتسام أو الضحك .

٣٢ — هذا وقد تمادى بعض الباحثين فى تأكيد أهمية العامل الإدراكى فى الفكاهة والضحك ، حتى أنهم ذهبوا إلى حدّ إنكار قيمة بعض العوامل الأخرى كالعامل النزوعى أو الوجدانى مثلاً . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما فعله برجسون حينما ذهب إلى أن الضحك يخاطب منا العقل ، وأن من شأن الانفعال أن يفسد علينا فهم الموقف الفكاهىّ . ولا شك أن برجسون حينما قرر أن الانفعال والضحك هما على طرفى نقيض ، فإنه لم يعمل حساباً لتلك النكات الكثيرة والفكاهات العديدة التى لا تخرج عن كونها منافذ مباشرة أو غير مباشرة للانفعال ، كما بيّن لنا بكل وضوح علماء التحليل النفسى فى نظرياتهم عن الضحك باعتباره وسيلة لإطلاق الشحنة الانفعالية المختزنة .

ولـكن ربما كان بعض أفضال نظرية برجسون على الدراسات السيكولوجية للفـكاهة والضحك ، أنها قد أثبتت لنا بشكل قاطع وجود علاقة وثيقة بين العادات الآلية من جهة والتأثيرات الهزلية من جهة أخرى . فنحن نضحك حينما نجد أنفسنا بإزاء موجودات بشرية تتصرّف كما لو كانت آلات أوتوماتيكية رتيبة الحركة ، أو حينما تقع أنظارنا على مشاهد يتجلى فيها خضوع بعض الأشخاص لجبرية الطبيعة ، وكأنما هم مجرد أشياء ينسحب عليها قانون الجاذبية . . . الخ . فإذا كنتَ جالساً فى قطار ، ثم رأيت شخصاً يقدم إلى العربة ، ومعه الـكثير من الحقائب ؛ ولـكنه يريد أن يتثبَّت من أنه لم يَنْسَ شيئا ، فيقول على مَسْمع منك : « أربعة ، خمسة ، ستة ، مراتى سبعة ، ومحمد ثمانية ، وأنا تسعة » ! ، فإنك عندئذ لا بدّ من أن تستجيب لهذه العبارة بالضحك ! وإذا كنت تستمع إلى خطبة مؤثّرة لواعظ بليغ ما يكاد يندفع فى حماسته ويتدفق فى خطابته ، حتى يقطع حديثه لـكى يقول : « آخ يا ناس ، بَسْ لو ما كانتش الجزمة ضـيّقة وواجعة صوابعى خالص » ! ، فإنك تضحك لهذا الانتقال الفجائىّ من أمور النفس إلى أمور البدن ، ومن سموّ الروح إلى مادية الجسد ! وكثير من الفكاهات المسرحية أو الروايات الهزلية التى تستثير لدى النظّارة عاصفة شديدة من الضحك (كما فى تمثيليات موليير أو لابيش *Labiche*) لا تخرج عن كونها مواقف كوميدية يتجلىّ فيها ارتداد بعض الشخصيات نحو

مرحلة الجماد بما فيها من آلية ورتابة واطراد . ومعنى هذا — على حدّ تعبير برجسون نفسه — أن كل انحراف للحياة فى اتجاه الآلية لا بدّ من أن يولّد لدينا الضحك[١] . وسواء اتخذ هذا الانحراف صورة سلوك آلىّ رتيب ، أو فعل متكرّر يطّرد على وتيرة واحدة ، أو عبارة مُعادة يردّدها اللسان على فترات منتظمة ، أو عادة ميكانيكية يلتزمها الشخص حتى حين لا يكون ثمة داع إليها ، أو « لازمة » حركية يؤدّيها الوجه بين الحين والآخر بصورة آلية مطردة ، فإننا فى كل هذه الحالات لا بدّ من أن نستجيب للموقف بالضحك . وإذا كانت الدمى الخشبية (أو الأراجوز) *Marionnettes* كثيراً ما تستثير لدينا الضحك ، فذلك لأننا نجد فيها صوراً آدمية تتحرك حركة آلية محضة . وقد نجد أنفسنا بإزاء وجهين متشابهين تماماً ، فنضحك لما بينهما من تشابه ، بينما نحن لا نضحك عند رؤية كل وجه منهما على حدة . والحركة الواحدة يصدرها الخطيب قد لا تستثير ضحكنا ، ولكنها إذ اتكررت على فترات متقطعة ، لا تلبث أن تصبح باعثة على الضحك ، لأنها عندئذ تصبح بمثابة فعل آلىّ يوحى إلينا بسلوك الجهاز الميكانيكىّ الرتيب ! — وهكذا يخلص برجسون إلى القول بأن الهزلىّ هو « الآلىّ مصبوباً فوق الحىّ » *Du mécanique plaqué sur du vivant*[٢].

---

(١) *H. Bergson*: «<u>*Le Rire*</u>», *Paris, P. U. F., 67e éd., 1946, p 26.*

(٢) <u>*Ibid.*</u>, *p. 29.*

بيد أنه ربما كان فى استطاعتنا أن نأخذ على برجسون أنه يرى فى الضحك مجرد انتكاس فى مجرى الرقىّ والتقدُّم ، مما جعله يقصر الفكاهة على ارتداد الحىّ نحو مرحلة الجماد . ولكنْ ألا يحدث أحياناً أن تكون الصبغة الهزلية معبّرة عن انصباب « الحىّ » فوق «الآلىّ»؟ إننا لنضحك مثلاً حينما نرى رسّاما كاريكاتوريّا قد نجح فى أن يبعث الحياة فى واجهات منازل متداعية ، كما فعل المصوّر جان فيبير Jean Veber حينما رسم وجوهاً بشرية مُعبّرة على واجهات أطلال متداعية فى قرية من القرى المهجورة النائية . وحينما نكون بإزاء شخصين يهبطان درجا واحداً فى الظلام التامّ ، فيهبط أحدهما بطريقة آلية ، لأنه يعرف جيّدا سُلّم المنزل الذى يسكنه ، بينما يهبط الآخر فى تعثر شديد وباحتراس كبير ، لأنه لا يعرف المكان الذى يرتاده للمرة الأولى ، فإن من الواضح فى هذه الحالة أن أقل الشخصين آليّة هو الذى يستثير ضحكنا . وأما حينما يقول برجسون إن بعض ألاعيب الأطفال كثيراً ما تولّد لدينا الضحك لما فيها من آلية ، فإنه ينسى أو يتناسى أن « العفريت الذى يطلع من العلبة »(١) ليس إلاّ « شيئا آليّاً » صَبَبْنا فوقه مظهراً من مظاهر الحياة ، ومن ثم فإن هذا المثل دليل ضدّه لا معه(٢) .

---

(١) « *Le diable à ressort* »

(٢) *Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Flammarion, 1949 pp. 132—133.*

وقد تصدّى لالو (عالم الجمال الفرنسى المشهور) لنقد نظرية برجسون فى الضحك ، فقال إنها لا تخلو من تعسُّف أملته على الفيلسوف نزعته الحيويّة *Vitaliste* . ولا يقبل لالو مبدأ برجسون فى تفسير شتى مظاهر الفكاهة باعتبارها انحرافاً للحياة نحو الآلية ، بل هو يقرّر أن كل ما من شأنه أن ينحرف بأية قيمة كبرى من القيم نحو قيمة أخرى أصغر ، أو نحو حالة انعدام تامّ للقيمة ، لا بدّ من أن يولّد لدينا استجابة الضحك . فالموقف الجدىّ الخطير الذى لا يلبث أن يتكشف عن موقف تافه عديم الأهمية يستثير لدينا الضحك ، والشخص البدين الذى تروعنا ضخامة جثته فإذا تكلّم جاء صوته رفيعاً كصوت الطفل أو الفتاة ، لا بدّ من أن يولّد لدينا أيضاً استجابة الضحك ، والخطيب المحترم الذى ينتزع إعجابنا بقوة منطقه وبراعة حديثه فإذا به يتوقف عن الحديث لكى يُخْرِج حشرة من ظهر قميصه لا بدّ أيضاً من أن يصبح مثاراً لضحكنا ، وهلمّ جرًّا . . . وفى كل هذه الحالات — كما يقول شارل لالو — لا يكون ضحكنا ناشئاً عن تصرّف الإنسان كما تتصرّف الآلة بغير تمييز بين المتفقات والمختلفات كما زعم برجسون ، وإنما ينشأ ضحكنا عن عملية « هبوط فى القيمة » *(Dévaluation)* تعبّر عن انتقال مفاجىء من نغمة عُلْيا إلى نغمة دُنْيا . والهبوط فى القيمة يساوى (فى نظر لالو) التباين + الانحلال[١] . وهكذا ينتهى هذا الباحث

---

(١) وهى معادلة صاغها لالو كالآتى :

Contraste + Dégradation = Dévaluation

إلى القول بأن ماهية الفكاهة تنحصر فى إظهارنا على المثالب والعيوب حتى نضحك منها ، وليس من شأنها على الإطلاق أن تكشف لنا عن المحاسن والميزات حتى نُعْجَب بها[١] . — أما الضحك الجمالىّ (أو الاستطيقى) فهو نقد للقيم الفردية والجماعية بمناسبة ظهور تفاوت بين قيمتين من بينها ، وهذا النقد يتخذ صورة نغمتين متنافرتين يأتلف من مجموعها عمل فنىّ (على شكل روائىّ أو أدبىّ أو تصويرىّ أو موسيقىّ فى بعض الأحيان)[٢] .

* * *

وأخيراً نرى أن العنصر الإدراكى فى الفكاهة قد يقترن بضرب من التنويه الخفى أو التلميح الذكىّ ، كأن يشير المرء من طرف خفىّ إلى شىء أو شخص أو حَدَث ، دون أن يعرب صراحة عما يقصد ، كما يحدث أحياناً فى الكثير من النكات السياسية والفكاهات الحزبية والدعابات الشخصية . وقد لوحظ أن للكثير من المنظمات الجماعية الصغيرة ، والحلقات الاجتماعية المغلقة ، والعائلات المختلفة كبيرة كانت أم صغيرة ، نكاتها الخاصة التى تعتمد على التنويه أو التلميح أو الإشارة *(Allusion)* ، مما قد لا يفهمه أحد من غير أفرادها . وفى مثل هذه الأحوال ، تتخذ الفكاهة طابعاً خاصا ، فتصطبغ بصبغة المكان والزمان اللَّذْين أحاطا

(١) C. Lalo: «Esthétique du Rire», Ch. II., p. 27.

(٢) Ibid., p. 47.

بنشأتها . وقد يحدث فى موسم من المواسم أن تنتشر أغنية من الأغانى ، فتصبح كلماتها على كل لسان ، وحينئذ لابدّ من أن يضحك الناس حينما تَرِدُ كلمات تلك الأغنية على لسان أستاذ أو خطيب أو سياسىّ (مثلاً) فى معرض حديث جدىّ لا أثر فيه للهزل أو المزاح . وهناك حالات أخرى يصطلح فيها مجموعة من الأصدقاء ، أو يتعارف فيها مجموعة من الطلبة ، على تسمية شخص أو أستاذ باسم معيّن (غالباً ما يكون هزلياًّ) ، فما يكاد يقدم إليهم ذلك الشخص حتى يردّد أحدهم ذلك الاسم المستعار بصوت خافت ، وعندئذ لا يلبث الآخرون أن ينفجروا ضاحكين .

وقد لوحظ أن « التكرار » كثيراً ما يضعف من قيمة « الصبغة الفكاهية » للكثير من الفكاهات ، نظراً لأنه يقضى على ما فيها من عنصر مفاجأة أو دهشة . ولعلّ هذا هو السبب فى أن الجمهور قد يستخفّ راوى النكتة المُعادة بأن يصيح فى وجهه « قديمة » ! ولكن التجربة قد دلتنا — مع ذلك — على أن « التكرار » نفسه قد يكون باعثاً على الضحك ، كما يشاهد أحياناً فى بعض الروايات الفكاهية التى تظل فيها إحدى الشخصيات المسرحية تردّد على فترات متقطعة كلمات واحدة بعينها . وهنا قد يحق لنا أن نقول مع برجسون إنه ربما كان السبب فى تولّد الضحك عن عامل « التكرار » هو مافيه من آلية ورتابة واطراد . ولكنْ بينما يتسامح الطفل فى الاستماع إلى نكتة مُعادة (لأن عنصر التكرار عنده لا يُفقد النكتة كل قيمتها) نجد أن الشخص البالغ قلما

يرحّب بالفكاهة المعادة . ومع ذلك ، فإن بعض الباحثين يميل إلى القول بأن ثمة نكات تظل محتفظة بكل قيمتها الفكاهية على الرغم من هذا التكرار ، ولعلّ فى مقدمتها النكات البريئة الساذجة والفكاهات المتصلة ببعض المتاعب الشخصية . أما النكات التى تفقد قيمتها بالتكرار فهى التى تقوم على سرعة البديهة أو حسن الردّ أو التلاعب اللفظى أو التورية أو « الردّ الخالص» ... الخ . وهناك تجارب خاصة (لا نستطيع الإشارة إليها نظراً لضيق المقام) قام بإجرائها بعض علماء النفس لمعرفة مدى ضيق الجمهور بالنكات المعادة ، ومدى ترحيبه بسماع بعض الفكاهات القديمة . ولكن هذه البحوث قد تكون أدخل فى باب علم الجمال منها فى باب علم النفس ، لأنها تتصل بالكوميديا الفنية ومدى تذوّق الجمهور لها ونوع استجابته لها فى كل مرة .

الفصل التاسع

فن الكوميديا ودلالته الجمالية

٣٣ — رأينا فيما تقدم كيف أن ثمة ضرباً من اللهو أو العبث أو الحماقة *(Stupidity)* فى تلك المواقف الارتدادية التى تنطوى عليها الفكاهة نظراً ، لما فى النكوص نحو مرحلة الطفولة من تخلٍّ عن روح الجدّ والواقعية والنضج العقلىّ . والواقع أنه حينما يستجيب المرء لموقف جديد بروح العادة والروتين ، فى حين أن طبيعة هذا الموقف تقتضى العمل على تحقيق ضرب من التكيف العقلى ، فإن مثل هذا التصرّف قد يبعث على الضحك لما فيه من حماقة أو بلاهة أو قصر نظر . ولكنْ ليس معنى هذا أن سائر الاستجابات العادية غير الملائمة لا بدّ بالضرورة من أن تستثير لدينا عاصفة من الضحك ، وإنما ينبغى أن تتوافر فى تلك الاستجابات بعض العناصر الإدراكية التى أشرنا إليها من قبل (كالتكثيف أو المفارقة أو التلاعب اللفظى . . . الخ) حتى تكتسب صبغة فكاهية يمكن أن تولّد لدينا استجابة الابتسام أو الضحك . وقد يكون من الحديث المعاد أن نقرر أن الضحك عند « الحيوان الناطق » هو فى جانب منه عملية عقلية تقترن بالكثير من مظاهر النشاط الذهنى كالفطنة وسرعة البديهة والسخرية والتهكّم والقدرة على التلميح

والبراعة فى الردّ والتفنُّن فى ابتكار الألاعيب اللفظية ... الخ . ولكنْ ، على الرغم مما فى الفكاهة من ازدراء للواقع ، واستخفاف بمنطق الحياة الجدية ، فإن للفكاهة منطقها الخاص الذى قد لا يخلو من كل صبغة عقلية . وربّما كانت « السكوميديا » هى أكثر أنواع الفكاهة اعتماداً على العقل ، فإن لهذا النوع من الفكاهة منطقه الخاص الذى يخاطب منا العقل أكثر مما يخاطب العاطفة أو الوجدان .

ولو أننا رجعنا إلى تصنيف بعض علماء النفس لضروب الهزل ، لوجدنا أنهم يقسمونها إلى ثلاثة أنواع هى : « الفكاهة » *Humour* ، و « النكتة » *Esprit* ، و « السكوميديا » *comique* . وقد رأينا من قبل كيف أن هذه الأنواع الثلاثة تقابل فى حياتنا النفسية ، على التعاقب ، الوجدان والنزوع والإدراك(١) . فالسكوميديا هى من بين ضروب الهزل جميعا ، أقربها إلى قطب الإدراك أو العرفان أو المنطق ، وهى بالتالى « فن عقلىّ » يقوم كغيره من الفنون على النشاط الإبداعىّ . وإذا صحّ ما قاله دلاكروا من أن الفن صناعة وخَلْق ، أكثر مما هو وجدان وعاطفة ، فإن من واجبنا أن نطبّق هذه الحقيقة على فن السكوميديا فنقول إنه هو الآخر قدرة عقلية على تنظيم الأحلام وبعثها فى جسم حىّ هو ما نسمّيه بالأثر الفنىّ . ولكن الأثر الفنى فى حالة السكوميديا

---

(١) *cf. H. J. Eysenck: «Les Dimensions de la Personnalité »,. P.U.F., 1950, p. 253.*

ليس تصويراً للقيم العليا المُثُل الأخلاقية السامية ، وإنما هو تصوير لمثالب الناس وعيوبهم ونقائصهم ومظاهر ضعفهم فى إطار فنىّ ينطوى على « انسجام معكوس »[١] — *Harmonie Inversée* — .

وإذا كان كثير من الباحثين قد أنكروا على « الكوميديا » كل طابع فنىّ ، فذلك لأنهم قد ظنّوا أن الكوميديا لا يمكن أن توصف بالجمال ما دامت تنصبّ على وصف القبْح والشرّ وشتى القيم الأخلاقية الدُنْيا . ولكنّ هؤلاء ينسون أن « الاستطيقا » — *esthétique* — تدرس الجمال والقبح ، وأن العمل قد يكون فنيًّا على الرغم من أنه يصوّر ضرباً من القبح أو الدمامة . ومعنى هذا أن الجمال والقبح الطبيعيّيْن هما غير الجمال والقبح الفنيّيْن ، وأن ما فى الطبيعة من « قبح » يمكن أن يصبح « جمالا » فى الفنّ ، كما بيّن لنا لالو فى دراسته الكلاسيكية المشهورة للعلاقة بين الفن والطبيعة[٢] . وقد عبّر المثّال الفرنسى المشهور روودان *(Rodin)* عن هذه الحقيقة عينها حين قال فى أحاديثه عن الفن : « إنه لمّا يتبادر إلى أذهان عامة الناس أن ما يرونه قبيحا فى الحياة لا يليق أن يكون موضوعاً للفنّان . . . ولكنّ ما قد يسمّى

(١) Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Paris, Flammarion, 1949, p. 245.

(٢) Ch. Lalo: «Introduction à l'Esthétique», Colin, 1912, pp. 89—105

عادة قبيحاً فى الطبيعة يمكن أن يكون لدى الفنّان عامراً بالجمال . ونحن فى الواقع إنما نسمّى « قبيحاً » كل ما كان مُشوّها أو عليلاً أو مصاباً بمرض ، وكل ما كان ضعيفاً أو مبتلى ، أو ما كان منافيا للمألوف . . . فالأحدب قبيح ، والأعرج قبيح ، والفقر فى الأسمال البالية قبيح . وقبيح أيضاً روح الرجل الفاجر وسلوكه ، والرجل الخبيث المجرم ، والرجل الشاذّ الذى يكون بلية على المجتمع ؛ وقبيح أيضاً روح كل دنىء المطامع . الخ . ولكن دع فنانا مبرزا أو كاتبا نابها يتناول بفنه قبحا واحداً أو أكثر مما ذكرنا ، فسرعان ما يتحول على يديه هذا القبح وسرعان ما ينقلب بلمسة من عصاه السحرية إلى جمال رائع !! إنّ هذه لهى كيمياء الأقدمين ؛ أستغفر الله ، بل إنه السحر المبين » ![1]

وإذن فليس بدعا أن يكتسب الضحك طابعا « جَماليا » *Esthétique* ، على الرغم من أنه ينصبّ فى صميمه على وصف القبْح وتصوير الشرّ وعرض الرذائل . وهذا سُوأنيه *Saulnier* يقرر بصرحة أنه بمجرد ما يتجاوز الضحك المرحلةَ الفسيولوچية فإنه لا بدّ من أن يكتسب صبغة « استطيقية » . حقا إن فى وسعنا — بمعنى ما من المعانى — أن نقيم ضرباً من التعارض بين الفن والضحك « لأن الفن هو نظام من اللعب *Discipline du jeu* ، بينما الضحك هو على العكس

(١) *A. Rodin: «Entretiens sur l'Art», Grasset, 1952, Nouvelle édition., Ch. V, VI.*

من ذلك لعبٌ بغير نظام *Jeu indiscipliné* » ، ولكنّ فى استطاعتنا من جهة أخرى أن نقرّب الكوميديا من الفن ، نظراً لما تنطوى عليه من إبداع فنىّ ولهو منظّم — . والواقع أن الكوميديا هى « ثنائية فى وحدة » أو هى « تنافر فى توافق » أو هى « انسجام معكوس » (كما سبق لنا القول) . . . ويمضى سولنيه إلى حدّ أبعد من ذلك فيقول : إن الضحك ليس حكماً أخلاقيًّا ، كما أنه أيضاً ليس من قبيل الحكم العقلى ، وإنما تنحصر كل قيمته فيما له من طابع جمالىّ أو وظيفة استطيقية[١] .

إن الانفعال الذى يَسْتثيرهُ فى نفوسنا مرأى العمل الفنىّ أو الشىء الجميل لهو انفعال نبيل يرفع النفس ويسمو بها . وآية ذلك أن الانفعال الجمالىّ إنما يقوم على الانسجام والتوافق والاتّزان ، فضلاً عن أنه إنما يُعْلى من شأن القيم الإنسانية ؛ أمّا الضحك فإنه لا يتلذّذ إلاَّ بمرأى الخطأ والقبح والرذيلة والشرّ والفشل فى شتى صوره . فالضحك انتصار لا يشعر بنفسه إلاَّ من خلال الهزيمة ! ومن هذه الناحية قد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن ميكانزم الضحك الذى يقوم على التنافر والمفارقة ، هو عكسٌ لميكانزم الفنّ الذى يقوم على الانسجام والتوافق . ولكن الضحك لا يلبث أن يكتسب طابعا « جماليًّا » بمجرد ما تنضاف إليه

(١) *Cl. Saulnier: «Le Sens du Comique», (cité par Lalo: «Esthétique du Rire», 1949, p. 245).*

روح الترف الفنىّ كما هو الحال فى « الـكوميديا » ؛ فإن الـكوميديا هى انتصار للحرية الواعية المنطلقة المبتهجة[١] .

ويأبىٰ باحثون آخرون أن يخلطوا بين الضحك والـكوميديا فيقولون : إن الضحك البدائى التلقائى لا ينطوى فى ذاته على أية قيمة جمالية ؛ وإنما يصبح الضحك ذا قيمة « استطيقية » حينما ننجح فى أن نصفّيه من كل ما علق به من شوائب ذلك الضحك التلقائىّ البدائى . فالـكوميديا هى فلسفة الضحك التى تسمو بالهزلى من المستوى العامى المبتذل إلى مستوى جمالى فنى إنسانى . وإن عبقرية موليير أو شارلى شابلن (فيما يرى سوريو) لتنحصر فى أن كُلاًّ منهما شاعر أو مفـكر أو فيلسوف ثاقب البصر ، على الرغم من أنه ممثّل هزلى ! وإن البعض ليظنّ أن الصور الكاريكاتورية التى رسمها دُومْييه *Daumier* جميلة لأنها مضحكة ، ولـكن سوريو يقرر — على العكس من ذلك — أن هذه الصور فنية على الرغم من كونها مضحكة ! فالشىء الـكوميدى (باعتباره منطويا على قيمة جمالية) هو على العكس تماماً من الشىء المضحك ؛ لأن ماهيته إنمـا تنحصر فى ذلك السحر الفنى الذى يشل حركة شيطان الضحك (بهجاته الخالية من الجمال) ، دون أن يقضى عليه تماماً ! وهكذا يفرّق سوريو تفرقة حاسمة بين « المُضْحِك »

(١) *Ibid. (Lalo: op. cit. p. 45)*

و « الـكوميدى » ***Le Comique***، لـكى يخلع على الأخير ***Le Risible*** منهما فقط طابعاً فنيًّا باعتباره « ظاهرة جمالية » تستلزم ضرباً من التبرير الفلسفيّ للضحك[١] .

٣٤ — والواقع أننا لو أنعمنا النظر إلى فن الـكوميديا لتبيَّن لنا أن الوظيفة الرئيسية التى يقوم بها هذا الفن إنما هى تـكوين عمل فنىّ أو خلق عالم اصطناعىّ لا يكون فيه أى موضع لعامل « القلق » أو الحصَر النفسى ***Angoisse*** الذى هو فى العادة مُنْبثّ فى صميم عالم التجربة اليومية . ومعنى هذا — بعبارة أخرى — أن مهمة المؤلّف الـكوميدى إنما تنحصر فى بناء عالم « تـكفى رؤيتُه لتبديد قلاقلنا ومخاوفنا وهمومنا . » وإذا كان قد وقع فى ظن البعض أن فنّ الـكوميديا هو أيسر الفنون منالاً ، فإن من واجبنا أن نقرر — على العكس من ذلك — أنه ربّما كان هذا الفن من أعسر الفنون الأدبية قاطبة . والحق أنه قد يكون أيسر للـكاتب الروائى أن يستثير دموع النظارة من أن ينتزع ضحكاتهم : فإن أى تأكيد للجانب الدرامىّ من الحياة سرعان ما يجعل من الرواية « مأساة » تهولنا بأحداثها الأليمة ومفاجعها المتلاحقة . وأمّا الـكوميديا فإنها تتطلّب من الحبكة الفنية ، والبراعة فى خَلْق الشخصيات ، والعُمْق فى تركيب المواقف الهزلية ، ما يجعل من

(١) *Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Conclusion, pp. 243—244.*

« الملهاة » عملا فنيا عسيراً هيهات أن يقوى على ممارسته إلاّ من كان في عبقرية موليير أو لابيش *Labiche* أو مارسل پانيول . . .

بيد أن الملهاة تختلف عن المأساة اختلافاً جوهريًّا من حيث أنها تؤدّى فى حياتنا النفسية دوراً صحيًّا لا نجد له نظيراً فى كل ما تقوم به المأساة من أدوار مختلفة فى صميم حياتنا . وآية ذلك أن المسرح الهزلىّ يجدّد نشاطنا ، ويقوّى من روحنا المعنوية ، ويعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا ، لأنه يعرض على أنظارنا شخصيات ضعيفة أو منحرفة أو ناقصة تجعلنا نتصوّر فى كل لحظة أننا أسمى من غيرنا بكثير ! ومثل هذا التصوّر ، حتى ولو كان موقوتاً ، وقائماً على مجموعة من التأثيرات الفنية المصطنعة ، هو مع ذلك شعور طيب ، أو تصوّر نافع . وإذا نجح الكاتب الروائى فى أن يجعل هذا الشعور ينفذ إلى قلب متفرّج متعب من جرّاء عمله اليومىّ المضنى ، قَلِق بسبب سوء حالته المادية ، محطّم الأعصاب لِفَرْط ما يحمل من هموم عائلية ، فإنه يكون قد أدّى له خدمة نفسية قد لا يدانيها أى علاج نفسانىّ . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن المسرح الهزلى يقوم بدور الدواء الناجع فى حياة بعض المرضى ، كالمصابين بالنورستانيا أو فقر الدم (الأنيميا) أو الهبوط النفسى بصفة عامة .

وإنها لواقعة لا نزاع فيها أن إضحاك شخص يائس فاقد العزيمة ، أعنى شخصاً يظن فى نفسه أنه دون غيره من سواد الناس ، ومن ثَمّ

فإنه لا يقوى على مواجهة صعاب الحياة ، إنما هو عمل أخلاقىّ نبيل ، ومهمّة سيكولوجية جديرة بالتقدير . فالكوميديا هى التى تردّ إلى الشخص العاجز الذى يعتقد فى نفسه أنه أدنى من الجميع ، شعوره بالتفوّق على الغير (أو على شخص آخر على الأقل) ؛ وهذا الشعور هو الكفيل بأن يعيد إلى نفسه (ولو إلى حين) الثقة والاطمئنان والشجاعة(١) .

وقد لاحظ مارسل پانيول أن المسرح الهزلىّ يَلْقى الكثير من النجاح إبان الحرب على وجه الخصوص ، حتى إن بعض المسرحيات أو الأفلام التى كان النُقّاد يعدّونها فى زمن السلم ساقطة أو غير موفّقة ، قد تلقى استحسان الجمهور فى زمن الحرب أو فى عهود الاضطرابات . وربما كان السبب فى ذلك هو أن النظّارة إبّان الأزمات والحروب يكونون بمثابة موجودات ضعيفة متهالكة أنهكها القلق والهمّ وسوء التغذية . . . الخ . فالجمهور فى تلك الفترات يكون فى العادة متواضعاً قليل المطالب جَمّ التسامح . ونظراً لأنه قد فقد ثقته فى نفسه ، فإنه يجد سعادة قصوى فى أن يستشعر سموّه أو تفوّقه على أى جمهور آخر أو على أية مجموعة أخرى من الناس مهما كان من وضاعة شأنها(٢) .

---

(١) *Marcel Pagnol: «Notes sur le Rire», Nagel, Paris, 1947, pp. 92—93.*

(٢) *Cf. Marcel Pagnol: «Notes sur le Rire», p. 94.*

بيد أن هذه النظرة إلى السكوميديا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتعليل بانيول للضحك باعتباره وليد مقارنة بين الشخص الضاحك وشخص آخر . فالوظيفة النفسية التي ينسبها أصحاب هذا الرأى إلى « السكوميديا » تتوقف على تفسيرهم للضحك باعتباره مظهراً من مظاهر التفوّق أو السيطرة أو الانتصار . ولكننا حتى إذا لم نأخذ بهذا الرأى ، فقد يكون فى وسعنا أن نقرر أن السكوميديا تقوم بوظيفة « تطهير » *catharsis* من نوع خاصّ ، لأنها تصفّى نفوسنا — ولو إلى حين — من بعض مخاوف الموت وأشباح الفناء . وقد سبق لنا أن رأينا فى مقدمة هذا الكتاب كيف أن السكوميديا تفرّغ بعض ما فى نفوسنا من قلق وخوف ، فتؤدى فى حياتنا النفسية دوراً هامًّا حيويًّا يجعل منها أداة فعّالة من أدوات « الصحة النفسية » .

أما من الناحية الأخلاقية الصرفة ، فقد لا نكون مجانبين للصواب إذا قلنا إن السكوميديا تمتدح المثل الأعلى وتُعلى من شأنه حين تسخر من نقيضه ، وتتهكّم على المنحرفين عنه . فالسكوميديا تعاقب الأخلاق السيئة بأن تسخر منها ، وتجازى الخارجين على العادات الجمعية بأن تصبّ على رءوسهم النكات اللاذعة ؛ وهى من هذه الناحية قد تكون كما قال برجسون بحق أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده . وآية ذلك أن الشخصيّات التى يتناولها السكوميديّون فى العادة بالسخرية والتهكّم إنما هى الشخصيات الانعزالية التى تحيا على هامش المجتمع ، أو الشخصيات

المنحرفة التى تنأى بنفسها عن معايير الجماعة . ومن هنا فإن المسرح الهزلىّ كثيراً مايتناول بسخريته اللاذعة «المغرور» أو «البخيل» أو «المتوحّد» أو « المترفّع عن الناس » أو « المتعجرف » أو « الدعىّ » . . . الخ . وكل هذه الشخصيات التى يروق فى العادة للكتّاب الهزليّين أن يمعنوا فى السخرية منها والتهكّم عليها ، إنما تشترك فى صفة واحدة ؛ ألا وهى عجزها عن التكيف مع الجماعة التى تحيا بين ظهرانيها ، أعنى أنها تتصف جميعاً بصفة « انعدام الروح الاجتماعية » *Insociabilité*[١] .

٣٥ — وهنا قد يحقّ لنا أن نقف وقفة قصيرة عند تلك التفرقة المشهورة التى أقامها برجسون بين « المأساة » و « الملهاة » حينما قال إن الأولى منهما تتجه دائما نحو « الفردىّ » أو « الخاص » ، بينما الثانية منهما لا تتجه إلاّ نحو « الكلىّ » أو « العامّ » . والواقع أن الهدف الذى ترمى إليه « السكوميديا » إنما هو أن تقدّم لنا بعض « النماذج العامة » ؛ فى حين أن موضوع « التراچيديا » هو فى الغالب شخصية واحدة تكون هى المحور الذى تدور حوله كل أحداث الرواية . وحتى حينما تصوّر لنا المأساة بعض الأهواء أو الرذائل التى تحمل اسماً مشتركاً ، فإنها تدمجها فى « الشخصية » ، لدرجة أن أسماءها لابدّ من أن تُنْسَى ،

---

(١) *Cf. Henri Bergson : «Le Rire», P. U. F. 1946, p. 106.*

كما أن سماتها العامة لا بدّ من أن تُمْحَىٰ ، فلا نعود نفكّر فيها على الإطلاق ، بل نجتزئ بالتفكير فى « الشخصية » التى امتصّتها واستوعبتها . ولعلّ هذا هو السبب فى أن عنوان الدراما غالباً ما يكون اسماً من أسماء الأعلام . وأما بالنسبة إلى الكوميديا ، فإن الأمر على العكس من ذلك ، لأنها تحمل فى العادة اسماً مشتركاً أو اسم معنى ، كما فى « البخيل » أو « لاعب القمار » أو « عدوّ المجتمع » . . . الخ .

ولو أننا طلبنا من القارئ أن يتصور مسرحية يمكن تسميتها باسم « الغَيور » *Le Jaloux* (مثلاً) ، لخطر على باله فى الحال اسم سجانارل *Sganarelle* أو چورج داندان *George Dandin* ؛ ولكننا لا نظنه يفكّر فى « عطيل » *Othello* ! والواقع أن اسم « الغَيور » لا يمكن أن يكون إلاّ عنواناً لملهاة أو مسرحية هزلية . وربما كان السر فى ذلك براجع إلى أنه مهما ارتبطت الرذيلة المضحكة بأية شخصية من الشخصيات المسرحية ، فإنها لا بدّ من أن تظل محتفظة بوجودها المستقل القائم بذاته ، حتى أنها لتكاد تكون هى الشخصية الأساسية اللامرئية التى تتكلّم بلسانها شتى الشخصيات الحية الماثلة فى الرواية الهزلية . ومن هنا فإن مهمة الكوميديا إنما تنحصر فى تصوير بعض النماذج البشرية العامة كالبخلاء أو الأدعياء أو أنصاف المتعلّمين أو المتحذلقين أو المرضىٰ الموهومين أو النساء المغرورات أو الفاتنات العالمات . . . الخ .

و بينما نلاحظ أنه قلّما يخطر على بال كاتب المأساة أن يحشد حول الشخصية الرئيسية لروايته مجموعة من الشخصيات الثانوية التى تـكون بمثابة أصداء أو انعكاسات لها ، نجد أن كاتب الملهاة يميل إلى أن يحيط شخصيته الروائية الرئيسية بمجموعة من الشخصيات الثانوية التى تحاكيها وتعبّر عن نفس السمات العامة (التى تتصف بها تلك الشخصية) . ولسنا نعدم تفسيراً لهذه الظاهرة : فقد دلتنا الملاحظة الطبية على أن ذوى الانحراف المشترك يميلون فى العادة إلى التجمع سويًّا ، وكأن ثمة جاذبية خفية تحدوهم جميعاً نحو التكتل . ولما كانت الشخصية الهزلية تعبّر فى الغالب عن ضرب من الانحراف ، فإن من الطبيعىّ أن تتكتل الشخصيات الهزلية المتشابهة تحت لواء واحد . هذا إلى أنه لما كان غرض الكاتب الهزلىّ أن يصوّر لنا نماذج شخصية عامة ، أعنى مجموعة من السمات الخلقية التى تتردَّد بكثرة ، فإن من الطبيعىّ أن نراه يحشد فى روايته عدة عيّنات متباينة تعبّر عن « النموذج العام » الذى يريد أن يصوّره . وهذا ما يفعله — على وجه التحديد — عالم التاريخ الطبيعى حينما يجد نفسه بإزاء « نوع » واحد ، فيحاول أن يصنّفه وأن يصف شتى الفصائل التى تندرج تحته(١) .

ولا بدّ لنا أيضا من أن نفرّق بين كاتب الملهاة وكاتب المأساة من حيث منهج كل منهما فى الملاحظة . فالأول منهما يلتجىء دائما إلى

---

(١) *Cf. H. Bergson: «Le Rire», 67ᵉ éd., pp. 125-126*

الملاحظة الخارجية ، فى حين أن الثانى منهما ليس فى حاجة بالضرورة إلى ملاحظة الآخرين . حقا إن كاتب المأساة يصف لنا الكثير من الحالات النفسية والشخصيات البشرية ؛ ولكنّ كل تلك الشخصيات التى يُبْدعها هذا المؤلّف الدرامى ليست سوى شخصيته هو ، أعنى أنها ثمرة لتأمّله الباطنى ، وملاحظته لشتى الحالات النفسية التى تدور به ، وشتى الممكنات التى تَرِدُ عليه . . . الخ . فشخصيّات الملهاة هى المؤلّف نفسه ، وقد انعكس على نفسه يشاهد حالاتها ، ويتعمّق مشاعرها ، ويتصوّر احتمالاتها ، ويتأمّل إمكانياتها ، ويستبطن خلجاتها . . . الخ .

وأما كاتب الملهاة فإن اعتماده الرئيسى على الملاحظة الخارجية ، لأنه قلّما يتأتى لنا أن نقف على الجانب المضحك من شخصيتنا ، أو أن ننجح فى الاهتداء إلى ما فى ذاتنا من عيوب تدعو إلى السخرية . ومن هنا فإن روح الانتقاد الكامنة لدينا لا بدّ من أن تجد لها مرتعا خصيبا فى شخص الآخرين؛ واتجاهها نحو الغير هو الذى يكسبها طابع «العمومية» الذى تتميز به الكوميديا . وهكذا ترانا نقتصر على النظر إلى الغلاف الخارجىّ للأشخاص ، فنتفنّن فى تصنيف حركاتهم المشتركة ونقائصهم المتكررة ، ونعمد إلى منهج التجريد والتعميم الذى يلتجىء إليه عالم الطبيعة فى استقرائه للوقائع ، فنجمّع المثالب البشرية المتشابهة تحت اسم واحد ، وندرج العيوب الأخلاقية أو الاجتماعية تحت « نوع » مشترك ، حتى نصل فى النهاية إلى وصف بعض النماذج البشرية العامة بأسلوب

لاذع نعامل فيه الأشخاص معاملة الجماد أو الآلات أو الحيوان[١] .

ويعود برجسون مرة أخرى إلى نظريته فى الضحك فيقول إن الدراما تحرّك فينا العاطفة ، بينما الكوميديا تخاطب منا العقل . ويشرح برجسون هذا الفارق الهامّ بين المأساة والملهاة فيقول إن أى وصف مؤثر لأى عيب من عيوب الإنسان لا يمكن أن يكتسب صبغة فكاهية طالما كان من شأنه أن يستثير فى نفسى انفعال الخوف أو الشفقة أو المشاركة الوجدانية أو ما إلى ذلك من عواطف . ولكن أى وصف لأى عيب من عيوب الإنسان (مهما كان من قبحه و بشاعته) لا بدّ من أن يستثير لَدَيْنا استجابة الضحك ، إذا نجح صاحبه فى أن يصوّره لنا بطريقة لا تستثير عواطفنا . ومن هنا فإن الشرط الضروريّ للموقف الكوميديّ هو ألا يحرّك فينا العاطفة ، وإلاّ فإنّنا سنتعاطف مع الشخصيات المسرحية الماثلة أمامنا ، فنستجيب للموقف بالبكاء أو التأثر أو بأى انفعال آخر . وما فى فن الكوميديا من براعة إنما يتمثل على وجه التحديد فى قدرة الكاتب الهزلىّ على تخدير حساسيتنا ، وتنويم عواطفنا ، حتى لنكاد نحيا عندئذ فى جوّ من الأحلام ، فتبدو لنا المواقف المختلفة بعيدة كل البعد عن الواقع ، وتفقد الأحداث المتوالية التى نشهدها على خشبة المسرح كل صبغة جدية . وهنالك طريقة يلتجىء إليها كتّاب

---

(١) *Ibid.*, pp. 127—129.

الـكوميديا لتحقيق هذا الغرض فنراهم يشيعون فى حركات شخصياتهم ضرباً من الجمود أو التصلّب *Raideur* الذى يبعث فينا الضحك بدلاً من أن يستثير لدينا عاطفة المشاركة الوجدانية . هذا إلى أن الدراما تركّز كل انتباهنا فيما يقوم به الأشخاص من أفعال وتصرفات ، فى حين أن الـكوميديا لا تتجه بأبصارنا إلاّ نحو مجموعة من الإيماءات والحركات . فالفعل *Action* أساسىّ فى الدراما ، ثانوىّ فى الـكوميديا ؛ والشخصية ماثلة بأكملها فى الفعل الدرامىّ ، فى حين أن التصرّف الذى قد يقوم به الشخص الـكوميدى إنْ هو إلاّ حركة آلية لا تعبّر إلاّ عن جزء منفصل من الشخصية .(١)

وهكذا يَخْلص برجسون إلى القول بأن شخصيات الـكوميديا تمتاز فى العادة بطابع « الآلية » *Automatisme* ، وكأنما هى مجرّد أطياف تقوم بمجموعة من الحركات ، دون أن يكون وراء أفعالها أى انتباه . ومن هنا فإن كل ما يتضمّن معانى « الغفلة » *Distraction* — كما فى تصرفات دون كيشوت مثلا — لابد من أن يولّد لدينا عاصفة شديدة من الضحك . وكثيراً ما يقترن انعدام الانتباه *Inattention* لدى الشخص الهزلىّ بانعدام الروح الاجتماعية *Insociabilité* أيضاً ، فتزداد الصبغة الفكاهية للموقف نتيجة لإدراكنا لسوء توافق الشخص

---

(١) *H. Bergson: «Le Rire», p. 109—110.*

مع الجماعة . والواقع أن الخاصية الرئيسية التى تميّز « المضحك » — كما قال برجسون أكثر من مرة — إنما هى انعدام التوافق بينه وبين المجتمع ، بحيث قد يكون فى وسعنا أن نقرر أن فن الكوميديا إنما هو أولا و بالذات تصوير للعيوب الاجتماعية ، ووصف للنماذج البشرية التى تَنِدُّ عن المعايير الجمعية . وقد تفنَّن كثير من كتاب الكوميديا فى وصف نماذج مختلفة لبعض هـذه الشخصيات « الانعزالية » التى لم تنجح فى تحقيق التكيف مع المجتمع ، فوصفوا لنا المغرور والدَّعِىّ والمتعجرف والبخيل والمُوَسْوَس . . . الخ .

وسواء أخذنا بنظرة برجسون إلى الكوميديا أم اعترضنا عليها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر الدلالة الجمالية لهذا الفن باعتباره تصويراً ساخرا لعيوب المجتمع ونقائصه ، وتهكما لاذعا على بعض النماذج البشرية التى تعوزها الروح الاجتماعية . وإذا كان أرسطو قد ذهب إلى أن العقلية النبيلة هى التى تكتب المأساة والملحمة ، فى حين أن العقلية الدنيئة هى التى تكتب الملهاة والمسرحية الهزلية ، فربما كان فى وسعنا أن نردّ عليه بأن نقول إن العقلية التى تظهرنا على ما فى نفوسنا من مثالب ، وما فى مجتمعنا من نقائص ، لا يمكن أن توصف بالخِسَّة أو الدناءة ، اللهمّ إلاَّ إذا كان فى تصوير القُبْح خروجٌ على معايير الفن والجمال والأخلاق . ولنا عود إلى هذا الموضوع فى خاتمة كتابنا إن شاء الله .

---

(١) *Cf. Lalo: «Esthétique du Rire», p. 251*

الفصل العاشر

روح الفكاهة عند الفرد والجماعة

٣٤ — رأينا فيما مرّ بنا إلى أى حدّ تؤثر الحالة الوجدانية أو « الاتجاه النفسى » للفرد على نوع استجابته للظروف الخارجية ؛ إما باتخاذ وجهة نظر فكاهية تنطوى على اللعب واللهو ، أو باتخاذ وجهة نظر جدية تنطوى على الواقعية والإحساس بخطورة الموقف . ولا شك أن الاتجاه الوجدانى المناسب هو الشرط الأولى الضرورى لكل ضحك ولكل تقدير صحيح للمُضْحِك . وهنا نلاحظ أن اتخاذ هذا الموقف يتوقف من جهة على مزاج الشخص المؤقت فى لحظة استجابته ، كما يتوقف من جهة أخرى على بعض سماته الشخصية الثابتة كدى تمتّعه بالإحساس الفكاهى أو « روح الفكاهة *Sense of humour* » التى يمكن بمقتضاها أن يدرك العناصر الفكاهية فى شتى المواقف المضحكة . وفضلاً عن ذلك فإن تذوق الفكاهة والتعبير عنها يتوقفان أيضاً على مجموعة من العوامل الاجتماعية ؛ وهذه بدورها قد تكون عارضة موقوتة ، أو قد تكون ثابتة نسبيًّا فى طبيعتها . ونحن نعرف — مثلاً — متى وأين نضحك ، فترانا نعدّ الضحك مناسباً فى دور اللهو وصالات التدخين ومجتمعات التسلية ، بينما نعتبره خروجاً على الآداب العامة فى أماكن العبادة وصالات الاحتفالات الرسمية ومجتمعات العمل الجدىّ . وحينما يضحك شخص فى مثل هذه المواقف ، فإننا ننظر إليه نظرة استنكار واستهجان ،

وقد لا نكتفى بإبداء سخطنا واستيائنا لمسلكه ، بل ربما التجأنا إلى اتخاذ إجراء عملى بإزائه ، كأن نأمر بطرده أو إخراجه أو محاسبته على فعلته . . . الخ . — ولما كانت الفكاهة مظهراً من مظاهر الارتداد أو النكوص نحو مستوى عقلىّ أكثر بدائية ، فإننا قد لا نكون محقّين فى النظر إليها باعتبارها خاضعة تماماً لآليات الكف أو المنع *Inhibition* ، وهى تلك الآليات المنبعثة عن بعض الانفعالات الجدية من جهة ، أو عن ضغط الأنا الأعلى نفسه من جهة أخرى . والظاهر أن من شأن عملية « الكَفّ » الإرادى للضحك أن تُضْعِف من قدرتنا العقلية المحضة على تقدير المواقف المُضْحكة والاستجابة للمؤثرات الهزلية بصفة عامة . ولا ريب أن من وظائف تلك العملية مساعدتنا على اتخاذ « موقف جدى » حينما يستدعى الأمر ذلك ، ولو أن آليات « الكف » فى بعض الأحيان قد تعمل فى مستويات باطنة عميقة ، كما هو الحال فى بعض النكات الجنسية التى تقوم على « الرمزية » *Symbolism* .

بيد أن الملاحظ بصفة عامة أن النكات أو الفكاهات عموماً ، والنكات الجنسية على وجه الخصوص ، لا تكاد تُتَبادَل (كما سبق لنا القول) إلاّ بين أشخاص متماثلين أو متقاربين من حيث السن والمركز الاجتماعى . ومعنى هذا أن أعدى أعداء الفكاهة إنما هى السلطة الغاشمة التى تفرض على الناس روح العسف والاستبداد والتحكمُّ . ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن مدى التسامح فى قبول الفكاهة

والترحيب بها فى بعض المواقف الجدية يختلف اختلافاً كبيراً من مجتمع إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى . فهناك مثلاً مجتمعات تتقبّل برحابة صدر « روح الفكاهة » فى حلقات الدرس وقاعات المحاضرات وصالات الاجتماعات الحزبية والسياسية ، بينما توجد مجتمعات أخرى تتشدّد فى إلزام أفرادها باتهاج مسلك جدىّ فى أمثال هذه المناسبات . ونحن فى مصر — مثلاً — قد تعوّدنا أن نخلط الهزل بالجد ، وأن ننفّس بالنكتة عن آلامنا وآمالنا ، ومن هنا فقد امتدت الفكاهة عندنا إلى شتى دوائر الحياة الاجتماعية ، حتى أنه ليندر أن تخلو جلسة من جلساتنا النيابية من فكاهة عابرة أو دعابة عارضة أو « قَفْشة على الماشى »! . ومهما يكن من شىء ، فإن الباحث الذى يريد أن يدرس الفكاهة لا بدّ من أن يجد نفسه مضطرا إلى إثارة الكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع استجابات الأفراد والجماعات للمؤثّرات الهزلية .

٣٥ — والمشكلة الأولى التى تواجه الباحث فى هذا الصدد هى معرفة ما إذا كان من الممكن قياس « روح الفكاهة » عند الأفراد والجماعات ، أو ما إذا كانت هناك فروق مُحققّة بين النكات المختلفة أو الفكاهات المتنوعة التى تستجيب لها النماذج المختلفة من الأفراد والجماعات . وعلى الرغم من أن كلمة الباحثين قد اجتمعت على أن « الحسّ الفكاهى » هو سِمَة هامة قيمة من سِمات الشخصية ، إلاّ أن

تحديد مضمون هذا الحِسّ قد اختلف من باحث إلى آخر ، فقال قوم بأنه نوع من الاستبصار *Insight* ، وذهب آخرون إلى أنه ضرب من الإحساس الفلسفى بالحياة ، بينما حاول غيرهم أن يربط بينه وبين المزاج الخاص . . . الخ . وقد اهتم بعض الباحثين بتصنيف الأمراض العقلية وتشخيصها فى ضوء هذه السمة الشخصية الهامة ، بينما عُنى غيرهم بدراسة العلاقة بين الروح الفكاهية من جهة ، وبعض عوامل شخصية أخرى كالقدرات الدراسية والنضج الانفعالى والقامة والوزن من جهة أخرى . كذلك اتجه بعض علماء النفس نحو دراسة روح الفكاهة عند الشعوب المختلفة والأجناس المتعدّدة ، فقسّموا الجماعات المتنوّعة بحسب درجة إقبالها على الفكاهة أو عزوفها عنها ؛ وجاءت هذه الدراسات فى كثير من الأحيان متأثرة بجنسية أصحابها ونزعاتهم القومية . . . الخ .

ولا بدّ لنا من أن نشير فى مستهلّ حديثنا عن « روح الفكاهة » إلى أننا نعنى بهذا اللفظ القدرة على الاستجابة الملائمة للمؤثرات الهزلية من جهة ، والقدرة على ابتداع أفانين الضحك من جهة أخرى . فالروح الفكاهية تنطوى على عنصر «تقدير» *Appréciation* يستطيع بمقتضاه الشخص أن يضحك فى الوقت المناسب ، وعنصر « إبداع » *Création* يستطيع بمقتضاه الشخص أن ينتزع استجابة الضحك من الآخرين . وحينما نقول عن شخص ما من الأشخاص إنه يتمتع بحسّ فكاهى ممتاز فإننا نعنى بذلك أنه يملك القدرة على تذوّق النكتة من

جهة ، ويتمتع بملكة الظَّرْف (أو خفة الروح) من جهة أخرى . وكلما قوى حظ الفرد من روح الفكاهة ، زادت قدرته على تذوّق النكتة وإطلاق الدعابة . ومن هنا فإن الباحثين الذين عنوا بدراسة روح الفكاهة ، لم يقصروا بحوثهم على معرفة قدرة الأفراد على تذوّق النكتة ، بل هم قد اهتمّوا أيضا بمعرفة مدى نجاح هؤلاء الأفراد فى تكملة الدعابات الناقصة ، ووضع أسماء للرسوم الهزلية ، وتأليف نكت لبعض الصور الكاريكاتورية . . . الخ . ولكن الغالبية العظمى من هؤلاء الباحثين قد اقتصرت على وضع اختبارات أو استفتاءات لدراسة « روح الفكاهة » ، مع الاستعانة بالتحليل الإحصائى المناسب لقياس الفروق الفردية القائمة بين الجنسَيْن ، من حيث مدى قوة أو ضعف الحسّ الفكاهىّ عند كل منهما .

ولن نستطيع أن نسهب فى شرح شتى الاختبارات التى قام بها علماء النفس فى هذا الصدد ، وإنما سنقتصر على الإشارة إلى تلك الاختبارات الدقيقة التى استطاع الباحثون عن طريقها أن يتحققوا من وجود علاقة مطردة بين «النموذج الانبساطى» *Extravert* فى الشخصية والميل إلى الفكاهات الجنسية والعدوانية ، وبين « النموذج الانطوائى » *Introvert* فى الشخصية والميل إلى الفكاهات العقليّة القائمة على الذكاء أو الفطنة أو سرعة البديهة . . . الخ . وربما كان فى مقدمة البحوث التى أجريت فى هذا الصدد ذلك البحث القيّم الذى اضطلعت به الآنسة

وليامز *J. M. Williams* فى رسالة تقدمت بها سنة ١٩٤٥ لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن تحت عنوان : « دراسة تجريبية ونظرية للفكاهة عند الأطفال » . وقد قامت هذه الباحثة الإنجليزية بإجراء تجار بها على مجموعة من الأطفال يبلغ عددها حوالى ٣٠٠ طفل ، مستعملة ثلاثة أنواع مختلفة من اختبارات الفكاهة ، فكانت تطلب إلى كل طفل أولا أن يروى أطرف تجربة مرت به ، وثانيا أن يستحضر الصورة التى تبدو له من أمتع ما وقع عليه بصره من الصور المضحكة ، وأخيراً أن يقص النكتة التى يرى أنها أبرع ما سمع أو قرأ من نكات . وكل استخبار من هذه الاستخبارات الثلاثة كان ينطوى فى صورته النهائية على ٣٠ سؤالاً كان يُطْلَب إلى الطفل أن يُرتّبها بحسب درجة الفكاهة فى كلّ منها متأدّيا من الأعلى إلى الأدنى . وقد استطاعت وليامز من كل هذه البحوث أن تتبيّن بطريقة قاطعة أن ثمة موقفين مختلفين من الفكاهة لدى الأطفال : موقفا شخصيا *Personnelle* يقترن بتفضيل الأفراد للفكاهات التى يلعب فيها الميل الوجدانى (كالتفوّق أو الاستعلاء) الدور الأكبر ، وموقفاً لا شخصيًّا *Impersonnelle* يقترن بتفضيل الأفراد للفكاهات التى تقوم على المفارقة والمبالغة والخيال الواسع . وتضيف وليامز أن المجموعة الأولى من الأطفال (أى صاحبة الموقف الشخصى) كانت تميل دائماً إلى تفضيل الصورة أو النكتة التى تكشف عن بلاهة الآخرين ، وكانت تتجه

فى الغالب نحو الفكاهات التى تسخر من السلطة ، فضلاً عن أنها كانت قلما تستطيع أن تفصل النكتة عن حياتها الخاصة ، بينما كانت المجموعة الثانية (أى صاحبة الموقف اللاشخصى) تميل إلى اختيار الصور والنكات التى تنطوى على عنصر تنافر أو مفارقة أو خيال جامح ، كما أنها كانت تؤْثر الفكاهة التى لا تتضمَّن فى الغالب أى عامل شخصى ، فضلاً عن أنها كانت تتجه على العموم نحو الحكم على الموقف الفكاهى باعتباره وحدةً أو كُلاًّ لا يتجزأ . وهكذا نجد أن هذه الباحثة الإنجليزية قد قسّمت موقف الأطفال من الفكاهة إلى نوعين : موقف انبساطىّ يغلب عليه الطابع النزوعىّ *Conatif* ، وموقف انطوائى يغلب عليه الطابع الإدراكىّ *cognitif* ؛ والأول منهما موقف ذو صبغة شخصية ، بينما الثانى منهما موقف ذو صبغة لا شخصية[١] .

وقد تأيدت هذه النتائج بأبحاث أخرى دقيقة قام بها الأستاذ إيزنك *H. J. Eysenck* سنة ١٩٤٧ على بعض الأشخاص العُصابيّين وعديمى التكيف من ضحايا الحرب العالمية الأخيرة ، بقصد معرفة العلاقة بين روح الفكاهة والمرض العصبى . وقد أجرى إيزنك تجاربه هذه على مائة شخص من الجنسين ، فكان يطلب إلى كل واحد منهم أن يصنّف الصور الفكاهية المعروضة عليه ، وفقا لمعيار خاص ينطوى على

---

(١) *Cf. H. J. Eysenck:* «Les Dimensions de la Personnalité», *P. U. F., 1950, p. 260.*

ثلاثة تقديرات : « طريف جـداً » (٣ درجات) ، و « طريف » (درجتان) ، و « غير طريف على الإطلاق » (درجة واحدة) . وقد لاحظ إيزنك فى اختياره لهذه الصور (وعددها الـكلى ٦٠ صورة) أن تـكون ١٥ صورة منها ممثلة لمواقف ذات طابع جنسى (وهو يشير إليها بالحرف *S*) ، و ١٥ صورة أخرى منها ممثلة لمناظر تنطوى على سخرية من الجيش أو الضباط أو رجال البحرية أو رجال الطيران (وهو يشير إليها بالحرف *A*) ، و ١٠ صور منها ممثلة لمواقف هزلية تنطوى الفـكاهة فيها على عامل اختلاف الطبقة الاجتماعية (وهو يشير إليها بالحرف *C*) ، و ١٠ صور أخرى منها ممثلة لمواقف ساذجة لا معنى لها تقريباً (وهو يشير إليها بالحرف *M*) ، وأخيراً ١٠ صور معـبّرة عن موضوعات متفرقة اختيرت بطريق الصدفة البحتة (وهو يشير إليها بالحرف *R*)[١] . وقد استطاع إيزنك أن يتحقق عن طريق هذه الاختبارات العلمية الدقيقة من أن نسبة إدراك الهستيريّين (رجالا كانوا أم نساء) للمواقف الفـكاهية هى على العموم أعلى من نسبة إدراك المصابين باضطراب المزاج *Dysthymiques* (رجالا كانوا أم نساء) لتلك المواقف الفـكاهية عينها . ومعنى هذا — بعبارة أخرى —

---

(١) دلالات هذه الحروف هى على التعاقب :

(جيش) *(A) army* (جنسى ، *(S) sexual*

(عديم المعنى) *(M) meaningless*, - (طبقة) *(C) class*,

(متفرقات) *(R) random*

(Eysenck : ouvrage cité, trad. Franç , p. 258)

أن النماذج الهستيرية من الأفراد المختبَرين هى أقدر على تذوّق الفكاهة عموماً من النماذج المصابة بالحصَر أو الوسواس ، مما يدلّ على أن احتمال التعرض للهستيريا يزيد لدى الأشخاص الذين يتمتعون بروح الفكاهة ، أو يقترن على الأقل بامتلاك هذا الحسّ الفكاهىّ العامّ . كذلك استطاع إيزنك عن طريق هذه التجارب أن يظهرنا بوضوح على أن الأشخاص الهستيريين (رجالا كانوا أم نساء) يفضلون النكات الجنسية على غيرها من النكات ، مما يؤيّد الرأى القائل بوجود ضرب من التضايف *Corrélation* بين النموذج الانبساطى فى الشخصية والميل إلى تفضيل النكات الجنسية . وهكذا يَخْلُص إيزنك إلى القول بأن ثمة فريقين مختلفين من الأفراد : فريقاً يُؤْثِر الفكاهة التى تُرْضِى فى نفسه الميول العدوانية والجنسية ، وهؤلاء هم «المنبسطون» *Extravert* ، وفريقاً يؤثر الفكاهية الذكية البارعة التى ترضى ميوله العقلية ، وهؤلاء هم « المنطويون » *Introvert* [(١)].

٣٦ — والواقع أننا لو أمعنا النظر فى استجابات الأفراد للمؤثرات الهزلية بصفة عامة ، لوجدنا أن الناس (حتى فى المجتمع الواحد) قلّما يجمعون على استحسان نكتة واحدة بعينها ، أو تفضيل كوميديا واحدة مشتركة . وليس بدعا أن يختلف الناس فى أحكامهم على المؤثرات

---

(١) *Cf. Flugel: « Humor & Laughter»; in «Handbook of Social Psych»., Vol, II., 1954, pp. 729 - 731.*

الفكاهية : فإنهم فى العادة قلّما يجمعون على تقدير عمل فنى بعينه ، أو لوحة تصويرية بعينها . وتبعاً لذلك فإننا حينما نتحدث عن « النكتة الجيّدة » أو « الفكاهة البارعة » ، فإننا قلما نعنى بها النكتة أو الفكاهة التى تَلْقَى إجماعاً شاملا ، لأنّ مثل هذا الإجماع يكاد يكون ضرباً من المستحيل . ومع ذلك فقد لوحظ أنه على الرغم من اختلاف الأفراد فيما يصدرون من أحكام على شتى ضروب الفكاهة وأنواع المؤثرات المُضْحِكة ، فإن ثمة ضرباً من الاطراد أو الثبات فى نسبة « المادة الهزلية » التى ينجح كل فرد من الأفراد فى استخلاصها مما يُعْرَض عليه من صور كاريكاتورية ورسوم هزلية وموضوعات فكاهية ، على الرغم من تعدّد الاختبارات وتنوّع طرق البحث . وهذه الحقيقة إن دلت على شىء ، فإنما تدلنا على أن الحسّ الفكاهى ليس حديث خرافة ، بل هو — كما سبق لنا القول — سمة هامة من سمات الشخصية التى يمكن قياسها وإخضاعها للتحليل العلمىّ .

وقد اهتمّ كثير من الباحثين بدراسة العلاقة بين هذا الحسّ الفكاهى وبين الذكاء أو القدرة العقلية ، فحاول البعض منهم أن يقوم باختبارات علمية دقيقة بقصد تحديد العلاقة القائمة بينهما عند الأطفال والبالغين على السواء . ولكننا حينما نعرض لدراسة مثل هذه العلاقة ، فإننا لا بدّ من أن نتذكّر أنه على الرغم من أن الكثير من الفكاهات يفترض قدراً غير قليل من القدرة العقلية أو سرعة البديهة أو دقة الحَدْس ، إلا أن

هذه الحقيقة قد لا تصدق إلا على الفكاهات التى تتسم بطابع إدراكى واضح . وقد قام بعض الباحثين بدراسة العلاقة بين روح الفكاهة ومستوى الذكاء عند الأطفال ، فاستطاعوا أن يتحققوا من أن الأطفال النابهين هم فى العادة أقدر من غيرهم على تمييز ضروب الاستحالة العقلية ، فى حين أن ضعاف العقول من الأطفال كثيراً ما يعجزون عن إدراك عنصر الفكاهة فيما قد يضحك له غيرهم من الأسوياء . ومن هنا فقد ذهب هؤلاء الباحثون إلى أن ثمة علاقة وثيقة بين المقدرة العقلية والروح الفكاهية ، ما دام الأطفال الذين يعوزهم الاستبصار العقلى هم أعجز من غيرهم فى الاستجابة للمؤثرات الهزلية بصفة عامة — . وثمة أبحاث أخرى كثيرة قام بإجرائها بعض المشتغلين بعلم النفس فى انجلترا على مجموعات من طلبة المدارس الثانوية ومجموعات أخرى من طلبة الجامعات ، بقصد قياس روح الفكاهة عند كلّ من الفريقين ، فأثبتت هذه الاختبارات أن هنالك علاقة مطردة بين الروح الفكاهية من جهة ، والذكاء والتحصيل العلمى من جهة أخرى .

بيد أن ثمة باحثين آخرين قد توصّلوا فى دراساتهم التجريبية إلى نتائج عكسية ، إذ وجدوا أنه ليس ثمة علاقة تضايف دقيقة بين الذكاء والفكاهة لدى أية جماعة سويّة متجانسة من الناس . وهذا ما انتهى إليه مثلا فى السنوات الأخيرة كل من أومفيك *Omwake* (١٩٣٩) وجريج *Gregg* (١٩٢٨) ، وبراكيت *Brackett* (١٩٣٤) ، ودنج

وجرْسيلد (*Ding & Jersild*) (١٩٣٢) ، ورُوس ولَانْديس *Ross & Landis* (١٩٣٣) وغيرهم . وهؤلاء جميعاً قد خلصوا من دراساتهم المتشعبة المتباينة إلى القول بأن الذكاء ليس عاملًا حاسماً فى تذوّق الفكاهة وتقدير النكتة . وحتى أولئك الذين انتهوا إلى تقرير أهمية عامل الذكاء فى تقدير الفكاهة — مثل واين — جونز *Wynn-Jones* سنة ١٩٢٧ ، و بيريه *Piret* سنة ١٩٤٠ ، ومونز *Mones* سنة ١٩٣٩ — نجد أنهم قد حرصوا من جهتهم على القول بأن ثمة عوامل نفسية أخرى كالمزاج والاتجاه الوجدانى وغير ذلك من النوازع النفسية ، قد يكون من شأنها أن تحجب الدور الذى يقوم به الذكاء فى تقدير الفكاهة . ومهما يكن من شىء ، فقد دلّتنا التجارب التى أجريت على الأطفال على أن ثمة علاقة وثيقة بين الضحك والترقى النفسىّ عموماً ، بدليل أن الأطفال الذين تتردّد لديهم بكثرة حالات البكاء هم فى العادة أقل ترقيا من غيرهم . ومعنى هذا أن الروح الفكاهية تقترن بالنموّ النفسى ، فتكون فى كثير من الأحيان بمثابة أمارة على سلامة العقل وصحته وقدرته على تفهم حقيقة الأشياء . وكلما كان العقل أسلم وأصح وأقوى ، كانت قدرته أسرع على فهم المفارقة والضحك منها .

٣٧ — أمّا فيما يتعلق بالعلاقة بين الفكاهة والجنس (أى الذكورة أو الأنوثة) ، فقد أثبتت بعض التجارب الحديثة التى قام بإجرائها جماعة من الباحثين على مجموعات كبيرة من الأولاد والبنات فى مراحل مختلفة من عمرهم ، أن الروح الفكاهية أقوى لدى البنات منها لدى الأولاد فى المرحلة

الأولى من مراحل الطفولة ، فى حين تزيد قدرة الأولاد على فهم النكات وتذوّق الفكاهات فى المراحل المتأخرة من الطفولة عن نظيرتها لدى البنات . هذا وقد قامت باحثة أمريكية بدراسة المنبّهات التى تولّد استجابة الضحك لدى الأطفال (أولاداً كانوا أم بنات) ، فاستطاعت أن تتبيّن بوضوح كيف أن رسوم الأولاد الكاريكاتورية تزيد طرافة وأصالة عن رسوم البنات ، ولو أن بعض الاختبارات التى أجرتها هذه الباحثة قد أثبتت أن الفروق الفردية فى هذا المجال قد تكون أظهر بكثير من الفروق الجنسية[١] . ومعنى هذا أن اختلاف المزاج أقوى أثراً على الروح الفكاهية من اختلاف الجنس *Sex*. ولكن التجربة قد دلتنا بصفة عامة على أن الفتيات يملْن فى العادة إلى استهجان النكات القاسية والفكاهات اللاذعة ، كما أنهنّ قد يكنّ أكثر تردُّدا من الفتيان فى الإقبال على الفكاهة العدوانية ، والترحيب بالضحك الساخر ، والميل إلى التهكّم والهجو والإفحاش .

أما التجارب التى أجراها الأستاذ إيزنك *Eyzenck* على المرضى النفسيّين من الرجال والنساء ، فقد أثبتت أن نسبة تقدير النساء للفكاهة أعلى بصفة عامة من نسبة تقدير الرجال لها (١٫٨٣ للنساء ، و١٫٧٧ للرجال) . ولكن بينما جاء تقدير النساء للفكاهات القائمة على

---

(١) *Florence Brumbaugh : «Stimuli which cause Laughter in Children» ; New-York University (Doctor's Dissertation), 1939.*

السخرية بالجيش (A) والفكاهات الساذجة التي لا معنى لها (M) ، والفكاهات القائمة على اختلاف الطبقات الاجتماعية (C) والفكاهات التي اختيرت بطريق الصدفة (R) ، عالياً نسبياً ، نجد أن تذوقهن للفكاهة الجنسية (S) أضعف بكثير من تذوقهن لباقي أنواع الفكاهة . حقا إن فهم النكتة الجنسية ليس وقفاً على الرجال ، ولكن الظاهر أن هذا النوع من النكات لا يلقى استحساناً كبيراً من جانب النساء[١] .

وقد أيَّدَتْ هذه النتيجةُ البحوثَ التي كان قد قام بها جوش Ghosh (في رسالة تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٩ تحت عنوان «دراسة تجريبية للفكاهة») . ولكننا لا نستطيع أن نقطع بصحة الرأي القائل بأن المرأة في كل زمان ومكان أقل إقبالاً على النكات البذيئة من الرجل ، لأن أحداً لم يقم حتى الآن بدراسات تجريبية وإحصائية وافية يمكن الاستناد إليها بصفة قاطعة للتسليم بصحة هذه الدعوى . وإذا كان بعض الباحثين يستند إلى واقعة ندرة الرسوم البذيئة والتعليقات الجنسية الفاضحة بمراحيض السيدات إذا قيست بمراحيض الرجال ، من أجل التدليل على صحة الرأي القائل بضعف ميل النساء إلى الفكاهة الجنسية بصفة عامة ، فربما كان في استطاعتنا أن نردّ على هذه الحجة بأن نقول إن العوامل الحضارية والتربوية قد تعمل عملها

---

(١) *cf. H. J. Eysenck: «Les Dimensions de la Personnalité», Paris, P.U.F., trad. franç., 1950, p. 258.*

فى هذا المجال ، فتكون هى المسئولة — لا الجنس *Sex* — عن انصراف النساء (ظاهريا على الأقل) عن النكات الجنسية والفكاهات البذيئة . ومن هنا فقد ذهب بعض علماء النفس إلى تعليل هذه الظاهرة بإرجاعها إلى عامل « المُواضَعات الثقافية » *Cultural conventions* مُحتجِّين فى ذلك بأنه متى تهيَّأ للنساء الجو الملائم، فإنهنَّ قد لا يتردَّدْن فى الضحك للنكتة الجنسية بمُطْلَق الحرية . حقا إن المرأة قد تُظْهِر بادىء ذى بدء شيئاً من الحرَج والخجل والتردّد فى الاستجابة للمُنبِّهات الجنسية ذات الصبغة الهزلية ، ولكنها إذا اطمأنتْ إلى أرْجاع الوسط الاجتماعى المحيط بها ، فإنها سرعان ما تستجيب لتلك المنبّهات على نحو ما يستجيب لها الرجل .

بيد أن بعضاً من الباحثات اللائى اهتَمَمنَ بدراسة الفروق الجنسية بين الرجال والنساء فى هذا المضمار قد عُدْن إلى تأكيد الرأى القائل بضعف استجابة النساء للمنبّهات الفكاهية ذات الطابع الجنسى . وهنَّ يَمِلْن إلى تعليل هذه الظاهرة بأن وظيفة المرأة البيولوجية فى عملية التكاثر هى التى تجعلها تتخذ من المسألة التناسلية (أو الجنسية بصفة عامة) موقفاً جديّا ، فلا تستجيب بالضحك للنكات البذيئة التى قد تنطوى على أىّ استخفاف بقُدْسية الجنس *Sex* . ولكن التجربة قد دلّتنا — من جهة أخرى — على أن ضحك النساء للنكات الجنسية يتناسب تناسباً طرديًّا مع درجة تحرُّرهن من مخاوف الحمل اللاإرادىّ . ومعنى هذا أن

العلاقة قد تكون وثيقة جدًّا بين درجة تذوّق المرأة للفكاهة الجنسية ومدى إلمامها بطرق منع الحمل . ومع ذلك ، فإن المشكلة لا زالت قيد البحث ، لأن علماء النفس الذين اهتمّوا بدراسة الفروق الجنسية بين الرجال والنساء فى دائرة الفكاهة والضحك ، لم يتوصّلوا بعد إلى تحديد تلك الفروق بصورة نهائية قاطعة . ولا زال المجال مفتوحاً أمام الراغبين فى دراسة « روح الفكاهة » ، لأن يقوموا بعمل الكثير من الاختبارات والتجارب من أجل معرفة الفروق المميّزة لكل من الجنسين فى هذا المضمار .

٣٨ — أما إذا عمدنا الآن إلى دراسة العلاقة بين روح الفكاهة والفروق القومية *National Differences* ، فإننا سنجد أن كثيراً من الباحثين الذين اهتمّوا بدراسة الفكاهة عند الشعوب قد حاولوا تفسير تلك الفروق بإرجاعها إلى اختلاف « نموذج الشخصية » عند كل شعب منها عنه لدى غيره من الشعوب . وهكذا ذهب هؤلاء إلى أن الفكاهة الألمانية عامرة بالوجدان مليئة بالتعاطف ، وأن الفكاهة الإنجليزية ناطقة برغبة أهلها فى مصارعة جدية الحياة ، وأن الفكاهة الأمريكية بدائية زاخرة بالإغراق والتهويل والمبالغة (وهو مايلقاه الألمانىّ بروح السخرية والتهكّم والازدراء) فى حين تبدو الفكاهة الفرنسية قاسية لاذعة شديدة العداء . — ولكنّ باحثين آخرين قد حاولوا أن ينتقصوا من قيمة هذه المقارنات ، فعمد قوم منهم إلى إظهارنا بطريقة

تجريبية عملية على أنه ليس ثمة فارق كبير بين الفكاهة الأمريكية والفكاهة الإنجليزية ، بينما أثبت آخرون أن الفارق ضعيف بين الفكاهة الأمريكية والفكاهة اليابانية مثلاً . وقد حاول كاتب هذه السطور أن يقوم بتجربة مماثلة من أجل التحقُّق مما إذا كان فى وسع المختبَرين من المصريين أن يتعرَّفوا على الفكاهة المصرية وأن يميّزوها عن غيرها من الفكاهات الأجنبية ، فوجد أن ٧٣٪ من الأفراد الذين عُرِضَتْ عليهم تلك النماذج المختلطة من الفكاهة لم ينجحوا فى استخلاص النكات المصرية الأصيلة من بين ما عُرِضَ عليهم من فكاهات[١] .

بيد أنَّ هذا لا يعنى انعدام كل صلة بين الفكاهة والجنسية ، فإن من المؤكَّد أن لكل شعب روحه الفكاهية الخاصّة ونكاته العديدة التى يسخر فيها من غيره من الشعوب . وربما كان الاتجاه المفيد فى هذا الصدد هو ذلك الذى ذهب إليه موري *H, M. Murray* سنة ١٩٣٤ حينما حاول أن يبيّن لنا كيف أن عيوب الشعوب الأخرى ، ونقائص غيرنا من الأجناس ، هى دائماً أكثر استثارة لضحكنا من عيوبنا نحن،

---

(١) لازلنا بصدد القيام بدراسة تجريبية للروح الفكاهية فى مصر ؛ فليس فى استطاعتنا أن نضمن هذا الكتاب النتائج النهائية للبحث الذى نقوم به الآن ، ولكن حسبنا أن نقول إننا نأمل أن ننشر على القارئ يوماً — فى كتاب مستقل — دراسة مفصلة للفكاهة فى مصر ، دون الاقتصار على العرض التاريخى كما فعل غيرنا .

كما أنها فى الوقت نفسه أخصب وأطرف كموضوعات للنكتة من نقائصنا نحن . وربما كان السبب فى ذلك براجع إلى أن أساليبنا فى السلوك والتعامل تبدو لنا دائما طبيعية معقولة ، نظراً لأنها عادية مألوفة ، فى حين تبدو لنا أساليب غيرنا من الشعوب عجيبة مستهجنة ، وبالتالى مضحكة أو باعثة على السخرية . ومن هنا فإن الفرنسىّ يسخر من الإنجليزى ، والإنجليزىّ — بدوره — يتهكّم على الفرنسىّ ؛ ونحن فى مصر نتندّر على كثير من الشعوب الأجنبية ، فنطلق النكات على اليهودىّ والتركىّ والهندىّ والأمريكىّ والإنجليزىّ والفرنسىّ وغيرهم ! ولو تصفّح المرء أية مجلة فرنسية من المجلاّت الفكاهية لوجد أنها قلّما تخلو من نكتة تنطوى على سخرية أو تهكّم على الإنجليز ، خصوصاً وأن الروح العدوانية عند الفرنسىّ قد وجدت فى شخص الإنجليزى التقليدى المحافظ ، بتزمُّته وريائه ونفاقه المزعوم ، مادة خصيبة للفكاهة اللاذعة والنكتة البارعة و « والقَفْشة » الطريفة . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يرويه الفرنسيّون من أن شخصين إنجليزيّين وجدا نفسيهما فى جزيرة نائية ، على أثر غرق الباخرة التى كانا يركبانها . ولكن أحداً لم يُقدِّمْ الواحد منهما إلى الآخر ، فظل كلاهما وحيداً لا يجرؤ على مخاطبة الآخر ، وبقى الإثنان فى عزلتهما الأليمة لا يملكان سوى أن يجهل أحدهما الآخر تماما ! وما هى إلاَّ أيام معدودات حتى دفع الموج بإنجليزىّ ثالث إلى تلك

الجزيرة النائية ، فسرعان ما تألف من ثلاثتهما « نادٍ » ضمّ بين رحابه رعايا الإمبراطورية البريطانية المجيدة[1] !

ونحن فى مصر نملك ثروة ضخمة من النكات التى نطلقها على غيرنا من شعوب العالم ، خصوصاً وأن موقع بلادنا الجغرافىّ قد أتاح لنا الفرصة لأن نتعرف عن كثب على كثير من الأجناس (ما بين مستعمِر وزائر وسائح ومتطفّل . . . الخ) . وقد انضاف عامل الاحتلال الأجنبى إلى عامل اختلاف اللهجات واللغات والعادات والتقاليد بيننا و بين تلك الأجناس ، فكان أن برع المصرىّ فى السخرية من الحاكم الأجنبىّ ، والتهكّم على المستعمِر البغيض ، والتندّر على المحتل الدخيل . وكلنا يذكر بلا شك تلك النكات العديدة التى تناقلها المصريّون بأسرهم ، إبان العدوان الإنجليزى الفرنسى الغاشم على مصر ، وكأنّ تلك المحنة نفسها كانت سبباً فى تقوية الروح الفكاهية عندنا ، أو كانت على الأقل مناسبة طيّبة للتنفيس عن بعض نزعاتنا العدوانية نحو تلك الشعوب . والظاهر أن مجرّد اختلاف الشعوب والأجناس هو فى حدّ ذاته بمثابة تحدٍّ يُوجَّه إلى الشعب الواحد من قِبَل غيره من الشعوب ، بحيث قد يكون فى وسعنا أن نقول إن تحرّش الجماعة الواحدة — فى نكاتها وفكاهاتها وشتى مظاهر هَزْلها — بغيرها من الجماعات ، هو وليد تلك الروح

---

(١) *Cf. Ch. Lalo : «<u>Esthétique du Rire</u>», 5^e Partie, Ch. IV, pp. 230-232.*

العدوانية التى تنشأ أولا بالذات عن عامل « الاختلاف » أو « التباين » فيما بين الشعوب . والواقع أن مثل هذه الفروق قائمة بين الجنسين (الرجل والمرأة) ، فضلاً عن أننا نجد لها نظيراً أيضاً فيما بين الطبقات الاجتماعية من خلافات .

وقد قام الباحث الإنجليزى إيزنك بدراسة الفروق القومية المميّزة للشعوب من حيث مدى نموّ روح الفكاهة عند كل منها ، فوجد أنه على الرغم من وجود سمات خاصة تميّز الروح الفكاهية عند كل أمة ، إلاَّ أنه ليس ما يقطع بوجود تلك الروح عند البعض منها وانعدامها لدى البعض الآخر . وقد اهتم إيزنك بدراسة مجموعتين من الأشخاص الإنجليز والألمان المقيمين بإنجلترا (ولو أنه راعى عند اختيار هؤلاء الأخيرين أن يكونوا من أبعد الأشخاص عن التأثر بعادات الحضارة الإنجليزية) ، فاستطاع أن يتبيّن أنه ليس ثمة فارق يُذْكَر بين المجموعتين من حيث قدرة كل منهما على تمييز العناصر الفكاهية . أما الفروق التى أثبتت التجارب قيامها بين الأشخاص الذين أجريت عليهم التجارب من بين الأمريكيين والإنجليز ، فقد تبيّن أن مرجعها فى معظم الأحيان إلى اختلاف حظ المختبَرين من التربية والثقافة . — وقد عاد إيزنك فحاول أن يتحقق فى بحث آخر مما إذا كان فى الإمكان (أم لا) تمييز الرسوم المتحركة للشعوب المختلفة ونسبتها إلى أصحابها الحقيقيين ، فكان يعرض تلك الرسوم على أشخاص يجهلون مصدرها ، طالباً إليهم أن يحدّدوا جنسية أصحابها .

وقد أثبتت هذه التجارب أن الأشخاص المختبَرين لم يكونوا ينجحون في تعرف جنسية تلك الرسوم المتحركة ، إلاَّ حينما كانوا يرون أمامهم أمارات خارجية (كنوع لباس الرأس ، أو شكل الزىّ الذى يرتديه رجال البوليس ، أو كون حركة المرور تسير على اليمين أو على اليسار .. الخ.) يستطيعون عن طريقها أن يتميزّوا مصـدر تلك الصور المتحرّكة . وأما حينما كان المختبرون لا يجدون أمام أعينهم سوى قرائن « باطنة » *Internal* (كطريقة الرسم أو نوع الفكاهة المستخدمة) فإنهم لم يكونوا يهتدون إلى تحديد جنسية كل رسم من تلك الرسوم المتحركة . — وحينما أجـرى ايزنك تلك التجارب على مجموعتين من الأشخاص الـكنديّين والإنجليز ، لاحظ أن درجة ضحكهم كانت تتوقف طردياً على حَدْسهم بجنسية أصحاب تلك الفكاهات ، بمعنى أنهم كانوا يضحكون كثيراً لما يظنونه بالفكاهة الأمريكية ، بينما كانوا يستقبلون ببرود ما كانوا يحسبونه فكاهة ألمانية ! ولـكنّ التجربة قد أثبتت أنه لم يكن ثمة علاقة مطردة بين شـدة ضحكهم و بين الجنسية الحقيقية لأصحاب كل فكاهة من الفكاهات التى كانت تعرض عليهم .

وأخيراً لا بدّ لنا من أن نشير إلى دراسة ثالثة قام بها هذا الباحث عينه من أجل حصر موضوعات الصحف الفكاهية الشعبية (ذات الجنسيات المختلفة) حصراً إحصائيًا دقيقاً . وقد استطاع إيزنك أن يتحقق هنا من أن الفروق الموجودة بين صحيفتين من جنسية واحدة قد تـكون

أ كبر من الفروق الموجودة بين صحيفتين من جنسيّتين مختلفتين . والسبب فى ذلك هو أن لكل صحيفة أو مجلة موضوعاتها الخاصة ، فى حين أننا لا نستطيع أن نقول إن لكل شعب مثل هذه الموضوعات . وهكذا نرى مثلا أن الرسوم الكاريكاتورية التى اختُصَّتْ بها الصحيفة الهزلية الإنجليزية المسمّاة *Razzle* تدور فى معظمها حول المسائل الجنسية وشرب الخمر والفكاهات العدوانية ، بينما تبلغ نسبة مثل هذه الرسوم فى جريدة *New Yorker* ٢٦٪ ، وفى صحيفة *Punch* صفر٪ . ومن جهة أخرى ، تبلغ نسبة الرسوم الكاريكاتورية المتعلّقة بموضوعات التفاوت الطبقى حوالى ٧٢٪ فى مجلة *Punch* ، و٣٤٪ فى صحيفة *New Yorker* و ١١٪ فى مجلة *Razzle* من مجموع الموضوعات الفكاهية لكل منها على حدة . ومعنى هذا أن عامل « الجنسية » ليس بالعامل الفيصل فى تحديد نوع الفكاهة التى تميل إليها هذه الصحيفة الهزلية أو تلك(١)

---

(١) *Cf. H Eysenck : «National differences in sense of humour»; in «Charact. Pers.», Vol. XIII , pp. 37-54. (1944).*

خاتمـــة

إذا كنّا قد حاولنا — فى تضاعيف هذا البحث — أن نلقى بعض الأضواء على « الضحك ، هذا المجهول » *(Le rire, cet inconnu)*، فذلك لأن هذه الظاهرة البشرية المعقدة قد بدت لنا منذ البداية مشكلة متعدّدة الجوانب مترامية الأطراف ، بحيث قد يصحّ لنا أن نقول إن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من نماذج بشرية . والواقع أن الضحك أمارة سيكولوجية ، إن لم نقل مع بعض الباحثين بأنه أداة تشخيصٍ أخلاقىّ *diagnostic moral* ؛ فليس بدعاً أن يذهب بعض الفلاسفة إلى حد القول بأن « الضحك ، هو الإنسان نفسه » ! ولسنا نعنى أن الضحك ظاهرة شخصية بحتة ، كما قرر بعض الباحثين ، وإنما نعنى أنه مقياس للإنسان . وربّما كان هذا هو ما قصد إليه مارسل پانيول حينما قال فى خاتمة دراسته القيّمة للضحك : « قُلْ لى مِمَّ تضحك ، أَقُلْ لك مَنْ أنت » .(١)

وهنا قد يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند مشكلة الدلالة الأخلاقية للضحك ، فإن حكماء الدين والأخلاق قد أسهبوا فى نهى الناس عن الاسترسال فى المزاح والهزل والضحك ، حتى لقد استمطر

(١) *Cf. Marcel Pagnol: «Notes sur le Rire», 1947, pp. 123-124.*

بعضهم اللعنات على الضاحكين والمازحين وأهل الفكاهة ! وقد لاحظ الفيلسوف الإنجليزى هويتهد خلوّ التوراة من كل روح فكاهية ، فقال : إنه ربّما كان السرّ فى انعدام الفكاهة تماماً من كل كتابات اليهود الأقدمين هو أن شعب إسرائيل كان شعباً مضطهداً معذّباً ، فكان هبوطه النفسىّ عاملاً هامًّا من عوامل انصرافه عن الضحك والمزاح والفكاهة(١) . ويعود هويتهد فيقول فى موضع آخر : « إن الضحك لهو فضيلة إلهية . وإنه لأمر خطير بالنسبة إلينا نحن شعوب أوروبا الشمالية أن تكون الأديان العبرية خالية تماماً من كل صبغة فكاهية ؛ فإن الضحك ليلعب دوراً هامًّا فى صميم حياتنا ، ومن هنا فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نستبقى ضحكاتنا لدوائر أخرى تبعد كل البعد عن الدين . »(٢) . — حقا إن سليمان الحكيم قد قرّر فى أمثاله أن : « للضحك وقتاً ، وللبكاء وقتاً » ، ولكننا نراه يعود فيقول فى سفر « الجامعة » إن فى الضحك مَسًّا من الجنون !

أمّا فى المسيحية فإنه لم يذكَر عن المسيح أنه ضحك يوماً ، فى حين نَصّ الإنجيل على أنه بكى ثلاث مرات ! ولئن كان القديس بولس قد أوصى المسيحيين فى إحدى رسائله بأن يفرحوا فى كل حين ، إلاّ أنه

---

(١) ، (٢) *Lucien Price: «Dialogues of Alfred North Whitehead.», A Mentor Book, New-American Library, 1956, pp. 163, 285.*

هو نفسه — كما قال رينان — لم يكن يعرف حتى لغة الابتسام ! وهذا بوسّويه Bossuet يعدّ الضحك رجساً من الشيطان فيقول : « يا لشقاء الضاحكين فإنهم أتعس بنى البشر » ! وأما الـكاثوليكى الشهير لامنيه Lamennais فقد اشتط فى حكمه على الضحك حتى لقد كتب يقول : « إن الضحك لينطوى فى جميع الحالات على حركة تبدأ من الذات وتنتهى إلى الذات ، يستوى فى ذلك أن نكون بإزاء ضحك السخرية القاسى المرير ، أم ضحك اليأس الملىء بالفزع والخوف ، أم ضحك الشيطان المهزوم الذى يصرّ مع ذلك على المقاومة فيلوذ بكبريائه الغاشمة التى لا تلين ، أم ضحك الأبله والمعتوه . . . الخ . والضحك لا يكسب الوجه على الإطلاق أى تعبير من تعبيرات التعاطف أو المشاركة أو المودّة ، وإنما هو على العكس من ذلك ، يشيع القُبْح فى أكثر الوجوه انسجاماً ، و يطمس معالم الجمال فى أبهى القسمات ! وإذن فإن الضحك هو صورة من صور الشرّ ، لا لأنه يعبّر عنه تعبيراً مباشراً ، بل لأنه يكشف عن موطنه ، ويزيح النقاب عن مُسْتَقَرّه[١] » .

أمّا فى الإسلام فقد رُوِىَ عن رسول الله أنه قال : « روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلّت عميت » . ويذكر أبو الحسن البصرى فى معرض الحديث عن مزاح الرسول أن عجوزاً

---

(١) Cf. Lalo: «Esthétique du Rire», Conclusion, p. 247.

من الأنصار أتته فقالت : يا رسول الله أُدْعُ لى بالمغفرة فقال : « أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز ؟ » فصرخت ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «أما قرأت من القرآن قول الله عزوجل : إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عربا أترابا » ؟!. ولكن نبىّ الإسلام الذى كان يمزح على هذا الوجه يعود فيقول فى حديث آخر : « المزاح استدراج من الشيطان ، واختداع من الهوى » . كذلك رُوى عنه أيضاً صلوات الله عليه أنه قال : « إياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه » . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها » أن الصغيرة الضحك . وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : « إذا ضحك العالم ضحكة ، مج من العلم مجة » ! وقيل فى منثور الحكم عند العرب : « ضحكة المؤمن غفلة من قلبه » . وروى عن عمر بن العزيز أنه قال : « اتقوا المزاح فإنه حمقة تورث ضغينة» . وقال بعض البلغاء : «من قلّ عقله كثر هزله»[(١)] وكل هذه الأحاديث والأمثال والحكم إنما تظهرنا بصورة قاطعة على أن الإسلام قد اتفق مع المسيحية فى نهى المؤمن عن المزاح ، ودعوته إلى التحرُّز من الضحك . ولكن العرب قد فطنوا إلى أن المزاح ينفى عن النفس ماطرأ عليها من سأم ، ويزيل عن القلب ما ألمّ به من همّ ،

(١) « أدب الدنيا والدين » لأبى الحسن البصرى ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .

لأنه لا بدّ للصدور أن ينفث ، فقال شاعرهم :

أفد طبعك المكدود بالجدّ راحة ... يجمّ وعلّله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يعطى الطعام من الملح!

والواقع أن الضحك ظاهرة إنسانية بحتة : فإن الله لا يضحك ، والمَلَك في السماء لا يضحك ، والحكيم في وقاره واتزانه لا يضحك! وهذا بودلير يقول في حديثه الرومانتيكي عن الضحك : « إن الحكيم لا يضحك إلاّ وهو يرتعد ! إن الضحك رجس من الشيطان ، فهو إذن شيء من أخصّ خصائص الإنسان ! والضحك أيضاً هو في جوهره تناقض : فإنه دليل العظمة اللامتناهية من جهة ، ولكنه كذلك دليل الشقاء اللانهائيّ من جهة أخرى » ![1] — وهذا برجسون يقرّر في خاتمة رسالته عن الضحك ، بعد أن أسهب في الحديث عن الدور الاجتماعي الذي يقوم به ، أنه ربّما كان في الضحك ضرب من المرارة التي تكشف عما في الطبيعة البشرية من خبث وشرّ وسوء نية[2]. — فعلى أيّ نحو إذن ينبغي أن نتصوّر العلاقة بين الفكاهة والقيم ، أو بين الضحك والأخلاق ؟ وهل يمكن بعد هذا كلّه أن ننسب إلى الضحك دلالة أخلاقية ؟ .

---

(١) *Cf. Baudelaire: «Curiosités Esthétiques», De l'Essence du Rire, 1884.*

(٢) *H. Bergson: «Le Rire», P.U.F., 67e éd., 1946, pp. 150-153.*

الحق أن بعض ضروب الفكاهة قد تنطوى على استخفاف بالمبادى الأخلاقية أو سخرية من القيم ، كما يظهر مثلاً من بعض النكات الجنسية أو العدوانية التى أطلق عليها فرويد اسم « الفكاهة المغرضة » . فليس بمستبعد أن يكون ضحكنا فى بعض الحالات على حساب المبادئ الأخلاقية ، أو أن يكون هزلنا قائماً على التضحية ببعض المعايير السلوكية الجمعية . هذا إلى أنه لا بدّ لنا أيضاً أن نعترف بأن بعض النكات الشعبية والرسوم الهزلية والصور الكاريكاتورية قد تخفى وراءها شيئاً من الاستخفاف بالسلطة الأخلاقية ، أو الاستهزاء بالقيم الدينية ، أو الشك فى قيمة بعض المبادئ اللاهوتية (كالنكات التى تدور حول الجنة والنار ، والحياة الأبدية ، والرسل والأنبياء ... الخ) . ولكن من المؤكد أن كثيراً من المسرحيات الهزلية إنما ترمى إلى أهداف أخلاقية واضحة ، كما يظهر من عناوينها التى تحمل فى العادة اسم رذيلة أخلاقية يصبّ عليها الكاتب النكات صبًّا . . . فمن هذا القبيل مثلاً بعض مسرحيات موليير المشهورة ، كالبخيل *L' Avare* أو «عدوّ المجتمع» أو «المريض الوهمىّ » أو «طبيب رغم أنفه» ... الخ . ولا نرانا فى حاجة إلى أن نعيد ما سبق لنا ذكره من أن الفكاهة الساخرة حين تتهكّم على أصحاب تلك الرذائل أو النقائص ، فإنها بذلك إنما تهدف إلى إداتنها أخلاقيًّا والحكم على أصحابها بأنهم ليسوا أهلاً لأن تُحْمَل تصرفاتهم على محمل الجدّ .

بيد أننا لا بُدّ من أن نعود فنقرر من جهة أخرى أن المشكلة الأخلاقية لا تُثار دائما بالنسبة إلى شتى فنون الضحك : لأن ثمة فكاهات تستثير لدينا الضحك دون أن تكون لها أدنى صبغة أخلاقية ، كالأخطاء الحسابية التى يرتكبها فى إحدى المسرحيّات « كاتب » يقوم بعمليات الجمع على طريقة « بهلوانية » مضحكة ، أو كالأنغام الناشزة التى تظهر على حين فجأة فى إحدى المقطوعات الموسيقية[1] ، أو كالحركات النمطية التى يقوم بها أرباب الحرف المختلفة بشكل آلىّ يبعث على السخرية ، أو كالأزياء القديمة التى يرتديها بعض المستخفّين بالبدع الحديثة فيكون سلوكهم متجافيا مع الأوضاع الاجتماعية دون أن يكون مع ذلك منطوياً على أدنى صبغة لا أخلاقية . . . الخ .

وحتى حينما يكون من حقنا أن نتساءل عما إذا كان الضحك فى هذه الحالة أو تلك ذا صبغة خلقية أم لا ، فقد يكون من واجبنا أن نتذكّر — كما يقول لالو — أن الضحكة الواحدة قد تكون أخلاقية أو أخلاقية أو عديمة الصبغة الأخلاقية ، بحسب طبيعة الزاوية التى ننظر منها إلى الموقف الفكاهى نفسه . ومعنى هذا أن نسبية القيم قد تحول

---

(١) يذهب بعض الباحثين إلى أنه من الممكن أن تكون للموسيقى فكاهتها الخاصة (المستقلة عن اللغة) كما أثبتت التجارب التى قام بها مول *Mull* سنة ١٩٣٩ على ثلاثين طالباً أثناء استماعهم لمقطوعتين : الأولى منهما لشتراوس تحت عنوان *Till Eullenspiegel* والأخرى لرامو *Rameau* وعنوانها *LaPoule*

بيننا و بين الحكم على الضحك حكما عاما مطلقاً ، خصوصاً إذا عرفنا أن للمواضعات الاجتماعيــة والفروق الطبقية والاختلافات الحضارية أثرها الكبير فيما نصدر من أحكام على المواقف الأخلاقية المختلفة .

أما الزعم بأن العقلية الدنيئة هى وحدها التى تتجه نحو الكوميديا ، كما قال أرسطو ، بدعوى أنّ الكاتب الهزلىّ لا يرى من الحياة إلاّ مساخرها ومواقفها التافهة ونقائصها الباعثة على السخرية ، فإن أقلّ ما يمكن أن يقال فى الردّ عليه إن كتابة المسرحية الهزلية لا تعنى بالضرورة افتقار حياة الكاتب إلى الجد ، وانحصار كل وجوده فى مواقف الهزل والدعابة والضحك . حقا إن بعض كتاب الكوميديا قد عاشوا حياة مليئة باللهو والعبث والاستهتار ، ولكنّ كثيرين من بينهم قد عاشوا تعساء أشقياء ، يُضْحِكون الناس وهم يتجرعون فى حياتهم الخاصة مرارة الألم ! فليس من الضرورىّ أن يكون الفن نسخة مطابقة للحياة ، وليس ما يمنع أحياناً من أن يكون الكاتب الهزلىّ نفسه صاحب مزاج سوداوىّ ! هذا وقد دلّتنا التجربة فى كثير من الأحيان على أن ازدياد إقبال الأفراد والشعوب على الفكاهة ، قد يقترن بازدياد قسوة المعيشة ، مما يدلنا على أن الضحك قد يكون فنّا تبتدعه النفس البشرية لمواجهة ما فى حياتها من شدة وقسوة وحرمان .

وأخيراً لا يسعنا سوى أن نقرر ما قد يكون للفكاهة من أثر محمود على الإنسانية لو أن شعوب العالم استطاعت أن تربطها بتلك المواقف

الاجتماعية التى ينجم ما فيها من شرّ عن كوننا نعلّق عليها أهمية جدية كبرى (كالخرافات والمحرّمات والعصبيات والظنون السيئة . . . الخ) . وهكذا قد يصبح الضحك وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من « الصحة العقلية » لدى الفرد أو المجتمع ، لو أنه استطاع أن يحمل ذاته العليا *Superego* على أن تكوّن عن الواقع صورة صافية لا تكدرها وساوس أو عداوات أو تحزّبات أو آراء أخلاقية مُسبَّقة أو أفكار اجتماعية مُبتَسَرة . ومَنْ يدرى فربما يأتى اليوم الذى نسخر فيه من حماقات أمم بأسرها أشعلت بسخافاتها نار الحرب العالمية ؟ وعندئذ قد تفعل الفكاهة ما لم تستطع هيئة الأمم أن تفعله ، إذ تصبح أداة سيكولوجية ناجعة لصيانة السلم فى العالم أجمع !

مراجع

لما كان موضوع الفكاهة والضحك لم يَلْقَ عندما من الدراسة ما هو أهل له ، فإننا سنأتى فيما يلى على ثبت واف بأكبر عدد ممكن من المراجع ، حتى يستطيع الباحث الذى يريد أن يوفى الموضوع حقه من الدراسة والاستقصاء أن يجد بين يديه بعض أدوات البحث . وسنشير فى ختام قائمة المراجع إلى بعض الرسائل الجامعية (غير المنشورة) التى عرضت لدراسة مشكلة الضحك ، مِمَّا قد يستفيد منه الباحث الأكاديمىّ الذى يريد أن يقف على وجهات نظرة سابقيه .

١ – المراجع الفرنسية

1.—Aubouin (E.): "Technique et Psychologie du Comique.", Paris, 1948.

2.—Augier (E.): "Sur le comique"; "Revue du Mois", 1920, vol. XX., pp. 393—407.

3.—Baudelaire (Ch.): "Curiosités Ésthétiques.", De l'Essence du Rire et généralement du Comique dans les arts plastiques, Calmann—Lévy, Paris, 1884, Tome II.

4.—Baudoin (G.): "Tragédie et Comédie", Paris, 1946.

5.—Bergson (H.); "Le Rire; Essai sur la signification du Comique", Paris, P. U.F., 67ᵉ éd , 1946.

6.—Chapiro (M.): "L'Illusion Comique.", Paris, 1941.

7.—Delage (Y): "Sur la nature du comique."; art. dans la "Revue du Mois", 1919, vol. XX. pp. 337—354.

8.—Dugas (L.): Psychologie du Rire", Paris, 1902.

9.—Dumas (G.): "Le Sourire" (Illustré), Paris. 1902.

10. » » "Nouveau Traité de Psychologie", t. III., 1933.

11.—Dupréel (E.): "Le problème sociologique du rire.", in "Revue Philosophique.", 1928.

12.—Fabre (S.): "Le Rire et les Rieurs.", Paris, 1929.

13.—Jeanson (F.): "Signification Humaine du Rire", Paris, Editions du Seuil, 1950.

14.—Jeantet (L.): "De quoi et pourquoi rit-on; Psychologie du rire.", in "Revue Philosophique", 1944.

15.—Lalo (Ch.): «Esthétique du Rire». Flammarion, Paris, 1949.

16. - Pacaud (A.): «Contribution à l'étude du mécanisme du Rire: le Rire réflexe et le rire automatique.», Paris, 1928.

17.—Pagnol (M.): «Notes sur le Rire.», Nagel, Paris, 1947.

18.—Paulhan (F.): «Le Sens du Rire.», article in «Revue Philosophique.», 1931,

19.—Penjon (A.): «Le Rire et la Liberté»; in «Revue Philosophique.», 1893 (t. II.).

20.—Piret (A.): «Recherches génétiques sur le comique.» in «Acta Psychologica», 1940, N° 283.

21.—Raulin (Dr. M. J.): «Le Rire et les Exhilarants; Etude anatomique, psycho-physiologique et pathologique.» (illustré), Paris, 1900.

22.—Ribot (Th): «La Psychologie des sentiments», Paris, 1895, X., 4.

23.—Saulnier (Cl.): «Le sens du comique.», Paris, 1940.

24.—Souriau (E.): «La Correspondance des Arts.», Paris, Flammarion, 1948.

25.—Souriau (E.): «Le Risible et le Comique.», in «Journal de Psychologie.», 1948.

26.—Stern (A.): «Philosophie du rire et des Pleurs», Paris, P.U.F., 1949.

27.—Stoetzel (J.): «Sur la nature du rire», article in «Revue Philosophique.», 1944.

28.—Toulzac (Dr.) : «Rire et pleurs spasmodiques.», Paris, 1901.

29. - Treich (L.) : «L'Esprit Français., Paris, 1942.

30.—Valentine (C.W.): «La Psychologie génétique du rire.»; «Journal de Psychologie», 1936.

31.—Voltaire : «Dictionnaire Philosophique.», 1764. Paris, (Art. Esprit et Rire.).

٢ — المراجع الانجليزية والأمريكية

32.—Armstrong (M.) : «Laughter», New-York, 1920.

33.—Bawden : «The comic as illustrating the summation-irradiation theory of pleasure and pain»., «Psychological Review», 1910., vol. XVII ; pp. 336-347.

34.—Burt (C) : «The Psychology of laughter», in «Health Educational Journal.», 1945, vol. III., N° 3.

35.—Crile (J.W.) : «The origin and nature of the emotions », Philadelphia, Saunders, 1915.

36.—Darwin (Ch) : «The Expression of the Emotions in Man and Animals.», N.Y., Appleton, 1899.

37.—Eastman (M.) : «The Sense of Humor.», New-York, Scribner, 1921.

38. Eidelberg (L.) : «A contribution to the study of wit.», in «Psych.-anal. Rev.». 1945, XXXII, pp. 33-61.

39.—Eysenck (H.J.): «Dimensions of Personality.», London, Kegan Paul, 1947.

40.—Flugel (J.C.) : «Humor and Laughter», in «Handbook of Social Psychology.», N.Y., 1954, vol. II.

41.—Freud (S.): «Hum›r», in «International Journal of Psychology.», vol IX., January 1908, pp. 1-6.

42.—Hayworth D.) «The origin and function of Langhter», Psych. Rev.», 1928., XXXV., pp. 367-384.

43 - Hobbes (Th.): «On Human Nature», trad. franç., 1652, IX., 13

44.—Kallen (A.): «The aesthetic principle in comedy.», in «American Journal of Psychology.», 1911, Vol. XXII.

45.—Kline: «The psychology of humor.», in «American Journal of Psych.», vol XVIII, 1907, pp. 421-441.

46.—Kimmins (C.W.): «The Springs of laughter.», London, Methuen, 1928.

47.—Kris (E); «Ego development and the Comic.», in «Inter. J. Psycho-anal.», 1938., XIX:. pp. 77-90.

48.—L'ndis (C) and Ross (J. W. H.): «Humor and its relation to other personnality traits»; in» Jour. Soc. Psych.», 1933., IV., pp. 156-175.

49.—Ludovici (A.): «The Secret of Laughter», London, Constable, 1932.

50.—Mac Comas (H.C.): «The Origin of laughter», in «Psych. Rev.», 1923., XXX., pp. 45-55.

51.—Mac Dougal (W.): «An Outline of Psychology.», London, Methuen 1923., 13th Ed., 1949.

52.—Martin (L J.): «Psychology of Aesthetics: The comic.»; in «American Journal of Psych.», 1905., vol. XVI., pp. 35-118.

53.—Meredith: «An Essay on Comedy.», London, 1687.

54.—Morrison (J.A.) : « A note concerning investigations in audience laughter.»; «Sociometry.», 1940, XXX. pp. 179-185.

55.—Murray (H. A.) : «The psychology of humour.»; «J. Abnormal Soc. Psych.», 1934, XXIX., pp 66-81.

56.—Murray (H.A.) : «Explorations in Personality.», New-York, Oxford University Prsss., 1938.

57.—Piddington (R.) : «The Psychology of Laughter.», (A study in social adaptation); London, Figurehead, 1933.

58.—Rapp (A.) : «A phylogenetic theory of wit and humor.», «J. Soc. Psych.», 1949., XXX., pp. 81-96.

59.—Stanley Hall and Allin : «The Psych. of laughing, tickling and the comic.»; «Amer. J. Psych.», IX, 1867.

60.—Sully (J.) : «An Essay on laughter.», London, 1902.

61.—Valentine (C.W.) : «The Psychology of Early Childhood.», London, Methuen, 1942.

62.—Walsh (J. J.) : «Laughter and Health.», New-York, 1928.

63.—Washburn (R. W.) : «A Study of the Smiling and Laughing of Infants.», in «Genet. Psychol. Monogr.», 1926, VI, pp. 405-537.

64.—Willmann (J M.) : «An Analysis of humor and Laughter.», «Amer. Jour. Psych.», 1940, 53, pp. 70-85.

65.—Wolf (H.A.), Smith (C.E.) and Murray (H.A.) : «The Psychology of Humor.», Jour. of Abnorm. Soc. Psych.», 1934, XXVIII, pp. 345-365.

66.—Young (P.T.) : «Laughing and weeping, cheerfulness and depression»; in «Jour. of Soc. Psychol.», 1937, VIII, pp. 311-334.

٣ — المراجع الألمانية

67, - Fechner (G. Th.) : «Vorschule der Æsthétik», 2 vol,. Berlin, 1875.

68.—Freud. (S) : «Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten.», 1905; 2° éd., 1912.

69. Groos (K) : «Der ästhetische Genuss.», Berlin, 1902.

70.—Hecker (E.) : « Physiologie und Psychologie des Lachens und des Komischen.», 1873.

71.—Heymans : «Zur Psychologie der Komik.», in «Zeitschr. f. Psych. und Phys. der Sinnesorgane», 1899.

72. - Kant (I.) : «Kritik der Urteilskraft.», Leipzig, 1867, Ed. G. Hartenstein.

73.—Kraeplin (A.) : "Zur Psychologie des Komischen", in "Philos. Studien", Vol. II., 1885.

74.—Jahn (J.) : "Das Problem des Komischen in seiner genschichtlichen Entwicklung.", 1904.

75 —Jean-Paul (Richter) : "Vorschule der Aesthetik.", Berlin, 1804.

76. Lipps (Th.) : "Komik und Humor", 1898 & "Psych. der Komik.", in "Philosophische Monatshefte" Vol XXIV.

77.—Lotze (H) : "Geschichte der Aesthetik in Deutchland.", 1868.

78.—Schauer : "Ueber das Wesen der Komik."; in "Arch. f. die gesamte Psychol.", Vol. XVIII, 1910.

79.—Solger (K) : "Vor lesungen über Aesthetik,", 1829

80.—Vischer (F. Th.) : "Ueber das Erhabene und Komische.", 1837.

81.—Vischer (F. Th.) : "Das Schöne und die Kunst", 1898.

82.—Zeising (A.) : "Aesthetische Forschungen.", 18 55.

٤ — رسائل جامعية

83.—Brumbaugh (F.): "Stimuli which cause laughter in Children.", Unpublished doctor's dissertation, New-York University, 1939.

84.—Ghosh (R.): "An Experimental Study of Humour.", Unpublished doctoral dissertation, London University, 1939.

85.—Gregg (A.). "An Observational study of humor in three year's old.", Unpublished master's thesis, Columbia University, 1928.

86.—Hester (Mary St. Clair): "Variations in the sense of humor according to age and mental condition.", Unpublished master's thesis, Columbia University, 1924.

87.—Lange (F. E.): "A Statistical Analysis of croud laughter.", Unpublished master's thesis, Columbia University, 1927.

88.—Loos (F M.): "A Study of the Interrelations of sense of humor with some other personality variables. "Unpublished doctoral dissertation, London, 1951.

89.—Sears (R. N.): "Dynamic factors in the Psychology of Humour.", Unpublished doctoral dissertation Harvard University, 1934.

90.—Williams (J. M.): "An Experimental and Theoretical, Study of humour in Children.", Uupublished doctoral dissertation, London University, 1945.

دليل المصطلحات

Aesthetics	علم الجمال
Affection	وجدان
Aggressiveness	عدوان
Ambivalence	تناقض وجداني
Automatism	آلية
Catharsis	تطهير ، تنفيس
Censor	رقيب
Character	خلق ، طبع
Cognitive	إدراكي ـ عرفاني
Condensation	تكثيف
Consciousness	شعور
Contrast	مقابلة ـ تباين
Conventions	مواضعات
Correlation	تضايف ـ ارتباط
Culture	ثقافة ـ حضارة
Defense mechanism	آليات الدفاع
Depression	هبوط
Detachment	انفصال
Distraction	غفلة ـ تلاهي
Dream	حلم
Ego	الأنا
Emotion	انفعال
Energy	طاقة
Environment	بيئه
Equilibrium	توازن
Extravert	منبسط
Fantasy	تخيل ـ أحلام يقظة
Feeling	وجدان
Form	شكل ـ صورة ـ هيئة
Gallow's humor	فكاهات المشنقة
Genetic	تكويني
Group-mind	عقل جمعي
Guilt	إثم ـ ذنب
Harmless	بريء ـ غير مغرض
Harmony	انسجام
Hilariousness	غبطة ـ انشراح
Humour	فكاهة
Hysteria	هستيريا
Id	الـ « هو »
Incongruity	مفارقة ـ تنافر
Inferiority	نقص ـ دونية
Introjection	امتصاص ، استدماج
Introversion	انطواء
Invention	ابتكار ـ ابتداع
Jealousy	غيرة
Judgment	حكم ـ ملكة الحكم
Laughter	ضحك
Ladicrous	مضحك
Maladjustment	سوء توافق
Mania	هوس
Melancholia	سوداء (ملانخوليا)
Motive	باعث

National differences	فروق قومية	Tendentious	مغرض
Neurosis	عصاب	Tension	توتر
Normal	سوى	Tickling	دغدغة
Scatological	إخراجى (متعلق بالغائط)	Trait	سمة
Self-criticism	نقد ذاتى	Type	نموذج
Sense of humor	روح الفكاهة	Unconscious	لاشعور
Seriousness	الجدية	Understanding	فهم
Super-ego	الأنا الأعلى	Unity	وحدة
Superiority	تفوق — استعلاء	Value	قيمة
Surplus-energy	فائض الطاقة	Valuation	تقييم — تقدير
Sympathy	تعاطف. مشاركة وجدانية	Vitalism	نزعه حيوية
Syntonic	متناغم	Vividness	وضوح — نصوع
System	نظام — نسق	Well-being	انشراح — رفاهية
Taboo	(تابو) محرم	Will to laugh	إرادة الضحك
Talion	مبدأ القصاص	Wit	نكتة — ملحة

مكتبة مصر

دار مصر للطباعة
٢٥٣٣ شارع كامل صدقى الفجالة